

جولة في ربوع أوروبا

بين مصر وأيسلنده

محمد ثابت

جولة في ربوع أوروبا

جولة في ربوع أوروبا

بين مصر وأيسلنده

تأليف
محمد ثابت



جولة في ربوع أوروبا

محمد ثابت

رقم إيداع ٢٠١٤ / ١١٢٠٤
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٩١٠ ٠

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

المحتويات

مُقدِّمة ٩

الرحلة الأولى يونيه ١٩٢٦ ١٣

الرحلة الثانية يونيه ١٩٣٠ ٧١



رحلة سنة ١٩٢٦ عن طريق إيطاليا. رحلة سنة ١٩٣٠ عن طريق البحر الأسود.

مُقدِّمة

لعل أشهى ما تتوق إليه نفسي، وأمتَعُ ما يَطمِئنُّ له جناني جولاتٌ أقوم بها في مختلف البلاد، لا فرق عندي بين سهل وحَزْن، وبَدْو وحضرٍ، أجوس خلالها مُنَقِّبًا في غير ملل، رغم أني أركب في سبيل ذلك الصعب وأحتمل الألم، وكأني أستشعر بهذا اللذة الكاملة التي لا أبتغي عنها عوضًا، والحق أن في الرحلات — التي أُغرمت بها منذ الصبا — لَخير مجدِّد لنشاط الجسم، ومضاء العزم، إلى حفزٍ في الهمم، وتقويم في الخلق، واعتماد على النفس.

وها أنا أقص فيما يلي نبأ رحلتين جُبت فيهما كثيرًا من أرجاء أوروبا، قمت بأولاهما في صيف سنة ١٩٢٦ برفقة زميلين فاضلين؛ هما: الأستاذ علي الأهواني، والأستاذ عبد الرحمن السيد، وقد حللنا بلادًا عدة من إيطاليا وفرنسا وسويسرا وإنجلترا؛ وفي رحلتي الثانية في صيف سنة ١٩٣٠ لم أوفَّق إلى زميل؛ فاعتزمت القيام بها وحيدًا، وكنت فيها أمضى عزمًا مُذْ قطعتُ ما يناهز سبعة عشر ألف كيلومتر بين بر وبحر، وحللت أربع عشرة دولة، وكأني رأيت في عزلتي مشجعًا لي على توخي الاقتصاد والجرأة.

كنت إذا حللت بلدًا أودعت حقائبي مكتب الأمانات وخرجت أختلف إلى الفنادق حتى أهتدي إلى ما يروقني في غير توريط ولا إعنات، ثم ألجأ إلى دار كتب أتصفح ما بها من مصورات «كرتات» عن المدينة، وأناقش صاحب المكتبة فيها جميعًا كي أتفهمها، ثم أبتاع منها ما أستملحه، وأستزيد بخريطة يدوية للمدينة أتصفحها بإمعان بعد أن أُعيِّن موضع المكتبة والنزل منها. وكنت على خططها أسير دون أن ألجأ إلى بوليس أو دليل. ولقد كان في ذلك عون لي على تفقد أحياء المدينة في أيام قليلة.

وقد كنت طوال جولاتي أحاول درس البلاد التي حللتها من الوجهة الجغرافية والاجتماعية ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وكانت مصر العزيزة ماثلة أمامي دائمًا أحدِّث القوم عنها، وأشيد بذكرها في جميع البلدان، وما كان أشد ألمي عندما كان القوم يذكرون عن مصر في سياق حديثهم معي معلومات مشوهة نحن براء منها؛ ذلك لأن الدعاية لمصر في تلك الأنحاء مهملة، اللهم إلا فيما يذيعه ذوو الأغراض السيئة مما يحط من قدرنا، ويصورنا في صورة الهمج الرعاع، بينا تجدهم يذيعون في دعايتهم لبلادهم من المحسنات ما هو مبالغ فيه إلى حد لا يطابق الواقع مطلقًا، وما كنت أفتر لحظة عن دفع تلك المفتريات عنا، وإقناعهم بأن مصر تفوق كثيرًا من بلدان أوروبا حضارة ونظامًا، وإن فاتني أن أُزوِّد نفسي بمجموعة من الصور المصرية المشرفة أمثال تلك التي تراها تُعرض في جميع مكتباتهم، وبها أفخر مبانيهم، وأجمل أحيائهم وحدائقهم، وأجلُّ آثارهم ومشاهدهم.

حقًّا ليس فيما تعرضه المكتبات المصرية عنا ما يشرف؛ إذ لا تجد صورة لمنظر طبيعي أو أثر تالد، أو مكان طريف إلا ويُشوِّه جماله أحد الباعة المتجولين، أو الشحاذين، أو أبناء السبيل، أو المشعوذين في ثياب بالية وشكل مُزرٍ. وفي استطاعة هواة التصوير الشمسي ورجال الفن في مصر — ولا أعفيهم من اللوم — أن يقصدوا إلى إعفاء صورهم مما يحط من قدر مصر كما يفعل زملاؤهم في البلاد الأوروبية.

وكم كنت أحاول أن أعثر على صور بعض الأحياء القذرة والبيئات الفقيرة — وهي كثيرة حتى في أكبر عواصمهم، وبخاصة في دول شرق أوروبا — لكن بغير طائل! وقد حاولت مرارًا أن أُصوِّر بنفسي بعض أحيائهم القذرة، فكان يمنعني المارة من ذلك، ويُظهرون لي استياءهم الشديد. أذكر من ذلك حادثتين كدت أفقد فيهما آلة التصوير وأُساق إلى البوليس؛ إحداهما: في سوق السمك في برجن، من أعمال النرويج، وهو من أقذر أحياء المدينة، والأخرى: في أحد الأزقة المختنقة التي يقطنها فقراء ستكهلم.

وكم كان إعجابي شديدًا بسيدة أيسلندية جمعني وإياها مجلس، فكانت تحاول تصوير أيسلنده وكأنها جنة الخلد! ولم تقنع بالقول، بل كانت تتطوع بمالها ووقتها، وترافقني إلى الأماكن القاصية مخافة أن آخذ عن بلادها الفقيرة فكرة سيئة. وكنت ألاحظ أنها تحاول إبعادي عن الأماكن القذرة، وكانت ترجوني أن أكتب عن بلادها ما راقني عند عودتي لمصر جزاء ما أَسْدتْ إليَّ من خدمات. وقد وصلني منها خطاب تنتظر أن أوافيها بما نشرته عن أيسلنده في مجلاتنا ومصوراتنا.

وعجيب جدًّا أن ينكر إخواني المصريون هناك شخصياتهم، ويخفوا جنسيتهم، فهم يشتركون في الحديث وكأنهم من بلد غير مصر! وقد ضمتني مجالس كثيرة ببعضهم، فكانوا يرجونني ألا أعلن أننا مصريون كأن في ذلك وصمة ومعرة، مع أني أعدها خير دعاية لمصر. ومَن أجدر بالدعاية الحسنة من طبقة المتعلمين!

أذكر حديثًا جرى بيني وبين بعض النرويجيين المثقفين في أزلو، أبدى الرجل في نهايته شدة دهشته من أن في مصر متعلمين أمثالي، وصارحني بأنه ما كان يعرف إلا أن مصر بلد همجي. وآخر في جوتبرج، من أعمال السويد، بعد أن حدثته طويلًا عن مصر ومفاخرها، سألني قائلًا: «أحقًّا أن في مصر كثيرًا من التماسيح، وأنكم تأكلون لحمها وبيضها؟»

وثمَّ حادثة ثالثة في ستكهلم جرت لي مع ربة النزل الذي حللته؛ إذ فاجأتني يومًا وهي باسمة أن ها هو شيء عن مصر يروقك بالطبع، ويؤنس من وحشتك هنا، وما كان أشد اندهاشي عندما رأيتها تقدم لي جريدة مصورة سويدية تنشر صورة لمنظر صحراوي به بعض الإبل وحُداتها القذرون، وإلى جانبه منظر لامرأتين في أردية الغجر الرثة، إحداهما تضرب على الدف، والأخرى ترقص، ومنظر ثالث لمُصلًّى ريفية بجانب بعض العشش القذرة، ومن حولها صبية عراة، وبها بائس ومشعوذ في أسمال مهلهلة؛ أحدهما: واقف، والآخر ساجد، وقد كُتب تحت الجميع «شيء من مصر»، وثم حادثة رابعة في أيسلنده، عندما كنت أحدث بعض رفاقي الأيسلنديين في رحلتي إلى «جلفس وبركان هكلا». وأذكر شيئًا عن مصر أنه فاجأني أحدهم بقوله: أنا لا أزال أحفظ كلمة مصرية، قلت له: وما هي؟ فقال بعد تلعثم: «بقشيش.»

وفي الحق أن للقوم العذر أن جهلوا كل شيء عن مصر وتطورها؛ لأننا أهملنا الدعاية من جميع نواحيها من ناحية التصوير، وناحية الكتابة، وناحية الكلام، وجانب كبير لا شك واقع على سفاراتنا في الخارج؛ فأنت كلما دخلت سفارة أجنبية زوَّدوك بالمطبوعات المصورة عن بلادهم في ورق صقيل، ولغات متعددة، يقدم كل ذلك بسخاء وبدون مقابل. أما في سفاراتنا فلا تجد شيئًا من ذلك رغم أننا نفاخر بالكرم المصري.

وفي اعتقادي، أن كثيرًا من أمهات المدن في مصر، وبخاصة القاهرة والإسكندرية، لا يعوزها إلا القليل كي تشابه أكبر العواصم الأوروبية، ولعل أكبر نقص عندنا يعزى إلى أجناد البوليس وتهاونهم؛ فأنت ترى رجال البوليس في العواصم الأوروبية الكبرى يُنتقون من بين الضباط المثقفين، ويؤجرون مرتبات تسمو بنفوسهم، وتجعلهم مثال الاحترام،

ويغلب أن يتكلم الواحد منهم لغة أجنبية أو لغتين، وهو في موقفه على رءوس الطرق يمثل عظمة بلاده، وييسر حركة المرور، ويهدي كل من لجأ إليه في غير امتعاض أو ملل، وقد يعاونه في مهمته بوليس آخر يتجول على مقربة منه، ويصلح ما قد يقع فيه المارة من أخطاء.

حدث مرة أني لم أهتد إلى مكان بعض الأندية الرياضية في استكهلم، فلجأت إلى البوليس، ولما لم يعرف العنوان الذي أردته أخرج من جيبه دليلًا، وصادف أن لم يكن هذا النادي قد أدرج به، فلم يتركني، بل تنحَّى عن موقفه لزميله وقادني إلى حانوت به «تليفون»، وبحث لي عن رقم «تليفون» النادي وخاطبه وأصلح منه العنوان، ثم أرشدني إليه وعاد مكانه، وهو طوال تلك المدة باشُّ الوجه، باسم الثغر.

وحدث مرة أخرى أنني سألت البوليس في لندن عن مكان، فوصفه لي، لكني أخطأت السير وانحدرت جهة اليسار بدل اليمين، فلم أشعر إلا ورجل البوليس من ورائي يناديني — أن قد أخطأت السير يا سيدي فخذ طريقك من هنا — بعد أن أوقف حركة المرور، وانطلق يعدو ورائي، فأين هذا من بوليسنا وقد سألته مرة عن شارع في حي الحلمية هو واقف أمامه، فأضلني بإرشاده الخاطئ، ولما هداني بعض المارة رجعت أعاتبه فقال: «هعملك إيه؟» بعد أن عبس في وجهي، ولم يقبل على قولي؟!

فماذا علينا لو وسَّعنا نطاق مدرسة «الكنستبلات» وخرَّجنا فيها الكثير من أبنائنا المهذبين الذين بدأت طلائعهم تبشر بالنجاح، وإن أنس لا أنس تهاون بوليسنا في معاقبة من يلقي بالقمامات وفضلات البيوت إلى جوانب الطرق، حتى في بعض الأحياء الكبيرة في كومات منفرة، فأين هذا من بلاد ألمانيا، وفيها إذا نزع الرجل غلاف قطعة حلوى ليأكلها طواه في جيبه حتى يمر على سلة المهملات؟ أليس في فرض غرامة بسيطة خير مانع لهذا العبث؟

حدث أن دخلت في مناقشة عن مصر مع سيدة مجريَّة تقطن القاهرة قابلتها على الباخرة في عودتنا، وكنت أدفع مفترياتها، وألزمها الحجة في كثير من الأمور، غير أني شعرت بضعف حجتي لما أن تعرضت لموضوع قذارة الطرق وإلقاء القمامات بها، وانتشار أبناء السبيل في شكل تعافه الأعين، ولا أدري هل النقص في هذا راجع إلى نقص في القانون، أو تهاون من البوليس؟ فما أحوجنا إلى تعيين بوليس لمراقبة الآداب والنظافة العامة.

ذلك بعض ما عنَّ لي أصدر به كلمتي علِّي أصيب به نفعًا لمصر التي أرجو لها من الصميم نهوضًا، ولأبنائها العاملين البررة هناءة وخيرًا.

الرحلة الأولى يونيه ١٩٢٦

إيطاليا – فرنسا – سويسرا – إنجلترا

ما وافت الساعة الثالثة من مساء الجمعة حتى نفخت الباخرة «إيطاليا» في الصور إيذانًا بالسفر، وسرعان ما رأيناها تنحى عن الشاطئ في هدوء، وتشق ماء الثغر في خيلاء، حتى إذا ما برحت حواجز الأمواج جدت في المسير وهي تمخر في عباب اليم، وقد خلفت في مؤخرها ذيلًا من الماء الأبيض يمتد إلى أفق السماء تخاله نهرًا من اللبن يعلوه الزبد وسط زرقة البحر الصافية، وكأنه نهر المجرة قد اختط له طريقًا في كبد السماء. وما لبثت الإسكندرية على عظمتها تنضمر أمامنا وتتضاءل حتى إذا ما كانت الرابعة مساء تلاشت عن الأنظار واختبأت تحت الأفق.

عند ذلك تجلت أمامنا عظمة الرحمن — عز وجل — خالق هذا البحر اللانهائي؛ إذ كنا ننظر ذات اليمين وذات الشمال فيرتد البصر خاسئًا لا يرى سوى مسطح من الماء الأزرق قد جعدت أديمه الموجات، وأطبقت عليه قبة السماء في زرقة شاحبة.

وفي ظهر اليوم التالي، بدت كنديا «كريت» في سلسلة من الجبال الشاحبة وكأنها قد أوفدت إلينا سربًا من الطير الأبيض يحمل إلينا تحياتها، وظلت ترفرف من خلفنا مودعة زهاء ثلاث ساعات، حتى إذا ما أعياها الجهد آبت إلى وطنها ونحن نرمقها بنظرات ملؤها الرحمة على ما احتملت في سبيلنا من عناء.

وفي أصيل اليوم التالي، تجلت على بُعد أرض كلابريا — أقصى ولايات إيطاليا في الجنوب الغربي — بدت حائطًا صخريًّا شاهقًا يمتد إلى أفق السماء، وكان كلما قاربناه يسفر عن رُبًى وتلال في سلاسل ومدرجات إلى الجنوب تشق جوانبها ودیانٌ غِيض ماؤها،



عبر البحر الأبيض في طريقنا إلى إيطاليا.

وتحضن في حجورها قرى تطل على البحر في انحدار، وتحف بها الخضرة النضرة، وأشجار الزيتون، وظهر مخروط بركان «أتنا» إلى يسارنا يقذف من جوفه بدخان كالسحاب.

وقد رست الباخرة على كاتانيا — وأنا عائد لمصر — ست ساعات كاملات، استطعت خلالها أن أجوب المدينة في عربة، فبدت قذرة متربة بها كثير من مصانع الكبريت الذي يستمد من أتنا، ولقد اعتليناه فبدَا منفرًا رهيبًا يظل المدينة بأبخرته المصعدة أبدًا. وقد ظلت الباخرة طوال تلك المدة تحمل وسقها من الفاكهة، خصوصًا الكمثرى، كما فعلت ذلك من قبل في نابلي.

وما كاد الليل يرخي سدوله حتى اجتذبت أنظارنا كثرة الثريات والأنوار ذات اليمين وذات الشمال، فكانت تتلألأ وهي متناثرة في مدرجات تفصلها نجاد مظلمة وكأنها البلور قد نثر متقطعًا، وأبدع ما تجلى ذلك عندما ضمنا بوغاز مسينا بين جنبيه، فكانت مدينة ريجيو وقرية سان جوفني تتألق سنى إلى اليمين، ومدينة مسينا إلى اليسار.

ومن أعجب ما استرعى أنظارنا سمك الدلفين الذي أخذ يعترض السفينة في مقدمها، ويسابقها نحو نصف ساعة وهو ينفر في الماء غاضبًا، ويثب بعنف نحو الباخرة كأنه يريد الوقوف في سبيلها حتى لا تزعجه في موطنه، وهو لم يجاوز بعدُ المترين والنصف طولًا، وكان كل طريقنا في البوغاز وما يتبعه شمالًا في جو غائم ما عهدناه من قبل، وقد أمطرتنا السماء رذاذًا، وأنذرت بالوابل، وحجبت عنا ضوء القمر، وبصيص النجوم حتى أمسينا بعد مغادرة البوغاز ونحن في ظلام دامس وليل بهيم.

عصفت الريح الشمالية بشيء من العنف، وزاد بردها، فأخذ الركبان ينسلون فرادى إلى مخادعهم حتى أقفر ظهر الباخرة من الناس، عدا نفر قليل كنا من بينهم، وآلينا على نفوسنا ألا نأوي إلى مضاجعنا حتى نمتع النظر بجمال بركان سترمبلي — زينة البحر التيراني. مكثنا نرقبه على مضض حتى انتصف الليل حين استبان على بُعد، وفي غير وضوح، على عكس ما عهد القوم من قبل.

ولبثنا نتطلع إليه دون أن نظفر من توهجه بطائل حتى خلناه خامد الأنفاس، وما كاد اليأس يتسرب إلى نفوسنا حتى لفظ على غرة حممًا متأججة كأنها أوار الجحيم علت فوق كأسه، ثم تدفقت وهي تموج في هدوء إلى جانب المخروط الأيمن، وكانت كلما هوت أضحت حمراء قاتمة اللون، ثم انتهى أمرها إلى الظلمة والخمود.

قمنا في الغد مبكرين، وكان الجو هادئًا، ونسيم الصباح عليلًا، ومنظر جبال إيطاليا عن يميننا، وصخرة كابري الشاهقة عن يسارنا، وأطل علينا فيزوف من الشمال في عدة مخاريط متجانبة غير متميزة أظهرها اثنان، تعلو أكبرهما كومات من بخار أبيض يتصاعد الهوينا من قمته، وتدفع به الريح إلى سحب السماء، فيمتزج بها ويبلغ عنان الجو. وقد انتثر المخروط من أسفله بالقرى ذات الأبنية الحجرية البيضاء تتخللها منابت الأشجار.

ولما أن وضح جانبه الشمالي تجلى خليج نابلي في قوس تزينه ميناؤه ذات الأرصفة المنسقة، والأبنية الفخمة التي تبدو في مدرجات يعلو بعضها بعضًا، وقد أشرف فيزوف عليها من الجنوب كالحارس الأمين، وأظلها بدخانه، فكان هذا المنظر ساحرًا فذًّا حقق في نظرنا المثل الإنجليزي See Naples and die.

(١) نابلي



بعض المتسولين القذرين في أحياء نابُلي القديمة.

هبطنا المدينة فاسترعى أنظارنا بها علو مبانيها وتشابهها، فهي تكاد تتألف في مجموعها من ستة طوابق، غير أنك قلما تجدها في علو واحد لاختلاف ارتفاع أراضيها الصخرية؛ لذلك كان غالب الطرقات عظيمة المنحدر، كثيرة الليات، وقد رصفت بمربعات من حجر البازلت الأسود قدَّ من صخور فيزوف، وكثيرًا ما يصل الأزقة بعضها ببعض درجات من الصخر بين العشر والخمسين عدًّا.

ومما أدهشنا سير الترام فوق تلك المنحدرات بمهارة عجيبة، وقد زود بفرامل تستوقفه على الفور. أما أهل المدينة فلا يكاد يفرق المرء بينهم وبين المصريين والشرقيين في السحن والعادات، ولولا أزياؤهم ولهجتهم الغربية ما شعرنا بأننا غرباء بينهم، ينادي باعتهم في الطرقات، ويحاولون تحسين سلعهم على الطريقة المألوفة في مصر، ومن بينهم بائعو الكوارع يحملونها على لوحات خشبية لا فرق بينهم وبين بائعي «لحم الرأس»

عندنا، وعلى رءوس الطرقات ترى محال شراب الليمون والبرتقال يعصرونه لك على الفور.

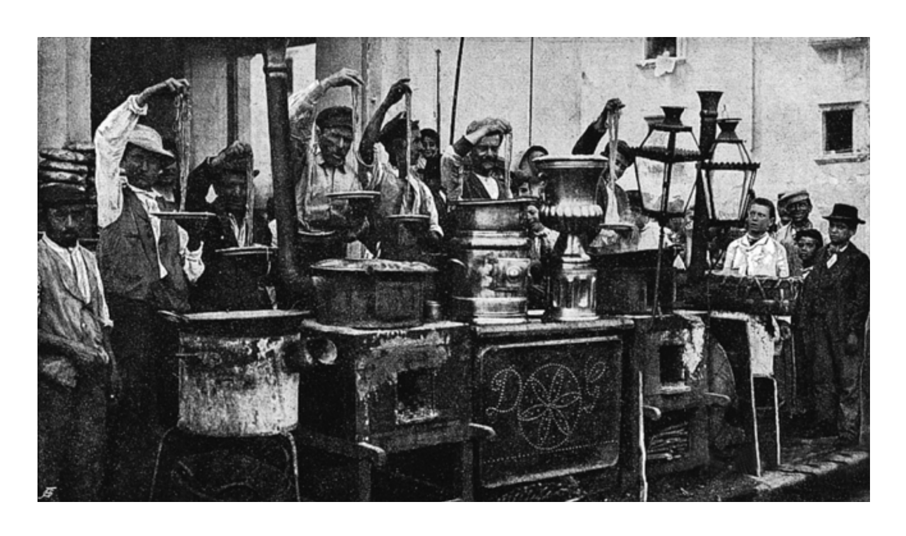
ويظهر أن السكر عزيز لديهم؛ لأنك لا تكاد تحس وجوده في شرابهم. وبالمدينة عدد كبير من المقاهي، وغالب ما يقدم بها الخمور، وبخاصة النبيذ والجعة، على أن بها قهوة منفرة المذاق، وشايًا ليس فيه من طعم الشاي ولا رائحته شيء. والقوم مدمنون على تناول النبيذ بكثرة عجيبة. أدهشني مرة أن رأيت أحد فقراء نابلي يفترش الأرض أمام بابه في بعض الأزقة القذرة، وقد أمسك في يده بإناء به سائل أحمر أخذ يبلل منه قطع الخبز ويلتهمها بشهية، وكنت أخاله عسلًا، ولشدَّ ما كانت دهشتي لما علمت أنه نبيذ، والنبيذ يصنع في كل مكان، وغالب الأهلين يعصرونه في منازلهم لكثرة زراعة الكروم والفاكهة عندهم.

ويضايق السائح هناك تراب فيزوف تثيره الرياح في كل مكان، فتجعل الطرق قذرة منفرة، وبخاصة في الأحياء الفقيرة التي تحكي أزقة بولاق والحسينية عندنا إن لم تفقهما في كثرة أوضارها. وترى في غالب أركان الأزقة تماثيل للمسيح أو العذراء تعلق عليها المشاعل، وتقدم لها القرابين تبرُّكًا، ويركع أمامها المارة على نحو ما يفعل عامة المصريين أمام بعض الأضرحة، وينغص على السائح كثرة الباعة المتجولين وجماهير المتسولين والكناسين الذين يجمعون أعقاب السجاير ويعرضونها للبيع.

والإيطالي نشيط، مجد، رقيق الحاشية، كريم، فلا تكاد ترى مشروعًا يتطلب الجهد الكبير إلا ويكون له يد فيه، والبلاد اليوم ناشطة في إقامة المنشآت الإصلاحية، وإن أعوزها المال على أثر تدهور سعر الليرة الإيطالية بعد الحرب، وأخَّرها كثيرًا انتشار الأمية بنسبة كبيرة؛ فغالب المزارعين — وهم نصف السكان — أُمِّيون، ويغلب أن يشترك المُلَّاك مع المستأجرين مناصفة في الإنتاج، وتلك الطريقة تُحسِّن إنتاجهم كثيرًا مع عدم إجهاد الأراضي.

وقد ألجأهم العوز المالي إلى فرض ضرائب متعددة على الأهلين والزائرين. هذا ومن أعجبها ضريبة dazio على كل ما يدخل القرى والمدن أو يخرج منها، فهي تشبه «الدخولية» التي كانت تجبي في مصر قديمًا، إلى ذلك ضريبة «البولو» التي كنا ندفعها في الأنزال والملاعب والمقاهي وما إليها.

والقوم مغالون في وطنيتهم يشيدون بذكر إيطاليا في كل أحاديثهم، ويترنمون بعظمتها القديمة، وكنا أينما انتقلنا في الريف حيَّانا الجمع، حتى الأطفال، التحية



بعض فقراء إيطاليا في أسمالهم البالية يروجون لغذائهم القومي المكرونة على قارعة الطريق.

الفاشيستية بمد الذراع مع المناداة بحياة إيطاليا وموسوليني، وهم شجعان، ولا يزال كثير منهم ميالين إلى المبارزة والضرب بالخناجر. أما نساؤهم فنصف متحجبات، خصوصًا في الريف، ولا يكثرن من الخروج بعيدًا عن دورهن؛ فهن أشبه بالشرقيات، وسلطة الأزواج عليهن ملموسة. ويشتغلن مع الرجال في الحقول، ويحملن على رءوسهن أثقالًا مرهقة ويَسِرن بها بعيدًا، ويزيد ذلك وضوحًا في جنوب إيطاليا.

والطعام القومي المحبوب «المكرونة»؛ تلك التي يجيدونها صنعًا وطهيًا، وفي البلاد كثير من مصانعها، ويكاد يعيش الفقراء هناك عليها هي وقليل من الطماطم «الصلصة»؛ لذلك فإنك ترى بائعيها في الطرق يطبخونها في أوانٍ كبيرة، ويمسكون بلفائفها البالغة في الطول وهم يصيحون لاجتذاب المارة، الذين يقبلون على التهامها كاملة في غير تقطيع وهم يلعقون في الإناء بشكل مُنفّر. وكنا نلاحظ أن هذه طريقتهم في أكلها حتى في المطاعم الكبرى.

حدث مرة أن كنت أقطع لفائف المكرونة بسكين في أحد المطاعم، وكان من حولي كثير من الإيطاليين يلعقونها كاملة بشكل استرعى نظري وأثار سخريتي منهم، لكني عجبت مذ رأيتهم يتهامسون وهم يسخرون مني في الوقت نفسه؛ لأني لا أعرف كيف ألتهم المكرونة لعقًا!

والقوم يستخدمون شحم الخنزير في الطبخ عوضًا عن المسلى، ولقد جزعت نفسي لما علمت ذلك جزعًا شديدًا، وطلبت أن يشوى اللحم لي خصيصًا أو يُحمَّر في الزبد، على أني كشفت بعدُ أن اللحم والدجاج كليهما مما تعافه النفس؛ لأن الحيوان لا يذبح، بل يخنق ويبقى الدم جامدًا فيه. ويا ليته ابن يومه! فلقد يمضي على موته أيام. كل ذلك كان من أكبر المنغصات، على أني كنت أجد في المكرونة الشهية والفاكهة الحلوة والجبن المنوع خير عوض.

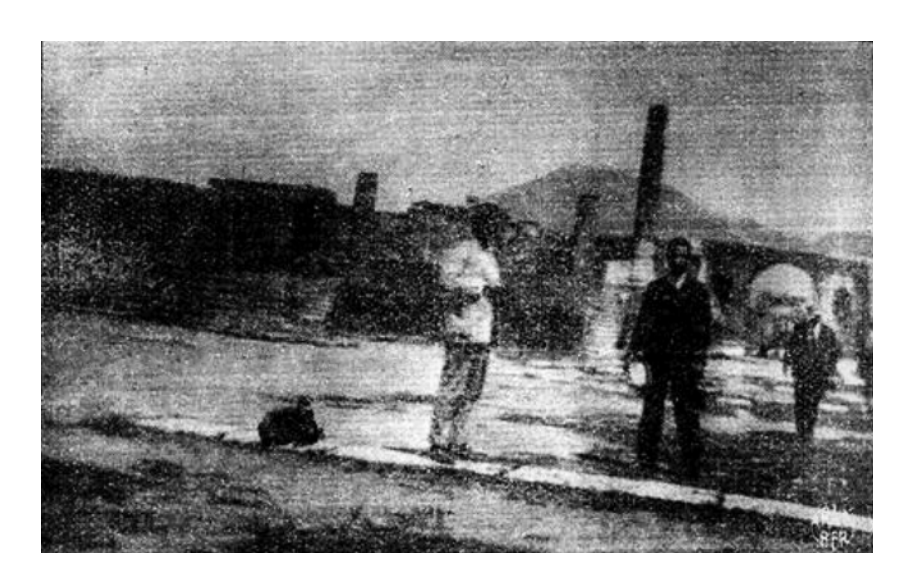
(١-١) سان مرتينو

ضاحية من نابُلي شاهقة العلو يقطنها طبقة الأرستقراط، بيوتها فخمة تحف بها الحدائق الغناء، ولكي نصل إليها أخذنا ترامًا معلقًا. وهو يسير على ثلاثة قضبان، الأوسط منها مُسنن. وفي أعلى قطعة من تلك القرية الجميلة جلسنا في نزل يشرف على خليج نابلي، ويواجهه فيزوف. وتكسو الخضرة السفوح إلى البحر، تتوسطها الأبنية المتناثرة، تزينها الأشجار ذات قطوف الفاكهة الدانية، حتى قيل: إن المنظر من هناك أبدع ما تتجلى فيه نابُلي على الإطلاق.

(١-٢) بمبياي

ولعلها أجدر الأماكن الأثرية هناك. أعادت إلى مخيلتنا شيئًا من العظمة الرومانية القديمة؛ لأننا رأيناها عظيمة في امتدادها ومبانيها وطرقاتها، واسترعى نظرنا ضيق الطرق وعمقها عن الإطارين الجانبيين، وعند رءوس الطرق ترى معبرًا من صخور كبيرة يتخطاها من أراد عبور الطريق، وكلها مرصوفة بحجر البازلت. وهذا يشعر بأن المطر كان أكثر يومئذ منه الآن.

أما المباني، فبعضها بالبازلت والبعض بالآجر الأحمر، وعلى ناصية الطرق ترى حوض الماء من الصخر تعلوه عين مائية تخرج من فم سبع، وفي كل بيت بهو فسيح



وسط أطلال بمبياي ومن خلفنا فيزوف الذي غدر بالمدينة قديمًا فطمرها.

تحوطه الأعمدة، ويتوسطه حوض الماء، وتقام الحجرات على الجوانب، وقد ترصف الأرض بالفسيفساء، وتنقش الجدران بالرسوم الخرافية، وفي كل بيت مقصورة للصلاة يرسم بها أحد الآلهة، وأجمل الأبنية جميعًا «الفورم» أو المجمع العام، وعنده دار القضاء، ثم الإنفتياتر.

كل ذلك يشعر بأن المدينة كانت مسكنًا لقوم مترفين ثار من شمالها الشرقي فيزوف سنة ٧٩ ميلادية، فأصلاها — على غرة منها — نارًا بترابه الساخن، أحرق البلدة بمن فيها حرقًا غير كامل؛ لذلك ظلت البيوت حافظة لجدرانها، وبعض نقوشها وأثاثها بتشويه بسيط. وفي المتحف الذي أعد في مدخلها جثث بعض من دهمهم الرماد تبدو مجبسة، ويكاد يرتسم عليها ما لاقوه ساعة الاختناق من آلام، كذلك تعرض بعض الأقمشة والغلال والخبز وما إليها من مخلفاتهم.



بعض من اختنقوا في بمبياي وقد فاجأهم فيزوف بثورانه.

(١-٣) سرنتو

غادرنا بمبياي سائرين في طريق زراعي به بيوت قروية متناثرة وسط المزارع لمسافة مترامية، وقلما كنا نعثر على مجموعة من بيوت في مكان واحد، ويظهر أن نظام القرى المصرية متقاربة المنازل غير متوافر هناك؛ لأن كل فلاح إيطالي يمتلك قطعة أرض يخدمها هو وزوجه وأولاده، ويقيمون مسكنهم وسطها، وهناك تشابه كبير بين فلاحهم وفلاحنا في بعض أدوات الري، وفي السير حفاة الأقدام، وفي أكل خبز القفار، وغالبهم مثلنا كرام الطباع يسرون بالغريب.

أخيرًا وصلنا سرنتو ذات المزارع الجبلية الخلابة، فأينما وليت ببصرك رأيت الأشجار والأعشاب تكاد تغطي كل مكان حتى أفاريز البيوت نفسها؛ ذلك لشدة خصب التربة التي تنقلها الرياح من أتربة فيزوف، وهناك أكلنا المكرونة الشهية بعد أن شاهدنا مصانعها،

ورأيناها تنشر في الشمس على عصي طويلة، ثم شبعنا من فاكهتها اللذيذة، والضاحية ممتازة بنبيذها الأحمر المشهور باسمها. وكان فيزوف في كل هذه المدة على مقربة منا بدخانه الأبيض، ومخروطه الشاهق يُكسى بالخضرة إلى ثلثي ارتفاعه. ويمكن الصعود إليه في ترام إلى ما قبيل القمة بقليل، وهناك نرتدي أحذية خشبية ونسير فوق أرض مرتجفة إلى فوهته، ويقودنا دليل إلى أسفلها وسط الغازات والأبخرة المصعدة التي تجعل المرء يتصبب عرقًا. وفي بعض الأيام لا يسمح بنزولها، وذلك إذا كان البركان غاضبًا وأبخرته كثيفة؛ مخافة الاختناق.

(١-٤) سلفاتارا

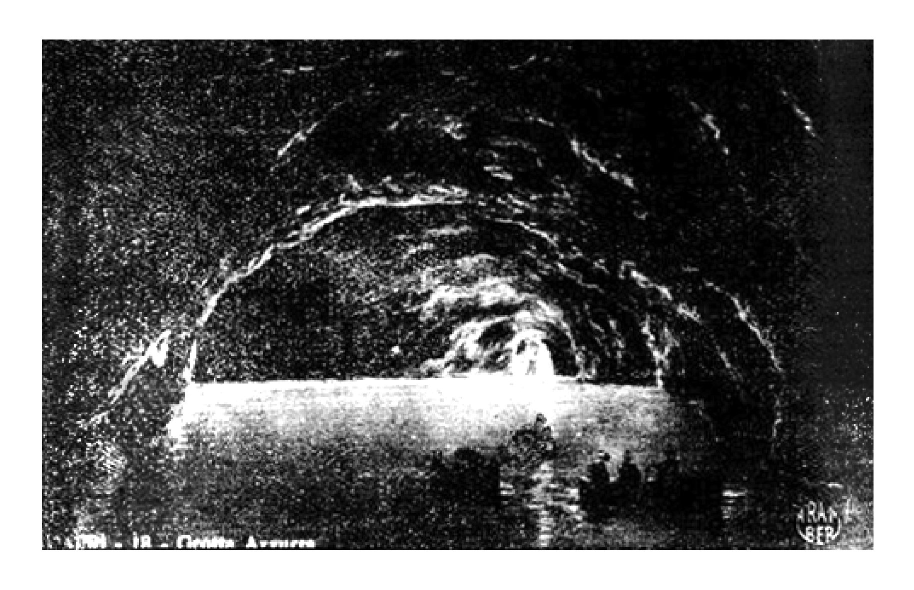
قصدنا الجانب الشمالي من نابُلي في طريق صخري كثير الليات الثعبانية، مناظره جبلية ذات أشجار باسقة، وزهور عبقة تبهر بألوانها الأنظار، حتى وصلنا إلى بركان سلفاتارا، وهو فوهة هابطة لبركان سعتها نحو كيلو مترين ونصف. ثار سنة ١١٩٨ وطمر بعض القرى المجاورة، ثم خمد وظل كذلك حتى بدأت تتجدد حركته منذ سنين. به عدة فتحات تتصل بجوف الأرض، بعضها يقذف ببخار أبيض، والبعض بأوحال حارة، والبعض برمل أبيض تحركه الأبخرة من تحته، فيبدو كالمنصهرات المضطربة.

ويقال: إن له صلة بفيزوف؛ لأنه يهدأ كلما نشط فيزوف، والعكس بالعكس، وتُكسى أرضه بالفوسفور والزرنيخ والنشادر وقليل من البازلت، وإذا ضربت الأرض بحجر سمعت رنينًا يشعر بأن باطنه خاوٍ. ومن غريب أمره أنك إذا أشعلت نارًا زاد تصاعد البخار من كل مكان حولك بكثرة عجيبة تكاد تخفي عنك من تراه من حولك، ولا يُعلَم سر ذلك إلى الآن، ويأخذ القوم منه مسحوقًا كالجص لصنع التماثيل، ويطلق على البركان اسم فيزوف الصغير.

قصدنا إلى حمام نيرون في شمال سلفتارا، وهو نفق في الجبل طوله زهاء نصف كيلومتر كثير التعرج، دخلناه من فتحة فكنا نشعر بزيادة الحرارة والأبخرة، تعبقه رائحة الكبريت، حتى إذا ما قاربنا نهايته كنا نتصبب عرقًا. قيل: إن نيرون كان يزور الجهة ويستشفي بمائها، وله سرير من الصخر كالمسطبة، وصخرة يقال: إنه سجن فيها أمه حتى ماتت، وله هناك برج من الآجر الأحمر، وقلعة من الصخر تشرف على البحر.

(١-٥) كابري

عبرنا خليج نابلي في باخرة من الشمال إلى أقصى الجنوب في ساعتين ونصف، وهناك وصلنا صخرة كابري، وارتفاعها ٥٦٥ مترًا، وهي مقعرة الوسط يبدو صخرها مشرفًا على الماء في استقامة مخيفة، تكسوها الخضرة، وتتوسطها الفلات، يؤمها المرضى للاستشفاء. والضاحية كثيرة المقاهي والأنزال، ذات طرقات جبلية متلوية، وغالب صخرها جيري تتخللها كتل بركانية كثيرة، وتسقى بماء المطر الذي يدخره القوم في صهاريج، وإذا نفد الماء من صهريج سار السكان بعيدًا ليقترضوه من جيرانهم.



داخل كهف جرتاتزورا بنابلي.

وفي أقصى الغرب مغارة يسمونها جرتاتزورا؛ أي الكهف الأزرق، دخلناها من فتحة ضيقة لا تكاد تسمح لأكثر من زورق نحيل أن يخترقها؛ لذلك استلقينا في الزوارق على ظهورنا، وما كدنا نجتاز المدخل حتى بدت من الداخل فسيحة شاهقة. ولما كان غالب صخرها مشرفًا على البحر في قبو تسرب الضوء إليها من تحت الماء أسفل حافتها الصخرية، فأكسب الماء لونًا أزرق صافيًا، وضوء من أسفله، بحيث إذا غمست يدك في الماء

بدت بيضاء منيرة كأنها شعلة من كهرباء، وكانت تبدو حافة الزورق الملامسة لسطح الماء وكأنها إطار من لجين.

(٢) روما

برحنا نابلي الساعة التاسعة صباحًا صوب روما التي وصلناها في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر، وكانت المناظر كلها جبلية بديعة إلا قليلًا من الوهاد تُكسى بالمزارع كالكتان والذرة والسمسم، وكانت المدرجات تُكسى بالكروم، والجبال بالأعشاب، والطريق كثير الليات والأنفاق، ولم يسترع نظرنا بادئ الأمر شيء غريب في روما سوى أبنيتها الضخمة، وتماثيلها العديدة التي تتوسط كل الميادين في إسراف كبير، والفوارات التي يردها الماء من الينابيع الطبيعية كأنه مثلج كامل العذوبة، وقد تفنن القوم في تصميمها، وتنسيق عيونها، وتدفق مائها بما يثير الدهشة والإعجاب.

(٢-١) كنيسة سان بيترو

زرنا كنيسة سان بيترو أكبر كنائس الدنيا، فكانت — والحق يقال — آية في الفن، ومثلًا للعظمة، أمامها ميدان رحب تتوسطه مسلة مصرية قديمة علوها ٢٥ مترًا، وضع في قمتها صليب — وفي روما عدد كبير من مسلاتنا — وعلى جانبيها فوارتان، ويحيط بالميدان من جانبيه بهوان من الأعمدة في أربعة صفوف متوازية، كل صف يُكوِّن قوسًا تؤدي خطوط النظر بين عمدها إلى بؤرة واحدة، إذا وقفت فيها بدت صفوف الأعمدة وكأنها صف واحد، ويعلو كل تلك الأعمدة تماثيل للقديسين.

أما داخل الكنيسة، فليس في مقدورنا أن نصف ما حوى من معجزات الفن، فمن تماثيل ينقصها النطق والحركة إلى صور زيتية وفسيفسائية تبهر العين، إلى مظاهر دينية رهيبة. وأعجب ما هنالك القبة ذات العلو الشاهق صعدنا في قبوها الأسفل ٤١٦ سلمًا، ومع ذلك لم نأتِ على آخرها، وفي قمتها كرة مفرغة تسع نحو العشرين نفسًا، مع أنها تبدو من الميدان وكأنها كرة القدم.

كل ذلك من هندسة ميخائيل أنجلو، وتبطنها من الداخل نقوش من الذهب والمزيكو يقف المرء أمامها في ذهول. أمر بإقامة الكنيسة قسطنطين على المكان الذي كان يسمى ملهى نيرون، والذي قيل: إن القديس بطرس قتل فيه. وفي عيد الميلاد من سنة ٨٠٠،



سان بيترو أكبر كنائس الدنيا وتزين ميدانها مسلة مصرية.

توج البابا ليو الثالث الإمبراطور شارلمان هناك. وزاد القوم فيها كثيرًا، وآخر جزء زيد بها قبة ميخائيل أنجلو، ويقال: إن الكنيسة تكلفت عشرة ملايين من الجنيهات، وينفق على إصلاحها سنويًّا ٧٥٠٠ جنيه، وإلى يمين المدخل تمثال لقسطنطين، وإلى اليسار آخر لشارلمان، وهناك تمثال نحاسي للقديس بطرس اعتاد الزوار تقبيل أقدامه أو لمسها، حتى كادت تنمحي تجاعيد الأقدام من كثرة اللمس. وفي الحفلات الكبرى تضم الكنيسة من حجاج الكاثوليك ثمانين ألفًا يباركهم البابا برفع يده.

قصدنا إلى زيارة كنيسة سان بيترو الصغير لنرى تمثال موسى ذائع الصيت، وهو من نفائس الحفر لميخائيل أنجلو، ذاك العبقري الذي كانت له طريقته الخاصة في الحفر مذ كان يتصور أن الشخص الذي يريد تمثيله موجود داخل الصخر، وكأنه يريد أن يزيل ما يعلوه كي يظهر مجسمًا. ولقد أعجب هو نفسه بتمثال موسى حتى إنه لما أتمه خاطبه في نغمة الغاضب قائلًا: «لم لا تنطق.» كانت بينه وبين رفايلو منافسة حادة، فحدث أن أحد البابوات أراد نقش قبة «كابلا سيستيني» في الفاتكان، فسأل الخبراء فيمن أقدر على



مدخل مكتبة الفاتكان ونقوشها الساحرة.

إنجازها، فخبَّروه عن ميخائيل أنجلو. وكانوا بذلك يرومون توريطه فيها، حتى إذا ما بدا عجزه الفني سقط في نظر العالم.

ولما كلف بها استحضر كبار الرسامين الأجانب فلم يعجبه رسمهم فأغفلهم، وأغلق على نفسه القبة زهاء أربع سنوات متواليات أنجزها في خلالها، وكان يعمل صباح مساء حتى إن عضلات رقبته تصلَّبت، وأصبح غير قادر على النظر إلى الأرض، فبُكت منافسوه لما رأوا إبداع آياته، من بينهم رفايلو الذي سعى عبثًا أن يقوم بنصيب في رسم تلك القبة كي يستعيد مكانته بين رجال الفن. وكان ميخائيل أنجلو مبدعًا في الحفر والتصوير والهندسة كما شهد بذلك تمثال موسى، وتصوير كابلا سيستيني، وقبة سان بيترو، ومات مسنًّا. أما رفايلو فمات شابًّا، وكان أرستقراطيًّا في معيشته وفنه على عكس ميخائيل الذي كان عنيدًا حديدي الإرادة.

(٢-٢) قصر الفاتكان

مملكة البابا المستقلة عن حكومة الدولة، فله حرسه في أردية حمراء رهيبة، وقد انتخبهم من جنود سويسرا الأمناء — وكانوا قبل الحرب من النمسا — وهو الحاكم بأمره داخل قصره كثير الرحبات والحدائق، فخم البناء، فهو أكبر قصور الدنيا. به عشرون ردهة، وأحد عشر ألف حجرة، بدئ صغيرًا وزاده البابوات تدريجًا. وقيل: إن شارلمان سكنه مرة ولم يصبح مسكن البابوات إلا بعد عودتهم من إفنيون، وقد رأينا معارض القصر، وفيها الهدايا النفيسة التي قُدِّمت للبابوات في العصور المختلفة من ملوك العالم قاطبة، ومن بينها جرة «فاز» من الرخام الأحمر المُجزَّع عظيمة الحجم قدَّمها محمد علي باشا الكبير.

أما النقوش والزخارف التي بالجدران، فمن بدائع الفن لكبار المصورين، نخص منهم رفايلو وميخائيل أنجلو، ذاك الذي صور «كابلا سيستيني»، والصور التي إلى يمينها تمثل حياة المسيح، والتي إلى يسارها تمثل حياة موسى عليهما السلام، وأعجبها سقف القبة التي يدهش المرء من مقدرة المصور ودقته في مراعاة قواعد المنظور في ثنايا البناء، وكذلك من خياله الرائع الساحر. ولعل أجمل أبهائها المكتبة الفاخرة. وتحتوي فوق نقوشها القيمة مجموعة نفيسة من المطبوعات التي تزيد على ربع المليون، ونحو ٣٤ ألفًا من المخطوطات.

ويتصل بالقصر طريق سري طويل إلى قلعة قديمة اسمها «كاستيل سانت أنجلو»، تشرف على نهر التيبر، وكان يحتمي فيها البابا إذا ما تعرَّض لخطر. وتلك القلعة بها مسكن للبابا، وغرف للجند، وسجون غائرة في الصخر، ومخازن للزيت كان يُغلى بها ليُصبَّ على الأعداء. ولقد بناها الإمبراطور هادريان الروماني لتكون قبرًا له، لكنها حُوِّلت فيما بعدُ إلى حصن منيع.

(٢-٣) الكلوسيو

وهو أكبر ملهى في العالم «تياترو مدرج» يسع ٨٦ ألفًا، ولعله أعظم الآثار الرومانية الباقية. أقيم على شكل أهليلجي داخله مدرج في أربعة طوابق: الأول للقياصرة، والثاني للأشراف، وفي وسطه رحبة فسيحة كانت تقام فيها الألعاب، ومن بينها محاربة الضواري التي كان يقتل منها أربعة آلاف كل عام، وكانت تقام الملاهي فيه لمدة مائة يوم، والصراع بها على أنواع: فتارة كانت تطلق الوحوش يفترس بعضها البعض، وطورًا كانت تطلق

السباع على فئة من المجرمين المعاقبين لتفتك بهم، وتارة يصارع الأبطال بعض الوحوش، أو بعض إخوانهم من بني الإنسان ويرديه قتيلًا. كل ذلك وسط تهليل القوم وابتهاجهم. هذا ضرب من ملاهي الرومان التي تدل على مبلغ وحشيتهم وقسوة قلوبهم، وطالما سفكت السباع من دماء شهداء المسيحية في تلك الدار.



ملهى «الكلوسيو» بروما، وقد أطلق السباع ليفتكوا بالمجرمين من بني الإنسان.

ولعل أجل الآثار الحديثة أثر فكتور عمانويل، ولا يزال العمل سائرًا فيه على ساق وقدم، وهو حقًّا مثل للعظمة والدقة في هندسة البناء بمدرجاته وعمده ونافوراته، يتوسطه تمثال نحاسي مطلي بالذهب لفكتور عمانويل وهو يعتلي جوادًا. وقد أقيمت في بطن الحصان حفلة جلس فيها ثمانية وعشرون شخصًا، فكأن الإيطاليين يريدون أن يثبتوا للعالم أن عظمة فن العمارة ونحت التماثيل لا تزال — ولن تزال — تكسبهم قصب السبق كما كان قديمًا، وإن كان الكثير يعدون ذلك نوعًا من النعرة الجوفاء يقصد بها مجرد الدعاية الكاذبة؛ لكثرة ما تكلفه من نفقات، خصوصًا في هذا العصر الذي تظهر فيه إيطاليا بعجزها المالي.

(٢-٤) ضواحي روما

أوستيا

وهي مصيف على البحر يبعد عنها بنصف ساعة، أسسه موسوليني حديثًا، فأضحى متنزهًا جميلًا، ومستحمًّا عامًّا، وهو إلى جانب مدينة أوستيا الثغر الروماني القديم. ولقد أمضينا بها سحابة يوم ممتع، وبينا كنا نمرح على شاطئ البحر إذ سقطت حقيبة النقود من جيب أحد أصدقائنا المصريين، وكان بها نحو «١٢٠٠ ليرة»، وبعد أن كدنا نيأس من وجودها خطر لنا أن نسأل بعض الحراس عند مدخل الحمام. وما كان أشد إعجابنا بأمانة هؤلاء الناس حين وجدناها عنده! وقد عثر عليها حوذي فقير فلم تُسوِّل له نفسه أن يأخذها، ودفعته أمانته إلى تسليمها. فضيلة جميلة هي أجدر بنا معشر المصريين.

فرسكاتي

وهي ضاحية إلى جنوب روما طريقها جبلي، تُكسى جوانبها بالكروم في أغصان صغيرة تقام على أحطاب مثلثة، وثمرها وافر للغاية؛ ولذلك شهرت الجهة بالنبيذ المسمى باسمها، وبالمدينة عدة «فلات» فخمة وسط حدائق غناء تثبت أنها كانت مسكن الطبقات الراقية قديمًا، وأجمل الفلات ألنديني، وبها نافورة في خمسة مدرجات علو الواحد خمسة عشر مترًا، والرابع منها يعلوه عمودان تدور المياه حولها في شكل حلزوني إلى أسفلها، ثم تهوي في مجموعة من الشلالات، وكانت مساكن لبعض البابوات قديمًا.

تفولي

وتبعد عن روما بساعة ونصف بطريق متعرج يخترق أنفاقًا عدة، وتكسو رباها الخضرة والكروم، وبها مجموعة من «فلات» ذات تنسيق غريب، أشهرها «فلادست» على اسم أحد الكاردنالات، عاش منذ أربعمائة سنة، وفيها من النافورات ما فاق كل شيء جمالًا وفنًّا، ومنها ينبوع في ثلاثة صفوف بكل صف مائة نافورة.

وفي تفولي مجموعة من الشلالات الطبيعية الشاهقة ينزل منها ماء نهر «أينو» فرع التيبر في شعاب عدة، وقد يبلغ علو أكبرها مائة وعشرين مترًا، نزلنا إلى أسفلها من طرق مختنقة كثرت لياتها، وللماء فيها دوي مخيف، وهو يخرج من بين الصخر مختنقًا، وفي

سرعة مدهشة، ويستخدم غالبها في إدارة الأرحاء لتوليد الكهرباء، ومنها تنار مدينة روما كلها.

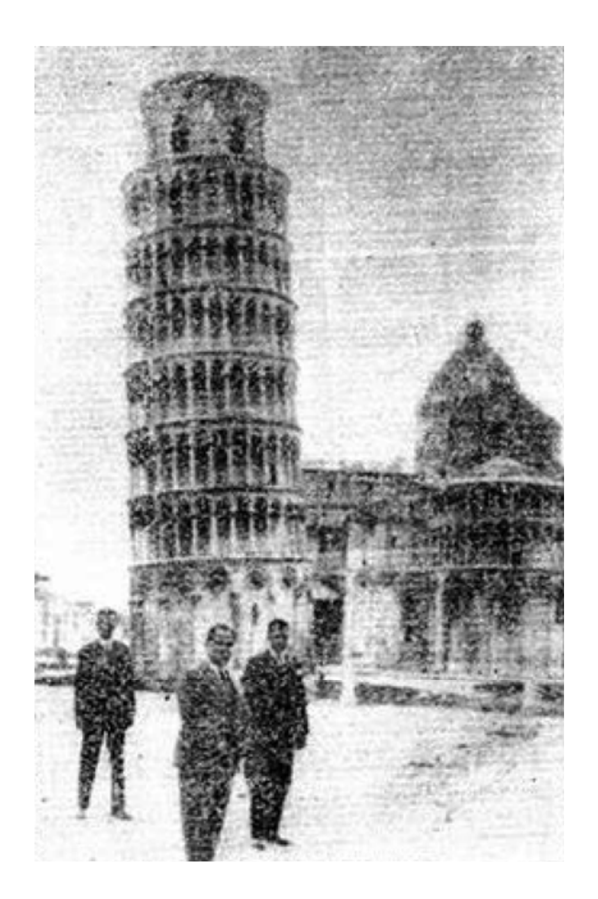
ولعل تفولي أجمل ضواحي روما التي تتجلى فيها الطبيعة برونقها الجذاب، وروعتها الساحرة، وقد كانت فيما مضى مصيفًا للقياصرة ولطبقة الأرستقراطيين.



ضاحية تفولي بروما بشلالاتها العديدة.

(٣) بيزا

غادرنا روما في ١٢ يوليه إلى بيزا، فوصلناها في ست ساعات، وهي بلدة صغيرة لا بأس بنظافتها. وأجمل ما يُزار بها كنيسة الدوومو، وهندستها قوطية بديعة النقش من داخلها، وبجانبها قبة التعميد، وأقيمت منعزلة عنها، وفي هندسة غريبة من شأنها أن تكبر موجات الصوت فيرن صداه بشكل مزعج، حتى إنك لو غنيت بصوت خافت دوى واستمر رنينه في كل مكان نحو ست عشرة ثانية، وتسمع تصفيق اليد وكأنه الرعد يقصف بهزيم مخيف.



أمام برج «بيزا» المائل أحد عجائب الدنيا.

وقد بنيت من داخلها في شكل الناقوس، وكان كاروزو الملحن الإيطالي المشهور يصور أنغامه فيها، ذاك العبقري الذي خلف لبنيه ثروة تقدر بثلاثة ملايين من الجنيهات، وقد زار مصر سنة ١٩٠٦ ورغب في سماع أجمل المغنين عندنا، فغناه المرحوم الشيخ سلامة حجازي، فطرب له كاروزو ودهش لما علم أنه لا يربح أكثر من خمسين جنيهًا في الشهر، وقال له: «تعال معي أعلمك الأنغام الإفرنجية وأنا كفيل لصوتك الرخيم بمائة جنيه في اليوم.» أما هو فكان يربح في يومه ثلاثمائة جنيه في أيامه الأخيرة.

وأعجب ما في الكنيسة برجها المائل الذي يعد من الأعاجيب؛ لأنه يعلو في الجو زهاء ٥٥ مترًا، وهو مائل بنحو أربعة أمتار وثلث عن المسقط الرأسي، وبه سبعة طوابق شاهقة من رخام أبيض، مجموع درجاتها ٢٦٥، ارتقيناها فرأينا في أعلاه سبعة أجراس مدرجة الكبر، وزن أكبرها ٣٧ قنطارًا، وهي في مجموعها تمثل الأنغام الموسيقية السبع. بُني البرج سنة ١١٧٥، وإنك لتحسُّ بشيء من الخوف وأنت تراه يميل رغم ضخامته، ويخيل إليك أنه لن يستقر مكانه، ولا تكاد تسيغ لك نفسك أن تعتليه خوفًا وحذرًا.

قيل: إن تصميمه وضع مائلًا هكذا منذ البداءة، على أن الراجح أن ميله نتيجة لهبوط في الأرض الضعيفة كثيرة الزلازل هناك، وكان «جالليو» الفلكي يحاول إثبات قوانين الجاذبية بإلقاء الأثقال من ذروته.

(٤) جنوا

قمنا إلى جنوا وكان الطريق جبليًّا، وأخذت تزداد طيات القشرة الأرضية وتتعقد شيئًا فشيئًا حتى كان القطار يسير على حافة البحر والجبل يقاربه من الشرق، وجل الجبال تُكسى بالخضرة وشجر الزيتون والكروم؛ ولذلك لا تعجب إذا كان أجود زيوت العالم يعصر هنا، خصوصًا في مدينة لوكا، ثم بدأ لون الجبل يتغير على بُعد، فخلناه مغطًّى بالجليد، ولكنه اتضح أنها منطقة غنية بالرخام الناصع، فكنا نرى كتل الرخام الملون تغطي أرصفة المحطات إلى مسافات بعيدة، وبخاصة في بلدة كرارا، التي أصبحت شهرتها في الرخام والمرمر عالمية؛ بها وحدها نحو سبعمائة محجر، ويبلغ ما تصدره من الرخام سنويًّا مليونًا من الأطنان، وكفاها فخرًا أن رخام كنائس الدنيا الكبيرة مستمد من محاجرها.

وبعدها كان طريقنا مجموعة أنفاق تزيد على الثلاثين عدًّا، وقد استخدمت هنا القاطرات الكهربائية التي كانت تسير بسرعة البرق «نحو ١٥٠ كيلو مترًا» حتى كانت تبدو فتحات بعض الأنفاق المطلة على البحر كوميض برق يكاد يخطف البصر. وغالب القاطرات في شمال إيطاليا تسير بالكهرباء بفضل كثرة القوى المائية؛ ولذلك تركزت غالب الصناعات في الشمال، نذكر من بينها مصانع الأصواف والسيارات «فيات» في تورين، ومصانع الحرير في ميلان.

وقد زرت تورين في عودتي من الرحلة بعد أن اجتزنا الحدود الفرنسية في مودان، ثم جزنا مجموعة أنفاق «مونت سني» التي لبث القطار يسير في أطولها فوق عشرين

دقيقة بسرعة الكهرباء، ثم دخلنا تورين التي بدت صناعية قديمة تعوزها النظافة في المباني والطرق، وبعدها وصلنا جنوا، وهي أكبر مواني إيطاليا التجارية، عظيمة الاتساع، شاهقة الأبنية، صخرية السواحل، قريبة الشبه بنابلي في أنها تقام على رُبًى عالية؛ لذلك كانت طرقها منحدرات وعرة.

وأعجب ما فيها مبانيها، فهي تتألف في الغالب من سبعة أدوار، ولكثرة المرتفعات يغلب أن يكون لكل دور باب على طريق عامة، ولكل دور حديقة معلقة. والمدينة أنظف من نابلي كثيرًا، وتشتهر بمقابرها التي يقال إنها أجمل مقابر الدنيا، فهي في غاية التنسيق تقام كلها من الرخام الأبيض تزينها التماثيل في ردهات بديعة. وفي العراء وسط المزارع تجد مقابر الفقراء، وعليها شواهدها تصطف في نظام دقيق. وفي حي قديم قذر من المدينة بيت صغير لخرستوف كولمب — كاشف أمريكا — نقش عليه اسمه، وحفظ تذكارًا له، وأمامه نُزل كولمب الذي تناولنا فيه طعام الغداء. والمدينة تفاخر بأنها أنجبت ذاك المستكشف العظيم، وتقيم له تمثالًا في أكبر ميادينها.



كازينو مونت كارلو عاصمة الميسر.

(٥) الرفييرا

غادرنا جنوا الساعة السابعة صباحًا قاصدين فرنسا عن طريق الرفييرا، وهو ساحل جبلي جميل بجانب القطار، هناك البحر ومن ورائه الرُّبى تكسوها الخضرة النضرة، وتتناثر على جوانبها المباني، وأكبر المدن الإيطالية عليه سان ريمو. وهي مزار صحي منسق يغص بالحدائق، وتزينه بساتين النخيل الباسقة في كل مكان.

وعند مدينة الحدود «فنت ميليا» انتقلنا إلى القطار الفرنسي الذي أقلنا إلى مونت كارلو، فوصلناها الثامنة مساء، وإذا بها بدت جنة حقة يضمها خليج صغير غَصَّتْ منحدراته بالأبنية الفخمة، من خلفها جبل شاهق، تلفت النظر بها نظافتها التامة، وسكونها الجميل، فهي مدينة يبدو عليها علائم الأرستقراطية في مبانيها وشعبها ونزلائها، ويحق لها أن تسمى عروس المتنزهات، وهي ضاحية لمناكو، تلك الإمارة المستقلة عن فرنسا، ولها حدودها وأنظمتها الخاصة.

وبالمدينة عدد لا يحصى من الأنزال الكبيرة يَؤُمُّهَا سراة العالم طلبًا للنزهة الهادئة، ويغلب أن يصحب ذلك لعب الميسر، فهي عاصمة الدنيا في هذا المضمار. وقد زرنا كازينو مونت كارلو ذائع الصيت الذي لا يؤمه إلا غني مفرط، وذو جاه كبير، يجلس على مناضد الميسر ويقامر بآلاف الجنيهات. وتلك المناضد عظيمة الامتداد، ترى القوم منكبين عليها تعلو وجوههم علامات القلق في شبه ذهول، ومن ورائهم خزائن الصيارفة على أهبة تقديم النقود للمقامرين تسهيلًا لهم وإغراء.

ولمديري الملعب نسبة كبيرة من المال المتداول، وتتقاضى الحكومة من هذهِ إتاوةً تعد أكبر مواردها، وعجيب ألا يسمح لأبناء البلاد باللعب؛ لذلك لم يسمح لنا بالدخول إلا بعد الاطلاع على جوازات السفر ليتأكدوا أننا من الأجانب، والمكان من الفخامة بحيث يعجز القلم عن وصفه، فمن ردهات وأبهاء زينت بالثريات والنقوش والفرش إلى مدرجات وحدائق تتدلى إلى البحر، وتتوسطها جواسق الموسيقى، ويجوب ما بين أطرافها الحسان الغيد والولدان المتأنِّقون، يتهادى كلٌّ في مشيته في تكلف شديد، ويرفل في مترف ملابسه، وقد أشجت نفوسهم أنغام الموسيقى وهم منصتون لها وكأنما على رءوسهم الطير.

فالحالة الاجتماعية في مونت كارلو تثير الدهشة من عدة وجوه، فالنساء قد أخذن من الحرية بنصيب كبير ربما كان خارجًا عن حد اللياقة، ولطول سهر القوم لا يبدأ العمل في الصباح إلا بين الساعة التاسعة والعاشرة، فلا تفتح المتاجر ولا يسير الترام، ولا تكاد ترى مارة قط قبل هذه الساعة. قصدنا من ضواحيها مانتون، فلم نر فيها من أبهة

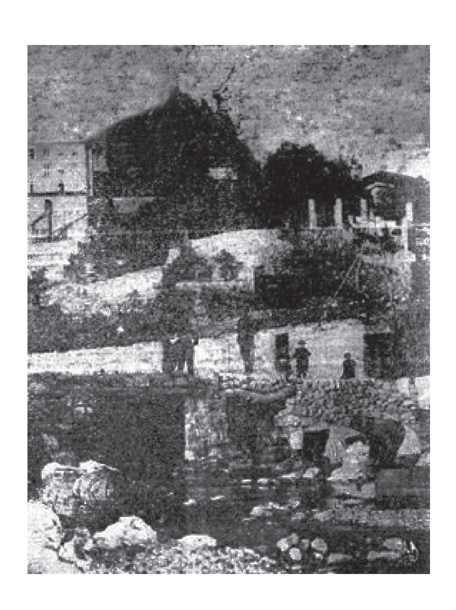


الحلاق المتجول يقوم بعمله على قارعة الطريق في الأحياء الفقيرة من فرنسا.

مونت كارلو شيئًا، وكان يبدو على فلاحيها الضعف الصحي، والضنك في المعاش، تعوزهم النظافة. ويظهر أن الطبقات الدنيا في ريف فرنسا فقراء معوزون، وربما يعزى ذلك إلي الارتباك المالي وعدم استقرار حال الفرنك.

ويجيد غالب السكان الإيطالية، خصوصًا في الضواحي المجاورة لإيطاليا، وقد ظهر من محادثة رجل شيخ في مانتون أنهم يمتون بسبب إلى الطليان، ويودون الانضمام إليهم، ومن هنا فهمنا مرمى التهديد الذي لوح به موسوليني مرارًا لفرنسا بضم الرفييرا إلى بلاده.

أما الجو فحار يكاد يشبه صيف مصر، فالدرجة تزيد على٣٠°م، وسماء البلاد صافية كسمائنا، والهواء راكد تحجب أنسمته الجبال من خلفه، حتى إن جو بعض الليالي لا يطاق؛ ولذلك لم تصلح البلاد أن تكون مصيفًا، فهي مشتى جميل. غادرنا مونت كارلو قاصدين مرسيليا، وكان الجو شديد الحر بحيث كان العرق يتصبب من جباهنا بغزارة، وقد لازمنا ساحل البحر، وأخذت الجبال تجانبنا حتى كنا بين البحر والجبل الشاهق،



على الحدود بين إيطاليا وفرنسا، ويرى الفقراء يغسلون ثيابهم في مياه الغدران القذرة، والمنظر شبيه بريف مصر.

واخترقنا عدة أنفاق، وأجدر البلاد بالذكر «نيس»، وهي مشتى مشهور بدا بقصوره الفاخرة وحدائقه الجذابة.

ومن ورائها «جراس» مركز تجارة الأعطار؛ إذ ترى الحقول قد فرشت بمختلف الزهور التي يعبق عبيرها الأجواء إلى مسافات بعيدة، وترى الفتيات تحت قبعاتهن التي جدلت من سعف النخل دائبات على قطفه لاستخراج زيته بعد غمره في الكحول مباشرة. أما رواسبه فتعمل منها المربى، وتكفي جولة في أحد شوارع المدينة لتعطير ثيابنا أسابيع طويلة.

وكأن جميع القرى التي كنا نمر بها مبعثرة على سفوح الجبال جعلت مأوى لوفود السائحين، خصوصًا في الشتاء؛ لذلك ترى جمهور المتطفلين الذين يؤمون الرفييرا للاستفادة من موسم السائحين بدءوا ينزحزون أفواجًا في الربيع إلى المصايف، أمثال إكس لبان وشامونيكس وماشا كلها.

وصلنا مرسيليا أكبر ثغور البحر الأبيض وليس به ما يجتذب الأنظار سوى أنه عظيم الامتداد يشبه الإسكندرية القديمة، ويفوقها في ضوضائه لكثرة الحركة التجارية في الطرق وفي الميناء.

(٦) ليون

قمنا من مرسيليا السادسة صباحًا صوب ليون، وكنا نحاذي نهر الرون سريع التيار، وفير الماء، طفلي اللون، تحفُّ به سهول فيضية أفسح ما تكون في شرقه، وتحده الجبال القليلة العلو على جانبيه. وكانت السهول تكسى بالنبت، وتشقها القنوات، مما أذكرني ببلادنا المحبوبة، إلا أن الشجر هناك كثير، والربى تُكسى بالخضرة. وقد جزنا عدة مدن من بينها أفنيون — وكانت يومًا ما مقرًّا للبابا — وفالانس، ولما قاربنا ليون أخذ الوادي يختنق، وبدت مداخن المصانع على بُعد، ثم عبر القطار الرون ودخل المحطة ظهرًا.

جُبنا أطراف ليون بسيارة، فألفيناها تنقسم إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول شرق الرون، وغالبه منتزهات وأندية للألعاب. وهنا شارع ممتد أقيمت به الأبنية على جانبيه لتكون معرضًا صناعيًّا عامًّا يقام في مارس من كل عام، والجزء الثاني غرب الساءون رافد الرون، وغالبه مرتفعات اعتلينا أحدها، وزرنا في قمته كنيسة «الباسليك» من الطراز القوطي الفاخر، وبجانبها برج من الحديد شاهق العلو تضاء في ذروته أنوار الكشف بعض الليالي.

ومن هذا المكان تتجلى ليون بنهريها في مرأى جذاب، والقسم الثالث يقع بين النهرين، وبه غالب الأبنية الفخمة، ودور الحكومة، والغرف التجارية من بينها «جالاري لافايت»، وقد زرنا معرض الفن الجميل، وبه مجموعة قيمة من الصور الزيتية القديمة والحديثة، وبعض التماثيل ومخلفات الملوك الأقدمين، والنهران يسيران متوازيين، وفي حجم متساوٍ، غير أن تيار الرون نهاية في السرعة، وماؤه عكر تشوبه مادة طفلية على عكس الساءون قليل الماء، هادئ التيار، مخضر اللون.

وقد زرت معرض الحرائر، وفيه مجموعة من الأنوال القديمة، وكيف تطورت إلى شكلها الحديث، وتعرِض بعض الأنسجة القديمة، وقد وُشيت بالذهب، وزُينت بالزخارف والصور الفنية التي تشهد بما نالته ليون من التفوق على جميع مدن الدنيا في نسج الحرير. وقد زرت أحد المصانع تدار أنواله بالكهرباء، وينسج به الحرير المهفهف في ألوانه البديعة، وغالب عماله من الفتيات، ويكاد يباع الحرير بأنواعه في جميع الحوانيت.

(٧) إكس لبان

في خمس ساعات وصلنا إكس لبان، وكنا طوال الطريق نسير وسط المزارع والربى البديعة، وهبطنا نزلًا فاخرًا، وقمنا بجولة في القرية فإذا بها بالغة التنسيق وسط الربى المكسوة بالخضرة، تحوطها المسايل المائية السريعة، وقد شهرت بمياهها المعدنية والكبريتية؛ ولذلك كانت مستشفى يؤمه أمم مختلفة لعلاج الأمراض الجلدية والكبدية. وقد رأينا في جانب من المدينة نبع عين كبريتية داخل مغارة في الصخر عميقة متلوية حفرها الماء طوال السنين، وجعل في جدرانها وأسقفها تجاعيد وفجوات عجيبة سرنا داخلها طويلًا في ظلام حالِكٍ، وحرارة شديدة، على أن القوم حصروا الماء في أنابيب تؤدي إلى الحمام الكبير، وغور العين ثمانون مترًا، وحرارتها ٤٨°م.

ومن الجهات الجديرة بالزيارة هناك خانق سيروز Sierroz وبه مجموعة من جنادل تطل عليها الأشجار، ويُسخَّر ماؤه السريع في توليد الكهرباء، وبالمدينة كازينو هام للعب الميسر شبيه بكازينو مونت كارلو.

(٨) شامونيكس

قمنا صوب الشرق، وبعد اجتياز بلدة «أنسى» التي تقوم على بحيرة هادئة جميلة أخذنا نعلو تدريجًا، وسارت القاطرة بالكهرباء، وكنا نرى على الجانبين شاهق الجبال تكسوه الأشجار، وتجري من بينها المياه البيضاء في شلالات وغدران لا حصر لها. وكانت طبقات الصخر كالأردواز، وفي رقائق شستية ومائلة ميلًا مخيفًا، والشجر ينبثق من بين الصخر في استقامة عجيبة. وصلنا شامونيكس على علو ١٢٣٠ مترًا. تقوم من حولها الجبال الشاهقة، وقد بتنا ليلتنا في برد قارس زمهرير مذ كانت درجة النهار أقل من سبع، والليل أشبه بليالي ديسمبر ويناير في مصر، لا بل أقسى منها بردًا، وكان السحاب يغطي قطعًا من الجبال كأنه الدخان، ويسقط مطرًا وابلًا استمر إلى الصباح حين قصدنا ثلاجة.

(٨-١) ميردي جلاس

فسرنا في الجبل صعدًا في ليات عجيبة وسط الأعشاب الجبلية وأشجار الصنوبر الشاهقة القاتمة، وكلما زاد صعودنا انكشفت لنا قمم أخرى لا نهائية، ودقت قطرات المطر، فكانت رذاذًا، وكانت تبدو الشمس مشرقة علينا في أعلى الجبل، بينما كانت السحب كثيفة تخفي الشمس عن المدينة من تحتنا، وكانت تنقش الربى النائية عنا بقع بيضاء وضاءة من الثلج، تنزل منها سيول الماء كقنوات اللبن الخالص، وبعد أربع ساعات في هذا الصعود، وصلنا نزلًا على الميردي جلاس تناولنا الغداء فيه.



نستريح قليلًا من وعثاء الصعود إلي ثلاجة «ميري جلادس» التي تبدو خلفنا.

وكانت الحرارة هناك أربع درجات، والريح متوسط السرعة يذرو في وجوهنا هباء كالقطن من الربى المجاورة، وهو الثلج المتساقط من السماء، ثم اقتادنا دليل عبر الثلاجة وهي متدلية في وادٍ فسيح ثلجه مصمت كثير التغضنات والشقوق، وكان الماء يجري وسطها بخرير يسترعي الأسماع، وكان لون الثلاجة ضاربًا إلى الزرقة تعلو جانبيها ركام الصخور التي كانت تغطي الثلج وتبدو كالتلال.



في ذرى جبال الألب وقد انضمر شجر الصنوبر من أثر البرودة.

وعندما عبرنا الثلاجة إلى الجانب الآخر أخذنا نسير في طرق وعرة، ومسالك خطيرة، ولشدة انزلاقها أقيم على بعضها سور من حديد كنا نتوكأ عليه، ولا تكاد الأرض تستقر تحت أقدامنا لانزلاقها، وبعد الهوة تحتنا بنحو المائتي متر، وكدنا نفقد طريقنا في هذا الجبل المسمى «شابو»، وأخيرًا قاربنا مصب الثلاجة، وعنده يتضاءل الجليد في السمك حتى يصبح لسانًا ضيقًا في آخره شبكة من النهيرات دافقة الماء، وكان ارتفاع الثلاجة ١٩٠٩ مترًا في المكان الذي جزناه، ويزيد علوًّا كلما أوغلنا فيها حتى نصل القمة البيضاء «مون بلان»، التي بدت وضاءة على مقربة منا، وقد أقاموا مرصدًا ونزلًا صغيرًا في أعلاها.

وعلى الجبل أنواع من الزهور الجميلة، وكان الشجر يتضاءل كلما علونا، ويمد جذوره في صدوع الصخر بثبات عجيب ينمو أفقيًّا، ثم ينثني رأسيًّا ويستقيم إلى السماء.



بعض زهور جبال الألب التي تنمو على جوانب الثلاجات.

قمنا مبكرين في اليوم التالي نعتلي ثلاجة «بوسون»، وتعلو سطح البحر بنحو ٢٩٥٥ مترًا، أخذنا نصعد في طرق متلوية كالأفعى في انحدار وعر؛ لذلك كنا نحس بتعب شديد، وبعد ساعتين استرحنا في نزل للشاي بجانبه مغارة بديعة وسط جليد الثلاجة. دخلناها فإذا بها زرقاء اللون صافية بلورية، كثيرة السراديب، وقد أشعل في وسطها مصباحان، والماء يتقاطر من جميع نواحيها، ويسيل في مجارٍ ضيقة أسفل جدرانها.

استأنفنا الصعود مرة ثانية زهاء ساعتين، وحللنا نزلًا تناولنا فيه الغداء، وكنا نرى الثلاجة إلى يسارنا تنحدر إلى أعماق سحيقة، وكلما طوحنا بنظرنا جهة المنبع تضخمت حتى امتزجت ببسيط الثلج الموصل لمون بلان في مشهد رهيب، ويحيط بها من الجانبين الشجر والزهر والنبت الوفير، ولا يفصل بين الثلج والأرض إلا كتل الركام وحطام الصخر

الذي فتته جلمود الجليد، وسطح الجليد مجعد مخيف، والماء يسيل من بين الشقوق في خرير رهيب، لونه أبيض تشوبه زرقة مستملحة تقر لها العين إلا قرب الجوانب وعند نهاية الثلاجة حيث يكسوها هشيم الصخر.



نخرج من مغارة في قلب ثلاجة «بوسون» بشامونيكس.

وفي الحق كان المنظر رهيبًا يملأ القلب روعة وجلالًا، ويذكره بقدرة الخلاق العظيم فيخرُّ خاشعًا يستزيد رسوخًا في الإيمان، وثقة في الله جل وعز.

أخذنا دليلًا عبر الثلاجة، ويا لهول ما لاقينا! بدأنا نخطو على الثلج في تثاقل بين شقوق تفغر أفواهها إلى مد البصر، ونواتئ كأنها التلال، وبرك ونقائع راكدة، وقنوات ومساقط لمياه جارية في دوي مخيف، ولم نأت على كتلتها إلا بعد ساعة، وعندها انطلقت ألسنتنا شكرًا لله الذي أنجانا من خطر كبير. أما جليد الثلاجة فناصع البياض في ظاهره تغطيه طبقة رقيقة من الثلج الهش، الذي إذا ما انصهر بالحرارة ثم عاد فتصلب تجمد في بلورات كالزجاج لا تلبث أن تتحد فتصير مصمتة.

وهي تسير في مهل بحيث لا يمكن رؤيتها متحركة، فالمغارة السالفة مثلًا قد انتقلت مائة وخمسين مترًا فقط في سنة كاملة، وكنا نرى القوم يكسرون كتلًا من الجليد ثم يضعونها في مجرى ضيق أعدوه من الخشب، فتنزلق هاوية إلى أسفل الجبل، وهناك تستخدم في تبريد اللحوم والمرطبات، وكنا نلاقي صِبية الرعاة يسوقون أبقارهم السمان وقد علقت في رقابها الأجراس الكبيرة لتدل عليها إن هي ضلت سواء السبيل.



شارع «مون بلان» في جنيف وترى ثلوج «مون بلان» بيضاء في الصدر.

ويمكن الوصول إلى الثلاجة بوساطة ترام هوائي معلق في أسلاك يسير كأنه الطيارة، غير أنَّا ألفيناه في حالة عطب أصابه من انهيار ثلجي اكتسح بعض قوائمه.

وبالمدينة خانق «ديوزاس» الجدير بالزيارة يجري به الماء في مساقط رائعة، والجبال من حولها في علوٍّ شاهق يزيد على المائة متر في استقامة رأسية، وقد أعد القوم أفاريز خشبية تسير صعدًا في جوانبه، وتعبره القناطر في غير موضع واحد، وكانت صخور الجوانب تبدو هشة منحلة، وجلها من رقائق الإردواز، وقد انهارت كتل عظيمة منها إلى أغوار اليم، وبالإيجاز فشامونيكس مزار صحي يتمنى طلاب الهدوء ورواد الطبيعة الساحرة أن يتخذوه لهم مقامًا هانئًا.

(٩) سويسرا

قمنا إلى جنيف تلك التي تهول الزائر نظافتها في طرقها وأبنيتها وساكنيها إلى الإفراط في تنميقها، حتى في أعمدة المصابيح التي زينت بالورد والثريات الناصعة البياض، ويفوق ذلك جمالًا البحيرة التي نُسِّقت أرصفتها على أنماط مختلفة، وقد ركبنا متنها في باخرة، وجُبنا أطرافها، وكنا نستبين شواطئها على بُعد كالسحاب، ورَسَوْنا على مدن عدة من بينها لوزان التي تحاكي جنيف في نظافتها وهدوئها، وإن كانت دونها جاذبية، وخير ما زُرنا بها قصر عصبة الأمم يطل على البحيرة في جلال أقيم عقب معاهدة فرساي.

ولقد ارتضى غالب الدول بإنشائه هناك اعترافًا منهم بما لجنيف من فضل السبق في ابتكار كثير من المنشآت الخيرية، ومناصرة الإنسانية عملًا وقولًا. ومن أجمل المدن التي رسونا بها «أفيان»، وبها كازينو شبيه أخيه في مونت كارلو، ويطل على البحيرة، وتكثر بها الينابيع التي يؤمها المرضى للاستشفاء، وهي داخلة في الحدود الفرنسية؛ إذ إن جزءًا كبيرًا من الساحل الجنوبي لبحيرة جنيف داخل في حدود فرنسا.

وإلى الجنوب الشرقي من جنيف تبدو قمة المون بلان ضئيلة بين الجبال الأخرى لبعدها، ويكسوها الثلج الأبيض الوضاء، وأينما طوحت ببصرك بدت المنحدرات تكسوها الخضرة، وتسيل على جوانبها الغدران، وتتوج ذراها عمائم الثلج في جمال رائع، ويخرج نهر الرون من البحيرة في اتساع كبير، وماء أزرق صافٍ، وتيار سريع تعبره القناطر المنسقة. ولقد أحاط القوم مياه النهر بسدود توقف تياره، وتحوله إلى أنابيب ضخمة تؤدي به إلى محركات وآلات لتوليد الكهرباء.

ويبالغ القوم في العناية بنظافة الطرق حتى إن البوليس لا يسمح لأحد بإلقاء شيء قط في الطريق، حدث مرة أن ألقى أحد المارة بقشر كمثرى كان يأكلها، فأدركه الشرطي وأخرج من جيبه كراسة المخالفات، وألزمه بدفع الغرامة، ثم سلمه الإيصال، فتناوله الرجل غاضبًا ثم مزقه ورمى به إلى الأرض، فاستوقفه ثانية ليدفع الغرامة للمرة الثانية، ثم ألزمه أن يجمع ما ألقاه في الطريق كله، واقتاده إلى سلة المهملات. وتلك السلال تعلق بكثرة في أعمدة المصابيح.

أما أهل سويسرا فخليط مشعَّب من الأجناس والعادات والأخلاق واللغات، فهم يتكلمون أربع لغات أو خمسًا أظهرها الألمانية في الشمال، والفرنسية في الغرب، والطليانية في الجنوب، وهم متناقضون في خلالهم قد جمعوا بين الكرم والبخل، ومظهر الرخاء والبؤس، وهم معروفون بالطمع الشديد الذي أضحى مضرب الأمثال؛ لذلك فهم نزاعون



قصر عصبة الأمم في لوزان.

إلى استغلال أضيافهم ما استطاعوا، كما حدث لنا مع بعض الحمَّالين بالمحطة الذين أصروا أن يُؤْجروا فرنكين على كل حقيبة حملوها إلى اللوكاندة المواجهة للمحطة.

وأهل الريف يشتغلون بجدٍّ إبان الصيف ليدخروا للشتاء، ويقيمون مساكنهم الخشبية بأنفسهم، وينسجون أرديتهم الصوفية بأيديهم، وجل غذائهم بسيط، ومن الألبان، بفضل كثرة المراعي التي تملأ المنحدرات؛ ولذلك ليس بعجيب أن تكثر صنوف



قنطرة «مون بلان» عند منفذ الرون من بحيرة جنيف.

الجبن الممتاز، مثال ذلك جبن «جروييز»، وهي قرية من قرى سويسرا، وبقدر ما ترى الناس في الريف على سذاجة في العيش إذا بهم في المدن قد بلغوا شأوًا في التأنق والتكلف، وأتقنوا إدارة الأنزال، وتلك مهنة لا يباريهم فيها غيرهم من سائر الشعوب. ولعل في جمال مناظر بلادهم خير مُغرٍ للسائحين، ومن هؤلاء يستمدون شطرًا كبيرًا من أرزاقهم.

وأهل سويسرا ديمقراطيون إلى حد كبير، فالبلاد جمهورية مؤلفة من عدة ولايات متحدة، وكل ولاية تضم عددًا من الجماعات Communes، والجماعة نفر قليل من الناس أشبه بشركة مساهمة لها رأس مالها وامتيازاتها، وكل فرد منها مساهم في الغابات والأراضي المجاورة، وله قسطه في الإيراد يتقاضاه لا نقدًا، بل نوعًا، ويؤخذ رأيه في إدارتها، ولكل ولاية قوانينها الخاصة التي تسنُّ بالتصويت العام في مجتمعاتهم النيابية التي يعقدونها في الهواء الطلق مرة كل سنة، والتي تعد أعجب النظم الديمقراطية؛ إذ يُدعى الشعب في العراء، ويخاطبهم الرئيس قائلًا: «أيها الإخوان ذوو السيادة.» فيقدم كلٌّ مقترحه ليناقشوه فيما لا يزيد على نصف ساعة، ثم يمر الجمع في صفوف زوجية، ويعطي كلٌّ صوته ثم ينصرف إلى عمله.



إحدى ولايات سويسرا حيث ترى القوم في اجتماع برلماني في العراء.

وليس لطبقة الأشراف أثر مطلقًا، فهي غير موجودة، ورئيس الجمهورية لا يزيد راتبه على أربعمائة جنيه سنويًّا، وليس للبلاد جيش، وإن كان الدستور ينص على أن كل فرد من الأمة عضو في الجيش. والحرس السويسري معروف بالأمانة والإخلاص، يؤيد ذلك أنهم فَنَوْا عن آخرهم دفاعًا عن لويس السادس عشر، وأن حراس البابا لا يزالون من بينهم.

ويسترعي النظر البوليس الذي يتخذ من كلاب سان برنارد، تلك التي يمرنها رهبان أديرة تلك الجبال على اقتفاء الأثر، وعمل الإسعاف لمن أصابه زمهرير الجليد، وتراها تحمل على ظهورها أو في رقابها بعض العقاقير للإسعاف، ويهديها شمها الحاد إلى المكان الذي أغارت الثلوج فيه على عابري السبيل، أو إلى حيث يضل هؤلاء، فإن أمكنها الإسعاف قامت به وإلا عادت سراعًا لتستنجد ببعض الرهبان.



كلاب سان برنارد تقوم بعمل البوليس في الضبط والإسعاف.

(١٠) باريس

عدنا من سويسرا إلى ليون ثانية، ثم قمنا في قطار الرابيد ظهرًا صوب باريس، وسرنا في مروج منبسطة تُكسى بالمزارع المنمقة تزينها الأشجار إلى أن دخلنا باريس الثامنة مساء، ومن العجيب أن المدينة لم تَسترعِ من أنظارنا شيئًا لأول وهلة، وكدنا نؤكد أن عظمة باريس التي طالما سمعنا عنها لم تكن إلا خيالًا بعيدًا عن الحقيقة، فلم نر إلا كثيف المباني ذات اللون الأسمر الكدر الذي لا يسرُّ العين في شيء، ولقد تعبنا طويلًا حتى حصلنا على نُزل نأوي فيه ليلتنا.

وفي الصباح قصدنا متحف لكسمبرج، وبه مجموعة قيمة من صور زيتية وتماثيل يتقدمه متنزه فسيح به نافورة رائعة، وبعده ولينا شطر.



قصر اللوفر وأمامه الكنكوردو ميدان الثورة الفرنسية.

(١٠-١) ميدان الكنكوردو

فبانت عظمة باريس الحقة، ففي أحد طرفيه قصر اللوفر الذي ينفسح أمامه متنزه أبدع تنسيقه بالزهور والتماثيل والنافورات، ينتهي بميدان عظيم الاتساع تقوم به مسلة مصرية شاهقة قد نقلت من عين شمس. وفي هذا الميدان كان يجتمع رجال الثورة الفرنسية، وهنا سفكوا دماء الأشراف بآلة المقصلة، ثم يمتد منه طريق الشنزلزيه، الذي يبهر النظر بنظافته وحسن تنسيقه، وقد أحيط بالشجر المزدوج من الجانبين، يؤدي بنا إلى قوس نصر فاخر أقيم لتخليد انتصارات نابليون، وعليه تنقش بعض وقائعه الحربية، وتحته اليوم قبر الجندي المجهول، وعنده تشعَّب رئيسي لاثني عشر طريقًا كبيرًا سميت بأسماء كبار القواد والوقائع التي انتصروا فيها.

ولقد عبره الألمان منتصرين في حرب السبعين، وأمامه طريق غابة بولونيا الذي يؤدي بعد طول السير إلى الغابة نفسها، وهي متسع من الأرض تكسوه أشجار البلوط والصنوبر، ويبدو كأنه غابة كثيفة تتوسطها بحيرات عديدة تحصر بينها جزائر عدة، وتجوب خلالها زوارق الرياضة، وعليها تقام المقاهي الفاخرة. وهي من أجمل متنزهات باريس.

(١٠-٢) اللوفر

كان من قصور الملوك الأقدمين، ومن بين من سكنه شارل التاسع الذي كان يتصيد أفراد الهيجونوت الهاربين بالنار من إحدى نوافذه، وبه اليوم متحف عظيم من أكبر متاحف الدنيا جمع فأوعى، به مجموعة من الصور الزيتية لكبار مصوري العالم، ومن بين معروضاته صورة الجيوكوندا من عمل ليوناردو دافنشي. وهي صغيرة لا تزيد على نصف متر في ثلاثة أرباع المتر، وتمثل سيدة تعلوها ابتسامة يحار اللب في تفسير مغزاها، سلبها نابليون من إيطاليا.

وحدث أخيرًا أن نَقَّاشًا إيطاليًّا كان يعمل داخل المتحف سرقها، فعينت الحكومة الفرنسية مليونًا من الفرنكات لمن يدل عليها، ولما انكشف سر الرجل في إيطاليا أُودع السجن، ورُدَّت الصورة لفرنسا، وترى آثار القطع واضحة في جوانبها. وهناك صورة لنابليون يلبس التاج لجوزفين، ويباركه البابا، وهي تملأ الحائط بأكمله في روعة وإتقان، وبالمتحف جانب للسفن البحرية منذ نشأتها إلى اليوم، وبها نماذج لجميع السفن شراعية وبخارية.

وعجيب أن كانت سفن القرن السادس عشر الشراعية في هذا الحجم المروع، وتعلو في ستة طوابق، وهي مزودة بالمدافع الكبيرة، وبالمتحف قسم مصري قديم، وآخر لمخلفات آشور ذوات العمد تعلوها رءوس الثيران، وتقيمها السباع البارزة، وتزينها الكتابة المسمارية، إلى ذلك بعض آثار كريت وقبرص والإغريق.

وأعجبتني هناك خريطة لفرنسا أنهارها من فضة، وأسماء مدنها كتبت من ذهب، ومواضعها صيغت من جواهر ثمينة. أما القصر نفسه فمن معجزات فن العمارة والنقش، وبه حجرة من حجرات نابليون وكثير من أثاث لويس الرابع عشر وغيره.

وزرنا ميدان الباستيل وليس به من أنقاض تدل على ذاك الرمز العاتي رمز الاستعباد الذي دكه الثوار سنة ١٧٨٩، اللهم إلا عامود فخم من البرونز يتوجه تمثال الحرية وقد

أمسك بشعلة النجاح في إحدى يديه، وبسلاسل الاستعباد المهشمة في اليد الأخرى، وعليه خطت بحروف من ذهب أسماء ٦١٥ من الأبناء البررة الذين ساعدوا على هدمه.

(١٠-٣) فرساي



بهو المرايا الذي أمضيت به معاهدة فرساي.

ضاحية من باريس تبعد عنها بنصف ساعة في «المترو»، بها قصر فرساي ذائع الصيت، أقبلنا عليه في بهو طويل تحفه الأشجار المزدوجة، فبدا آية في فن العمارة والزخرف الذي كاد يفوق قصر الفاتكان، وقد عرضت بحوائطه صور زيتية لجميع الوقائع الهامة في تاريخ فرنسا نخص منها: معاهدة باريس، تَقهقُر نابليون من روسيا، فَتْحُ أنفرس، هَزيمةُ الأمير عبد القادر، كلها في لوحات ذَرْع الواحدة عشرون مترًا.

وهناك بهو كامل لنابليون ووقائعه في نقش بديع، وفي مختلف الحجرات يعرض الأثاث القديم؛ كسرير لويس الرابع عشر بفراشه ومكتبه، وبعض العدد التي كان يتسلى

بها لويس الخامس عشر، وكان كلفًا بأشغال النجارة، والمنضدة التي أمضيت عليها معاهدة الصلح سنة ١٩١٩، في صالة المرايا التي عقد بها مؤتمر فرساي.

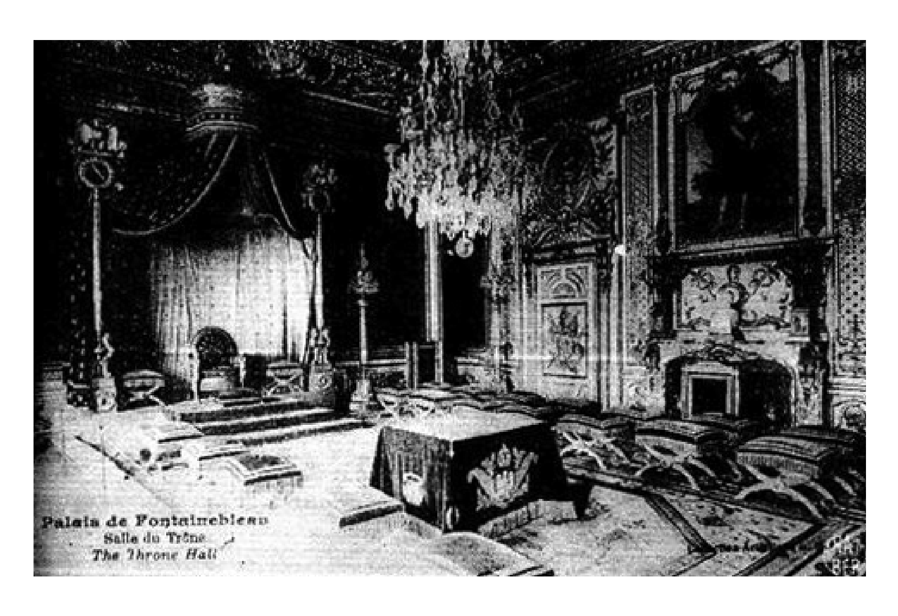


النافورة الفاخرة في حديقة قصر فرساي «باريس».

وفي الطابق الأسفل أقيمت غالب التماثيل تذكارًا لغالب الملوك ومشاهير السياسيين، والقصر يطل على منتزه يعد أجمل حدائق الدنيا نسقت فيه أحواض الزهور على أنماط جذابة، ويواجه القصر طريق فسيح يؤدي إلى سلم فخم تنزل منه إلى نافورة شاسعة زينت بالسلاحف والأفاعي يتفجر من أفواهها الماء في تقوسات بديعة، ومن دونها سلم آخر يؤدي إلى طريق ممتد إلى نافورة من الخيول أمامها نهر من الماء الساكن، وغابات الشجر تمتد إلى أفق السماء، وتتخللها بين آونة وأخرى النافورات والمقاصير. كل ذلك يذكر المرء بعظمة لويس الرابع عشر منشئ هذا القصر؛ فلقد كان حقًّا خليقًا بتلك الأبهة وذاك المجد والفخار الذي كان يزهو به.

وفي هذا القصر تُوج الإمبراطور غليوم الأول الألماني سنة ١٨٧١ منتصرًا على فرنسا. ومن عجائب الأقدار أن فرنسا ثأرت لنفسها بعد خمسين سنة، فأملت شروط الصلح في نفس المكان، وداخل ردهة المرايا، وعلى نفس المنضدة سنة ١٩١٩.

(١٠-٤) قصر فنتانبلو



غرفة العرش لنابليون، قصر فنتانبلو.

ومعناه نبع الماء الجميل Fontaine de belle ean في ضاحية تبعد عن باريس بساعة وربع في القطار، بناه مهندسون إيطاليون عهد فرنسوا الأول، واتخذه نابليون مسكنًا، وفيه حجز البابا بيوس السابع سجينًا، وأرغم أن يمضي عقد الاعتراف بإغلاقه المواني في وجه إنجلترا بعد أن رفض البابا ذلك. وهو فخم قد يفوق فرساي في أبهة النقش والزخرف من داخله، فيه من الأثاث الفاخر شيء كثير؛ كحجرة النوم لنابليون ومكتبته،



غرفة النوم لماري أنتوان زوج لويس السادس عشر، قصر فنتانبلو.

وصالة المشورة، وبهو العرش، وحجرة ماري أنتوانيت وسريرها، وروضة هنري الثاني، أفخر الحجرات في العالم أجمع.

ومن المعروضات القيمة: المنضدة التي كتب عليها نابليون صك اعتزاله للملك. وفي هذا القصر ودَّع حاشيته وحراسه وهو خارج إلى منفاه في جزيرة ألبا، وكفى القصر فخرًا أن قال عنه بونابارت في مذكرات منفاه: «إنه لقصر خليق بسكنى الملوك، قصر لا تُبلي جدَّته السنون.»

(١٠-٥) متحف جريفان

أقيمت به مجموعة من التماثيل شكلت من الشمع الأبيض، يمثل كثيرًا من مشاهير الرجال، مثل: كلمنصو، مصطفى كمال، نابليون، بعض الوقائع كهجوم الثوار على لويس السادس عشر، القبض على الملك والملكة، صلب المسيح، وبه حُجر تسمى «كاتا كومبو» بها تماثيل لمساجين هزال الأجسام ذوي وجوه شاحبة ناحلة مخيفة، وكذلك بعض الموتى وما إلى ذلك من المشاهد المرعبة.

(١٠-٦) برج إيفل

وأقيم من الحديد الخالص في شباك متقاطعة تدق وتتقارب كلما صعدنا، ولقد اعتليناه بمصعد كهربائي إلى الطابق الثالث، وكان علوه ثلاثمائة متر، وكانت باريس على عظمتها تبدو ضئيلة كأنها خريطة يد صغيرة يتبين المرء عليها جميع مواقعها، وفي أعلاه ردهة فسيحة بها نُزل للطعام، ويعلوها طابق رابع أعد للإشارات اللاسلكية، وعلى اتصال بوزارة الخارجية. والبُرج مِلك لشركة فرنسية تتعاطى جُعلًا قدره ستة فرنكات على كل زائر، والزحام هناك بالغ نهايته، وقد استغرقت الزيارة ساعة ونصفًا.

(١٠-٧) البانثيون

كنيسة تتقدمها الأعمدة على النظام الإغريقي، وتعلوها قبة فخمة تظل مدافن العظماء اعترافًا بفضلهم. ومن بين من دفنوا هناك ثم انتزعت جثثهم ثانية ميرابو، وألقيت جثته للرعاع الثائرين، ومارات وألقيت جثته للكلاب، وكلاهما من رجال الثورة الفرنسية، كذلك جثة فكتور هوجو التي اختفت معالمها بعد دفنها، ولا يُعلم اليوم مستقرها.

(١٠-٨) نوتردام دي باري

أكبر كنائس باريس على النظام القوطي، يتقدمها برجان بولغ في حفرهما وزخرفتهما، وفي داخلها قبة مزركشة، أبدع ما يسترعي النظر نوافذها التي يكسوها الزجاج الملون تنعكس منه الأضواء القاتمة فتكسب المكان رهبة. أما باقي الكنيسة فعاديٌّ في نظرنا خصوصًا إذا قورن بكنائس روما.

(١٠-٩) قصر الأنفاليد

بناء لويس الرابع عشر، وهو الآن معسكر دفنت فيه رفات نابليون تحت قبة فخمة، وذلك بناء على وصيته التي قال فيها: إني أحب أن تدفن رفاتي على ضفاف السين بين أبناء شعبي الذين أتفانى في حبهم. وإن المرء لمجرد وقوع نظره على القبر لتعروه دهشة في ذهول وروعة في جلال حين يذكر أعمال ذاك البطل وأطماعه تلك التي يضمها ذاك الحيز الضيق. فسبحان مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وهو على كل شيء قدير.



مدفن نابليون تحوطه أعلام النصر.

والقبر من الجرانيت الصقيل المُجزَّع يطل عليه الزوار من سياج عالٍ كي يطأطئ أعظم الزائرين رأسه إجلالًا للإمبراطور، وإكبارًا لشأنه، ولو كره ذلك. وترى أفواج الناس وكأنما على رءوسهم الطير من روعة الموقف. أذكر أن الأخ عبد الرحمن نسي ولبس قبعته،

وما كاد يضعها فوق رأسه حتى دوى صوت الحارس على شيخوخته وكأنه الرعد من أقصى المكان قائلًا: اخلع قبعتك إجلالًا يا سيدي.

وتُواجه الضريح مقصورة فاخرة النقش يتوسطها المسيح وهو مصلوب، وقد حليت الجدران بالصور التي تمثل وقائعه الحربية، وأحيط به أخواه وعظماء قواده في نواويس من الرخام والجرانيت، وترفرف على الجميع الأعلام التي انتزعوها في الحروب التي انتصروا فيها، ومن بينها أربعة وخمسون غنموها في واقعة أوسترلتز. ولقبر نابليون باب بمصراعين من الحديد نحتت عليه الزخارف وبعض الوقائع، بعضها بارز والبعض غائر، صيغ كله من حديد المدافع التي غنمها نابليون في واقعة أوسترلتز. وقد عُني المهندسون الذين أقاموا الضريح بتصميمه بحيث تُلقي شمس الأصيل بأشعتها الذهبية على رأسه مباشرة.

وفي القصر متحف صغير للعُدد الحربية القديمة، وللجنود يلبسون الدروع ويمتطون جيادهم يتقدمهم ضابطهم، بحيث يخيل للمرء أنه وسط جيش من القرون الوسطى. وقد أحيط فناء القصر بالمدافع الضخمة منذ عهد نابليون، وكذلك عربة السكة الحديدية التي أمضى فيها الجنرال فوش الصلح عقب الحرب الكبرى سنة ١٩١٨، وتتقدم القصر من جانبيه حدائق منسقة على أكمل مثال.

ذاك مثل مما يشاهده السائح في باريس، سيدة العالم في التأنق والتبرج والزينة، ترى النساء وقد خلعن العذار وأسرفن في المجون، وتغالين في طلاء الوجوه بشكل مبتذل، والفتيان ولا عمل لهم سوى تعهدهم هندامهم بالمحسنات، ووجوههم وشعورهم وأظافرهم بمختلف وسائل التجميل، وكأنما خلقوا للمغازلة. والحق أن نظام الحياة في باريس أبعد ما يدل على الفرنسي الصميم؛ لأنها مزيج من مترفي العالم أجمع، حتى قيل: إن الأجانب هناك باريسيون أكثر من الفرنسيين أنفسهم؛ ذاك لأن ثلاثة أرباع الشعب الفرنسي من طبقة المزارعين الذين لا يؤمون المدن بكثرة.

ولقد كان لامتلاكهم للأراضي وتوريثهم إياها لبنيهم واعتمادهم عليها أثر في توثيق عرى الروابط العائلية واستقرارها في القرى، وقلل من الفوارق الكبيرة في الثروة؛ لذلك يقل الفقراء المعوزون كما يندر الممولون المفرطون في الغنى. ولقد أثرت تلك الروابط العائلية في مشاعرهم، فكان الفرنسي معروفًا بشدة حنوه وعطفه ودقيق إحساسه، على أنه حط من قيمة المرأة قليلًا حتى إن الزواج في الريف كثيرًا ما يتم باتفاق الآباء أنفسهم دون أخذ رأي الزوجين.

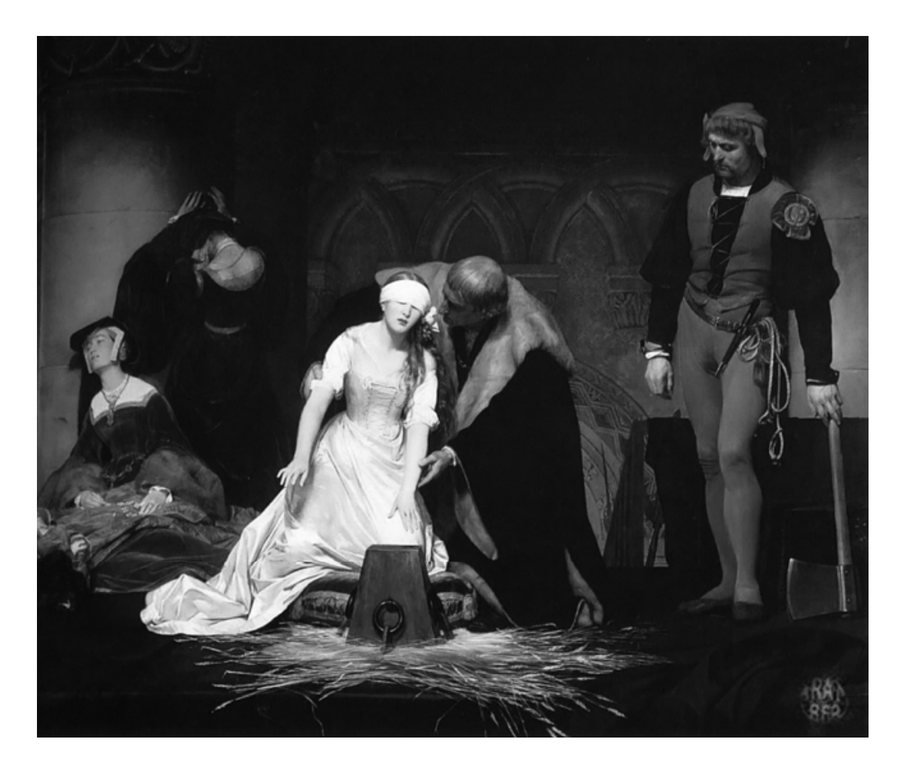
والفرنسي سريع الغضب، حساس لكرامته إلى حد المغالاة: حدث مرة أننا أردنا النزهة في سيارة، فأقبل رفيق لنا مصري على السائق يناديه بنغمة الآمر، وكان السائق متكئًا على سيارته يقرأ جريدة الصباح، فنظر إليه السائق شذرًا وأهمله، وما كدنا نصله ونفتح باب السيارة حتى انفجر الرجل غاضبًا ورفض طلبنا في إباء.

(١١) لندن

غادرنا باريس قاصدين لندن عاصمة بلاد الإنجليز، وهي مشتقة من كلمة كلتية معناها كثيب المناقع lake dune أو lyn din، وعندما وصلنا ثغر دييب ركبنا باخرة كبيرة عبر المانش — وهو بحر عظيم الاتساع سواحله صخرية مشرفة في بياض تشوبه سمرة وتعلوه الخضرة — وبعد ثلاث ساعات رسونا على نيوهيفن، من ثغور إنجلترا، ومنها أخذنا القطار إلى لندن في ساعتين.

أما المناظر فعادية: مروج فسيحة مغضنة السطح تكسوها الخضرة، وتتخللها الأشجار. ولندن بدت في نظرنا أقل شأنًا مما سمعناه عنها في حركتها ومبانيها وتنسيقها ونظافتها. خرجنا إلى: هيد بارك وطفنا به، فإذا به متنزه عادي ليس فيه من الجمال شيء، غير أنه فسيح جدًّا، ثم قصدنا شارع «بكاديلي» قلب المدينة النابض، وهو أيضًا بدا عاديًّا.

وفي جولاتنا بالمدينة مررنا بشارع «فليت» مقر الجرائد الكبرى، ثم شارع «دننج»، وبه دار الحكومة، ولا بأس بفخامتها، ثم اخترقنا شارع الدار البيضاء وميدانها وميدان البرلمان، وبه دار النيابة ببرجيها الشاهقين تشرف على التاميز في عظمة وجلال، بجانبها كنيسة وستمنستر يواجهها تمثال كرمول، وإلى الجانب الآخر الشارع الملكي يؤدي إلى قصر بكنجهام، وهو صغير أمامه تمثال لذكرى فكتوريا، وعلى الجانبين متنزه سانت جيمز الجميل. ومن ميادين المدينة الممتازة «ترافالجار» يتوسطه تمثال نلسون الذي أقيم تذكارًا لانتصاره وموته سنة ١٨٠٥.



السيدة جين غراي والجلاد قد أمسك بالمقصلة لفصل رأسها.

(١١-١) برج لندن

يرجع عهده إلى يوليوس قيصر، والراجح أنه من عهد وليم الفاتح ١٠٧٨، وقد أضيفت إليه أجزاء فيما بعد، وهو مقام على التاميز، ومن حوله خندق متسع كأنه نهر صغير كان يملأ ماء من فتحة تتصل بالنهر عليها باب حديدي وسلم، وكان المسجونون والمحكوم عليهم بالإعدام يدخلون منه، وهم الخونة إذ ذاك؛ ولذلك كتب عليه «باب الخونة»، ومن بين من ماتوا فيه هنري السادس، وإدوارد الخامس، والسيدة جين غراي التي تولت العرش ثلاثة أيام فقط، ثم استعادته مارية تيودور الوارثة الشرعية، وقضت بإعدامها.



التيجان والجواهر الإنجليزية التي تلبس في الحفلات «في أعلاها تاج فكتوريا، وبه أفخر ياقوتة في العالم، وفي الصولجان الأوسط أكبر ماسة في الدنيا ٥١٦,٥ قيراطًا».

وتعرض هناك بعض أدوات التعذيب والقتل التي تدل على مبلغ استبداد ملوك إنجلترا في ذاك العصر، وأفخر ما بها حجرة عرضت بها التيجان والصولجانات الملكية، وهي مجموعة قيمة من الذهب المحلى بالجواهر الكبيرة، مثل: اليواقيت، وقطع الماس في أحجام تبهر النظر، وهناك تعرض أكبر قطعة للماس في الدنيا، وهي في شكلها الغفل ولم تقد بعد. وترى في مواجهة النهر مجموعة من المدافع القديمة التي غنمها الإنجليز من الهند والروس وسلطان عدن، وعلى بعضها كتابة عربية في خط جميل.

وبجانب البرج القنطرة المعلقة، أقدم قناطر لندن من الحديد الضخم، وفي وسطها برجان شاهقان بينهما قنطرة سماوية، وسكان هذا الحي على جفاء في الطباع، وخشونة في المعاملة، وهم كثيرو الجلبة قذرون، ولا يتورع الواحد منهم أن يتهكم على المارة، وبخاصة الأجانب منهم، بألفاظ وقحة، وهم يشيرون إليه في غير حياء كما حدث لنا.

(١١-٢) كنيسة سنت بول

أكبر كنائس لندن، وأعلاها ذروة، فهي تعد رابعة كنائس الدنيا، وهي مقامة في شكل صليب تتوسطه القبة الشاهقة العلو التي يراها البعض من أفخر قباب الدنيا، وهي في هندسة قوطية، لكنها — في نظري — بسيطة ليس بها من الزخارف القيمة إلا القليل، وبالمقارنة بكنائس روما لا تعد شيئًا مذكورًا.

(١١-٣) دير وستمنستر



البرلمان يشرف على التاميز في لندن.

كنيسة فسيحة الأرجاء عالية الأبراج في هندسة قوطية كثيرة الفتحات المدببة والنوافذ، يكسوها الزجاج الملون في قطع صغيرة تبعث بظلامها الداخلي شيئًا من الرهبة خصوصًا،

وتقوم في أركانها مدافن العظماء؛ ففي مقصورة ترى مشاهير الكُتاب والشعراء أمثال: شكسبير، سكوت، تنيسون، ودكنز، وفي جانب آخر رجال الدين والسياسة نخص منهم بلمرستون، ومن الملوك إدوارد وإليصابات وآن وكرمول، ذاك الذي دفنت جثته هناك سنة ١٦٥٨، لكن في سنة ١٨٦١ انتزعت جثته وألقي بها في حفرة في «تيبرن»، وهو المكان الذي ظل إلى القرن الثامن عشر معدًّا لتنفيذ حكم الإعدام، وقد علقت رأسه فوق ذروة في وستمنستر، وظلت هكذا ثلاثة وثلاثين عامًا حتى هشمتها عاصفة عاتية هبت هناك.

وفي مقدمة الكنيسة قبر الجندي المجهول، وهناك حجرة صغيرة يخالها الناس من الكنيسة، وهي في الحقيقة دار البرلمان، الذي كان ينعقد في عهد كرمول، وأغرب ما فيها صغرها الذي لا يتسع إلا لنفر قليل. وهي منقوشة نقشًا فنيًّا بديعًا وبجانبها:

(١١-٤) دار البرلمان

الفاخرة؛ ويشمل غرفة مجلس الأعيان «اللوردات» يؤدي إليها بهو وردهة، أقيمت على جوانبها تماثيل الملوك والملكات، وصورت على جدرانها أعظم الحوادث التاريخية من بينها موت نلسون وواقعة ووترلو، وكذلك بعض حوادث البرلمان سالفًا، وفي سقفها من الزخارف بالذهب والفضة ما يحار فيه اللب، وإذا ما جزته دخلت الدار؛ فإذا هي آية في الإبداع من نقوش جذابة إلى زخارف ثمينة إلى مقاعد وثيرة تكسوها الجلود الحمراء البراقة.

وفي زواياه تماثيل لمن أرغموا الملك جون على إمضاء العهد الأعظم «ماجنا كارتا» دعامة الدستور الإنجليزي، وهم ثمانية وعشرون بارونًا، والمكان حقًّا يمثل عظمة الدولة البريطانية، ولعله أفخر ما يراه الإنسان في لندن كلها. أما مجلس النواب فجميل في بساطة، لم يُبالغ في نقشه، ولم يُسرف القوم في تنسيقه، تُغطَّى مقاعده بالجلود الخضراء، وعددها ٤٧٦ مع أن مجموع الأعضاء ٦١٥، ولا يسمح لأحد بزيارته وقت انعقاده إلا بتذاكر خاصة، عدا يوم السبت، وهو يوم عطلة للبرلمان حين يسمح للجميع أن يدخلوه.

(١١-٥) حي لفربول

وهو الحي الوطني الذي تقطنه الطبقات الفقيرة، ضيق الطرقات قذرها بحيث يُحاكي أزقة الحسينية عندنا، وترى الباعة قد نشروا سلعهم على مناضد خشبية وهم ينادون عليها في غير نظام؛ إذ ترى بائع السمك القذر إلى جانب بائع الحلوى والفاكهة والخيار «المخلل» يعف عليها الذباب في شكل تعافه الأعين، والطرق قد لوثت بما ألقي فيها من أوضار، وبما يسيل فيها من مياه كدرة ودماء اللحوم القذرة.



بعض فقراء الإنجليز في أسمالهم الرثة بقرى الشواطئ.

والعامة هناك كثيرو الجلبة رثُّو الهيئة، والصبية الهمل كأبناء الشحاذين عندنا، وكم كنت أود أن آخذ بعض الصور الفوتوغرافية، لكني دهشت لما خبرني بعض الأصدقاء أن القوم لا يسمحون بذلك مطلقًا، وقد حاولها هو مرة فلم يستطع، وانتهى الأمر إلى تحطيم

آلة التصوير، وكان شجار ثم ملاكمة نجا منها بعد لَأْيٍ. هذا مثل من احترامهم لقوميتهم جدير بكل إكبار، وخليق أن نحتذيه نحن في بلادنا.



لندن: أحد الحمالين في حي كفنت جاردن القذر.

ثم مررنا بحي «كفنت جاردن»، وهي السوق العامة للفاكهة والخضر، عظيمة الحركة والضوضاء، غاصة بالحوذية والحمالين الذين يسوقون عربات الحمل بسلال الفاكهة في تزاحم شديد، والمكان تعوزه النظافة، وسكانه قذرون للغاية.

(١١-٦) المتحف البريطاني

لعله أكبر متاحف الدنيا، به من الآثار مجاميع قيمة لا تحصى جيء بها من جميع الدول حتى أمريكا وجزائر المحيط الهادي والهندي والمستعمرات كلها، وفي قسم الآثار القديمة جانب مصري في ست حجرات كبيرة أقيمت في هندسة مصرية قديمة، وبعض أعمدتها وجدرانها من الصخور المصرية القديمة. يلفت النظر من المعروضات المعدومة النظير في مصر: حجر رشيد. وهو أسود كالإردواز سُمكه نصف متر. وهو الذي هدانا إلى فك الطلاسم المصرية لأنه منقوش بثلاث لغات: الإغريقية والديموطيقية والهرغليفية. عثر عليه أحد ضباط الحملة الفرنسية، ثم تملكه الإنجليز عقب انتصارهم عل،ى الفرنسيين وحملوه إلى لندن، وقد توصلوا إلى فك رموز اليونانية أولًا، فإذا بها شكر كتبه الكهنة إلى بطليموس سنة ١٩٤ق.م، واستعانوا بذلك على تفهم الديموطيقي ثم الهروغليفي الذي كان من المعميات من قبلُ.

كذلك جعل «جعران» كبير يبلغ المتر طولًا، وهو أسود براق، ومن الأجسام المحنطة نحو الخمسين حفظت حفظًا تامًّا في لفائفها من الكتان، ربطت بالجلد ونقش على القماش بعض صور الموتى، وأهمها جثة مدفونة في قبر صخري ضخم، وقد أطبقت الرجلان إلى البطن، واليدان إلى الوجه، وقلبت على وجهها، كذلك شعر سيدة مستعار يلبس في الرأس في تجاعيد ذهبية تتدلى منها الخصل الدقيقة في شكل يحكي ما يعمله بعض الطبقات الراقية من نسائنا اليوم.

وفي الأقسام غير المصرية معروضات هندية وبرازيلية، وكذلك مخلفات من العصر الحديدي والبرونزي والحجري، وحجرة للجواهر، وأثمن ما بها جرة بورتلند Portland Vase من زجاج أسمر حفرت عليها التماثيل بحجر الماس بدقة فنية مدهشة، وهي الوحيدة من نوعها في العالم، عُرض على صاحبها مليون من الجنيهات ثمنًا فرفض بيعها وأهداها للمتحف. وبالإيجاز فالمتحف عالمي في معروضاته يتطلب في تفقده شهورًا، ويتساءل المرء: كيف أمكن لهؤلاء الجبابرة الحصول على تلك المجاميع القيمة الوفيرة؟!

(١١-٧) معرض الفن الأهلي

وبه صور زيتية قديمة من مختلف مصوري العالم، من بينهم رفائيل وميخائيل أنجلو ورامبرانت وفان ديك. والقوم قد عنوا بترتيبه حسب العصور والمدارس الفنية المختلفة، ويدهش المرء لكثرة الزحام، خصوصًا من السيدات اللاتي ينظرن إلى الصور نظرات عميقة تُشعر بحسن ذوقهن وتقديرهن للفنون، وهن يصحبن أولادهن الصغار، ويشركنهم في تفقد الصور؛ لكي تتربى الملكة الفنية، وتساعد الحكومة على ذلك بإباحة الدخول مجانًا للجميع، وفي كل المعارض والمتاحف.

ومن معارض الفن الحديث Tate — باسم مؤسسه — يحوي مجموعة قيمة، لكنها دون ما رأيناه في روما بكثير؛ إذ القدرة الفنية في التصوير تكاد تقرؤها في كل صورة تراها من صنع يد الإيطاليين. أما بين الإنجليز فهذا نادر؛ لأن صورهم يسودها شيء من الجمود، وافتقارها للحياة، فكأن البرود الإنجليزي قد خلف أثره حتى في تصويرهم.

(١١-٨) أدجوير

ضاحية من لندن تعد موطن الطبقات الوسطى، بيوتها صغيرة متواضعة ليست متلاصقة ولا مرتفعة، يحيط بكلٍّ حديقتان صغيرتان، ويفصل بين كل مجموعة من المساكن مرج فسيح أخضر، ويسترعي النظر فيها نظافتها وبساطة بنائها؛ فهي تقام بالآجر الأحمر، وتُكسى واجهاتها بالزجاج الذي يبالغ القوم في مسحه، تغطيه الستائر من داخله، وترى في مدخل كلٍّ صالونَ الاستقبال وقد نُسِّق في بساطة، وعلقت على جدرانه الصور الزيتية وباقات الزهور فوق المناضد.

وقد زرنا إحدى العائلات هناك في رفقة زميل لنا كريم، وتصادف أن كان في وقت الغداء وقد مد القوم السماط، وعجيب أنهم جميعًا قابلونا بترحاب، وأجلسونا حولهم وهم يأكلون، ولم يتعرض واحد منهم لدعوتنا ولو «عزومة مراكبية»، فكنا ونحن جلوس نحس بشيء من الخجل، وظننا أنهم سيُقَدِّمُون لنا تحية من القهوة أو ما شاكلها كما نفعل نحن، لكن شيئًا من ذلك لم يحصل مطلقًا، فودعناهم ونحن ذاهلون من ذاك الجمود الذي نعده عندنا ضربًا من التنطع الذي لا يغتفر.

(٩–١١) سكان لندن

قوم صحيحو الجسوم بفضل ميلهم للرياضة، نظيفو الهندام، يسيرون في نشاط الشباب حتى الشيوخ منهم، لا يضيعون وقتهم الثمين في التلكُّؤ في الطرقات أو التسكع على المقاهي، وعجيب ألا توجد المقاهي هناك قط، اللهم إلا أماكن تفتح ساعة أو ساعتين في اليوم، ويؤمها العمال لتناول الشاي أو القهوة.

أذكر أننا كنا نَحِنُّ كثيرًا إلى مكان نجلس فيه لتناول بعض المرطبات فلا نجد إليه سبيلًا في جميع الأرجاء، وقد أعيانا التعب ونال منا، فهم قد استعاضوا عنها بالأندية التي لا تكاد تجد فردًا إلا وهو مساهم في واحد منها. والنساء هناك رشيقات يمشين في وقار، ولا يتكلَّفن في أرديتهن، ولا يطلين وجوههن بشيء إلا نادرًا، على عكس ما تفعل الباريسيات، على أن اختلاطهن بالشبان كثير جدًّا في المتنزهات، وبشكل فاضح.

ولعل أجلى صفات الإنجليز رزانتهم، وقلة الجلبة بينهم، على نقيض الفرنسي: حدث مرة أن إنجليزيًّا كان راكبًا في قطار فرنسي إلى باريس في المقعد الذي يواجهنا، فأقبل فرنسي ولم يجد له مكانًا، وكان في المقعد المجانب للإنجليزي حقيبة، فأشار عليه أن يرفعها ليجلس، فلم يُعْنَ الإنجليزي بأمره واستمر يقرأ كتابه، فما كان من الفرنسي إلا أن هدده بإلقائها من النافذة، فتمادى الإنجليزي في جموده، فحملها الرجل وألقى بها من النافذة والقطار يسير كالبرق، ثم جلس مكانها فلم يحرك الإنجليزي ساكنًا.

وبعد قليل ونحن نتهامس عجبًا، جاء صاحب الحقيبة وبحث عنها، فارتبك الفرنسي وأقبل على الإنجليزي يلومه، وأخذ يعتذر لصاحبه ويتكفل له بالعمل على إحضارها له. فانظر مبلغ تسرع الفرنسي وطيشه، وجمود الإنجليزي ورزانته. وهم يراعون النظام في كل شيء، ولا يتعدون حقهم أبدًا، وكذلك لا يسمحون لغيرهم أن يسبقهم إلى حقهم: حدث مرة أن رجلًا أخطأ وتعجل دوره في طريق مزدحم، وكان يحمل ابنته الصغيرة على ذراعه، فلكمه الثاني بيده غاضبًا وهو يقول: الزم مكانك خلفي. فتقبلها الرجل في برود وخاطب طفلته متهكمًا وهو يقول: يظهر أن صاحبنا هذا رجل مفتول العضلات!

(١١–١٠) متحف التاريخ الطبيعي

مجموعة لا تبارى نباتية وحيوانية وجيولوجية، ولا يستطيع المرء تفقدها في أيام، بل في شهور، فمن الحيوان ترى جميع هياكلها العظمية محنطة بأحجامها المختلفة، وفصائلها المتعددة، وقسم الحفريات رائع؛ إذ ترى من بقايا الحيوان البائد ما يهولك؛ كهياكل الماموث والماستودون، وغزال أرلندا الكبير ذي القرون المفرطحة في طول مترين، وبقر البحر الذي يبلغ ثمانية أمتار في الطول، والكسول Giant Sloth وطوله تسعة أمتار، ثم نقلته إلى مكانه الحالي في الضواحي.

ورغم غرابة بنائه وعظمته فقد زاد القوم منفعته، فأقاموا به معارض علمية للحيوان المحنط للمخلفات الجيولوجية. ولعل أجمل ما به قسم الهندسة المعمارية، وبه أقيمت مقاصير كبيرة في هندسة العصور المختلفة، فترى بهوًا مصريًّا قديمًا بعمده وتماثيله ونقوشه الهرغليفية، وإلى جانبه آخر إغريقي صميم، وثالث روماني، ورابع عربي ترى به ردهة السباع من قصر الحمراء، وخامس قوطي، وسادس لهندسة عصر النهضة الإيطالية، بحيث يكفي الطالب الصغير أن يقوم بجولة حولها فيتفهم الفوارق الرئيسية في فن العمارة والنقش. وفي داخل كلٍّ تماثيل لأعاظم رجال العصر. هذا إلى النافورات البلورية وأنواع الألعاب التهذيبية. وأمام القصر حديقة نسقت أيما تنسيق.

هذا شيء عن لندن ذات المباني المتراصة غير الجذابة التي يقام غالبها بالآجر الأحمر؛ لأن التربة من الطَّفل، ويندر وجود الحجر، وهي ذات جو عكر من كثرة الدخان الذي تصعده المصانع والمدافئ؛ لذلك ترى الهواء كدرًا حتى إنك إذا مسحت أنفك بمنديلك ألفيته أسود فاحمًا. وقد كسيت الجدران بطبقة من الفحم سميكة أكسبتها لونًا قاتمًا؛ لذلك يغسل الأغنياء واجهة بيوتهم كل حين، وتقوم بذلك شركات خاصة.

هذا إلى الجو الغائم كثير السحب، فهو غير مأمون يباغتك من غير إنذار بالعواصف يتلو بعضها البعض، وقلما يمضي يوم تصفو قبة السماء، وينقطع المطر، على أن هذا لا يعيق الانتقال قط؛ لسهولة سبل الاتصال وتعددها؛ حيث تشق الطرق الحديدية الأرض تحت قدميك في ثلاثة طوابق، وفوق السطح ترى السيارات والأوتوبيس الأحمر ذا الطابقين الذي قد تقرأ في أرقامه المسلسلة عدد خمسمائة.

أما الترام فقد قصر على الضواحي فقط، وتغص الطرق بالمارة خصوصًا بين السابعة والتاسعة صباحًا، والرابعة والسابعة مساء حين لا يكاد يشق المرء طريقه وسط الجماهير. ولا عجب فسكان المدينة يقربون من نصف سكان القطر المصري، وأنت ترى البوليس

المهيب يُسيِّر الحركة بيديه، ويشرف على كل شيء في لباقة وأهبة للإرشاد لا نراها في بوليسنا. ويرى البعض أن بوليس لندن هو المثل الأعلى، وإن كنت أرى أن بوليس ألمانيا لا يقل عنه، إن لم يَفُقْهُ يقظة ودقة. والإنجليز يرتادون المدن بكثرة «عكس الفرنسيين»؛ لأن جل اشتغالهم في المناجم والمصانع. ولقد أثبت الإحصاء الأخير أن ثلاثة أرباعهم من المشتغلين بالصناعة والتعدين.

الرحلة الثانية يونيه ١٩٣٠

أوروبا: دول الشرق والوسط والشمال بين الإسكندرية والبحر الأسود

(١) إلى أتينا

في أقل من أربع وعشرين ساعة بدت أرض جزيرة «سكارباتيا» على اليمين، وكريت على اليسار في شبح فاتر، وبعد ست ساعات اضطرب البحر وزاد عصف الريح، وترنحت السفينة، وبدا مرض البحر على سيماء بعض الركبان، فانسلوا إلى مخادعهم. ولم نعجب لذلك مذ بدت جزائر بحر الأرخبيل وهي تنتثر من أيماننا وشمائلنا كأنها رُبًى جبلية، تقام القرى على حجورها، وغالبها مجدب عارٍ عن النبت، ودخلنا ميناء بيروس ثغر أتينا، وكانت جزيرة سلامس التاريخية تُرى إلى اليسار. جبت أرجاء بيروس فبدا قذرًا منفرًا ليس به من شيء جدير بالزيارة، وأقلني الترام إلى:

(٢) أتينا

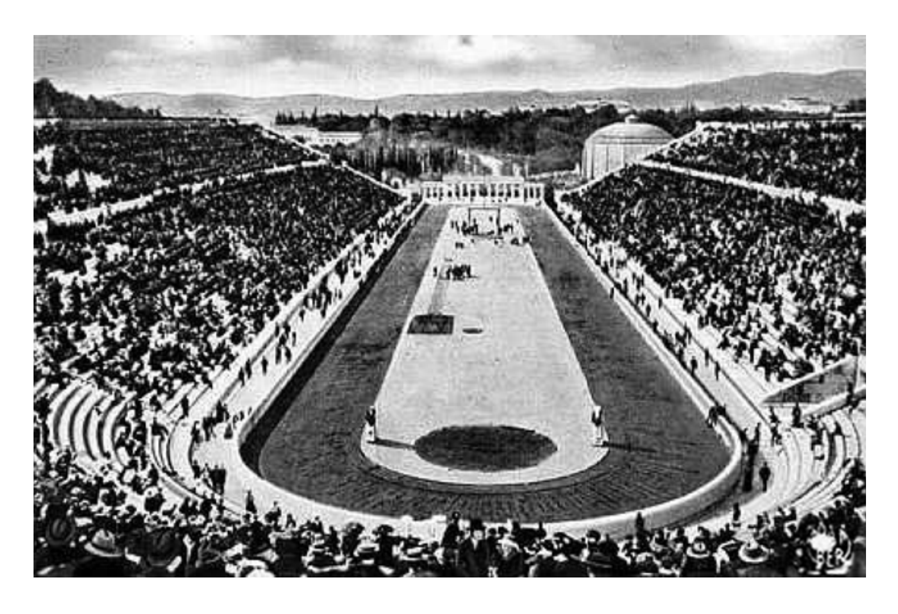
عاصمة بلاد الإغريق، وكنا نرى قبالتنا ربوة بيضاء عالية كأنها الهرم يسترعي النظر؛ إذ تمتد على مدرجاته مباني المدينة تتوجها الأكروبول التي تسلقناها، فبدت عليها المعابد الإغريقية القديمة، وكانت مقر الملوك الأقدمين ثم أضحت خاصة بالآلهة. وغالب الآثار قد مسته يد البلى إلا القليل، ولعل أجملها الباريثنون، وهو معبد العذراء أتينا، آلهة الحكمة، وبه ٩٨ عامودًا من الرخام الأبيض في النحت الإغريقي المجزع، ومن حولها معابد أخرى أقل شأنًا منها.

وفي أسفل تلك الربوة قوس هادريان الذي يظن أنه نهاية أتينا القديمة، ومن أفخم ما يرى المرء هناك الملعب Stadium يمتد في شكل إهليلجي عظيم الاتساع، وتعلو على جوانبه المدرجات المعدة للناظرين. وقد جُدِّد حديثًا بالرخام الأبيض على النظام القديم، ويتسع لأربعين ألف متفرج، وفيه تعقد الألعاب الأولمبية مرة كل أربع سنين بانتظام، ولم تتوقف حتى في أيام الحرب الكبرى، على أنني وأنا واقف بين تلك الأطلال ذكرت آثار أجدادي فتلاشت أمام عظمتها — وبخاصة الكرنك — تلك المخلفات الإغريقية، التي كنت إخالها أكبر من ذلك شأنًا. أما المدينة نفسها فعادية يعوزها كثير من النظافة والنظام، طرقها متربة، والمقاهي بها كثيرة على أن مناضدها بالخشب العادي، ومقاعدها بالقش والخوص كالقهاوي البلدي عندنا.



فوق أطلال «الأكروبول» بأتينا وبجانبنا الجند يلبسون الأردية الإغريقية القديمة.

وفي عودتي من رحلتي في سبتمبر، سلكت سبيلي إلى أتينا بطريق أكسبريس الشرق الذي اخترق يوجوسلافيا، وبعد مغادرة بلدة نيش القذرة بقليل دخلنا الحدود الإغريقية



دار «الاستاديوم» مقر الألعاب الأولمبية بأتينا.

— وقد فتشنا البوليس اليوجوسلافي ونحن في القطار نحو الست مرات داخل حدود بلادهم؛ مما يدل على عدم اطمئنانهم لرعاياهم — وقد بدا الفرق الشاسع في النظافة والنظام، وجمال الخلق والخلقة بين هذه البلاد وبلاد وسط أوروبا وشمالها.

وكنا كلما تقدمنا نحو أتينا زاد البؤس والجفاء في الطباع، وبدا على الخلق الهزال والجوع والملابس الرثة المرقعة، وكثر الشحاذون وأبناء الشوارع بشكل مزرٍ. والبلاد تكاد تكون صحراوية؛ فالربى لا يكسوها إلا العشب الخشن، وتبدو بعض المجاري المائية الصغيرة التي يكاد ينضب ماؤها حتى وصل القطار سلونيك، ثانية مدن اليونان، فمكثت بها يومًا ظنًّا مني أنها على شيء، فإذا بها بلدة قذرة قديمة مهدمة متربة، أهلها في غاية القذارة، على أن القوم جادون في إصلاح بعض شوارعها، مثل: شارع فنزيلوس، وأياصوفيا، وشارع البحر. وميناؤها صغير تقام عليه المقاهي ودور الملاهي، وجزء من المدينة فوق الرُّبى المدرجة، ومنظره يبدو جميلًا على بُعد؛ فإن دانيته بدا أكثر قذارة وأشد بؤسًا.

على أني هنا فقط بدأت أتذوق الطعام الشهي الشرقي بعد ثلاثة شهور؛ حيث قُدمت إليَّ أطباق الخضار ولحم الضأن اللذيذ. والفاكهة كثيرة الوجود، جيدة النوع بثمن بخس؛ إذ المعيشة رخيصة بالنسبة للأجنبي، وإن كان يراها الوطني غالية؛ لأن متوسط دخل العامل المُجِد في اليوم اثنا عشر قرشًا. وهذا القدر لا يسد عوزه. وحدث أن قام العمال بمظاهرة هناك ضد الحكومة احتجاجًا على بطالتهم، وكانوا يصيحون والبؤس يتجلى في مظهرهم مُذْ كان غالبهم حفاة خَلِقي السرابيل.

يركب بعضهم عربات النقل القذرة «الكارو»، ويحملون المكانس والنبابيت. وبالمدينة بعض بقايا الأسوار والقلاع القديمة التي يرجع عهدها إلى الإسكندر الأكبر. قمنا صوب أتينا بعد أن عبرنا نهر الوردار بقنطرة عظيمة الامتداد، على أن ماءه كان آسنًا؛ إذ إنه لا يكون طاميًا إلا إبان الشتاء.

ولما أن انعطفت الطريق جنوبًا بدا البحر إلى يسارنا وجبال أولمبيا المقدسة على بُعد إلى يميننا، ثم قاربناها تدريجيًّا، فكانت صفحة شاهقة معقدة عاتية عريت عن النبت إلا القصير المتناثر، وأعلى ذراها ٢٨٠٠ متر، وقد اخترقنا منها جملة أنفاق أدت بنا إلى أرض تساليا، وهي خليط من الربى والسهول أعقبتها جبال ترموبيل التي بدت أشد قسوة وأصلب صخرًا من أولمبيا، وبها من الممرات والعقد والأنفاق ما لا يحصى.

وكنا نسير تحتها وهي تعلو في صفحة رأسية رائعة، وبين آونة وأخرى كانت تتخللها المجاري المختنقة السريعة. ولقد أثار هذا المكان في النفس ذكريات تاريخية تالدة لأمة كانت كل شيء فأخنى عليها الدهر، ولم يخلف بها إلا الفقر المدقع والبؤس المبيد.

وكان القطار يقف في محاط صغيرة جدًّا وموحشة، وكنا نرى بائعي اللحم والجبن والخبز وقد افترشوا الأرض، والذباب والنحل يكاد يكسو المبيعات بغشاء أسود تعافه الأعين. وأخيرًا أقبلنا على أتينا خلال طرق قذرة وأطلال بالية متربة إذا ما رآها السائح سئم المقام، وآثر الارتحال؛ فالطرق أسوأ إعلان عن البلاد. وعامة القوم على قذارتهم يتكلمون الفرنسية، ويظهر أنها اللغة السائدة في جميع الأنحاء بين بودابست وأتينا.

أما طريق أكسبريس الشرق بين هاتين البلدتين فجاف مجدب فقير بمناظره الطبيعية، وحره في الصيف قائظ محرق؛ ولذلك ليس بعجيب أن يكون جمهور المسافرين فيه قليلًا. ركبت البحر ولم تترك أتينا في مخيلتي من العظمة التي خلتها بها إلا قبسًا ضئيلًا لم تثره آثارها، بل مظهر فقر الأهلين أولئكم الذين لا يكاد المرء يعتقد أنهم فرع عن ذاك الأصل التالد العريق.



أمام طابية الإسكندر الأكبر بسلونيك.

(٣) إلى القسطنطينية

أقلعت الباخرة من الميناء وسط الربى الجزرية، وظلت هذه تبدو في جميع الآفاق في حمرة قرنفلية لا يشوبها إلا بقع سوداء من عشب وشجر منثور، ونقط بيضاء تنبي عن منازل القوم، ثم دخلنا مأزقًا اشتد فيه الموج بين جزيرتي أندروس إلى اليمين وبخروبنت إلى اليسار، وظل الماء يضطرب طوال الليل، وما كانت الساعة الخامسة صباحًا حتى كنا بين ربوتين هما مدخل الدردنيل، عليهما أطلال حصون قديمة ومنارات مشرفة أذكرتني بما كان لهذا الموقع المنيع من الجبروت إبان الحرب الكبرى.

وبعد انقضاء ساعة بين تلك الربى ظهرت على الجانبين أبنية منسقة نظيفة بينها مآذن لمساجد عدة، وقد أقيم على شطوط كل حصن جبار، وتسمى هذه البقعة المختنقة «شَنَل قلعة» يقطنها عدد كبير من الأتراك. وهنا جاء زورق مصلحة الصحة التركية للتفتيش الصحي، ثم بدأ بعدها منعطف شديد إلى اليمين سلكته السفينة بين تلك الربى

اللانهائية التي تكسو أعاليها الأعشاب أو الأشجار، وبخاصة على الجانب الأوروبي. وفي المنخفضات يستنبت القوم القمح والشعير على المطر.



النقوش الفاخرة داخل مسجد أياصوفيا، إسطنبول.

أما الشجر فغالبه من الزيتون القاتم، وكان اتساع الدردنيل يختلف انفراجًا وانقباضًا، ولبثنا نسير فيه ست ساعات كاملات بدا بعدها على بُعدٍ منا بحر مرمرة، وقد أخذت تنفرج سواحله وتنأى عنا بحيث لا تكاد تُرى إلا في طفيف ضئيل، ثم ظهرت أطراف البسفور الجنوبية على بُعدٍ في شكل إهليلجي يرى مغلقًا، ولا يستبين المرء له منفذًا.

وعلى جوانب القوس أقيمت المساكن ذوات السقف الحمراء مدرجة على جوانب المرتفعات، وأخذنا نتبين مآذن المساجد الفخمة وقبابها، وكلما قاربنا المكان زادت تفاصيله في جمال رائع، إلى يميننا جانب إسكدار الأسيوي، وإلى يسارنا إسطنبول، وبجانبها القرن

الذهبي الذي تعبره قنطرة جالاتا، وتصل بين حي بيرا الأوروبي الحديث شمالًا، وإسطنبول القديم جنوبًا.

وتلك البلاد التي تُكوِّن في مجموعها القسطنطينية مُقامة على سبعة تلال تُكوِّن مثلثًا، وهي في الواقع قطعة من آسيا فصلتها عوامل الرفع التي أحدثت شقًّا هو البسفور، وقصارى طوله تسعة عشر ميلًا، وعرضه ميلان، ويسير في اتجاه من شمال الشمال الشرقي إلى جنوب الجنوب الغربي، عمقه بين ٣٠–١٢٠ مترًا، وبه تيار دافق من البحر الأسود غالبًا بسرعة عقدتين ونصف في الساعة، إلا حيث يختنق جدًّا ويُحدِث دوامات مروعة، ويعزى إلى الرياح الشمالية الشرقية السائدة.



أمام مسجد السلطان أحمد، إسطنبول.

رست السفينة في مدخل القرن الذهبي قرب القنطرة «جالاتا»، ودخل البوليس لفرز جوازات السفر بدقة متعبة، والمسافرون الذين أغفلوا التأشير على جوازاتهم لم يُسمح لهم بالنزول إلى البر ساعة واحدة إلا بعد دفع رسم قدره جنيه مصري. حللت أرض المدينة الأوروبية «بيرا»، ولا بأس بمبانيها ونظافتها، على أن طرقها ضيقة ترصف بالأحجار

الصغيرة، وتعلو آونة وتهبط أخرى، وهي غاصة بالحركة التجارية، والترام يتلوى فيها ليات مدهشة، ويتسلق رُبًى ثم يهوي بانحدار مخيف؛ مما يؤيد أن البلد مُقام على تلال وبها حي كثير الملاهي اسمه Taxim تتعدد به المتنزهات والمقاهي ودور الموسيقى والغناء التي تحكي «ألف ليلة» عندنا، وفيها نسمع أنغامًا شرقية جميلة، و«العود» و«القانون» من الآلات الموسيقية الهامة لديهم.

ثم عبرت قنطرة جلاتا إلى إسطنبول الحي الشرقي البحت بأزقته المختنقة وحوانيته التي تحكي جهة «خان الخليلي والخيمية» عندنا. وأجمل ما زرنا بها مساجدها الفاخرة المتعددة التي تشمخ بقبابها ومآذنها العديدة، وفي مقدمتها: «مسجد أياصوفيا»، وهندسته تدل على أنه كان كنيسة؛ لأنك ترى الصلبان بادية في بعض نقوشه وفتحاته، بل وفي مجموع شكله من الداخل، ذاك الذي يعجز القلم عن وصف إبداعه الفني وزخرفه الجذاب في القبة الفخمة، والأعمدة الشاهقة، والفناء الرحب.



البسفور المختنق تشرف عليه طوابي «روملي حصار».

وأينما طوحت ببصرك ألفيت المخطوطات القرآنية صيغت بالذهب، وتعلق أطر مستديرة كبرى في الأركان تحمل الأسماء الكريمة المقدسة. ومن محتوياته القيمة مجموعة

من عمد خضر نقلت من معبد ديانا في أفيوس، وأخرى حمراء جيء بها من معبد الشمس في بعلبك، وهناك سجادة تنسب للنبي ﷺ، ومهد المسيح وحوضه نقل من بيت لحم، وعامود يرشح منه الماء الذي يُبرِئ المرضى، وفي أبهائه الخارجية عدة أسبلة عربية أنيقة.

وقد أقامه جستنيان سنة ٥٣٢م ليكون كنيسة، ثم حوله الأتراك مسجدًا بعد ذلك بنحو تسعمائة سنة، وأمامه ميدان فسيح يزينه من الجانب الآخر: «مسجد السلطان أحمد» بمآذنه الست الدقيقة، وقبته الكبرى التي ترتكز على أربعة أعمدة تفوق في ضخامتها عمد الكرنك، وتحتها أربع قباب نصفية تحت كل ثلاث صغيرة. والنقوش هناك رائعة، وغالبها بالقيشاني الأزرق الجميل؛ ولذلك يسمى بالجامع الأزرق أحيانًا. ويتقدم المسجد مسلتان إحداهما مصرية.

هذا وتقام كثير من مباني المدينة بالخشب؛ ولذلك كثيرًا ما تشب النيران فيها فتحدث أضرارًا جسيمة، وقد حدَا بهم هذا إلى إقامة برج شاهق على ربوة كان يقف فيه الحراس لتعرُّف مواضع النيران عند شبوبها. أما الأتراك فيبدو عليهم النشاط جميعًا، وتفيض نفوسهم بالحماسة الوطنية، فالكل يتعصبون لقوميتهم إلى درجة الجنون: لبسوا القبعات جميعًا، وأسفر نساؤهم بحيث لا يفرقهم المرء عن سائر الأوروبيين، والمحال التجارية تكتب عنواناتها بالتركية في حروفها اللاتينية الجديدة، ولا يسمح لأحد أن يكتبها بغير لغة البلاد.

مظهر للقومية جميل لا نراه في مصر مع الأسف الشديد، والغازي مصطفى كمال يجوب الطرق في سيارة عادية من غير حراس، وكان كلما تعرَّفه القوم على بعد هاجوا وصاحوا قائلين: «الغازي الغازي.» مهللين مبتهجين، وهو محبوب منهم إلى حد التقديس، على أن القوم يعوزهم المال على ما يظهر من الحالة الرثة لكثير من أبنائهم، فهم لا يزالون يعانون من ألم ما عقبته الحرب من سيئات.

قامت الباخرة تشق عباب القرن الذهبي، وإلى يميننا مدخل مرمرة، وأمامنا مدخل البسفور، فكانت الطبيعة تتجلى في جمال فتان من رُبًى ووهاد تُكسى بأشجار الفاكهة والزيتون في خضرة قاتمة، وفلات أقيمت على درج المنحدرات بسُقُفها الحمراء المنحدرة، ومآذن المساجد تناطح السحاب. وكان البسفور آونة ينقبض ويختنق، وآنًا ينفرج وينبسط في تعرج خفيف، وعند كل اختناق أقيمت القلاع، وقد بدا عليها القدم والتهدم. ولبثنا في تلك الجنة الخلابة عشرين ميلًا وبيوت الآستانة تمتد على الجانبين الأوروبي والآسيوي، وألفتَ نظرَنا القصر الشاهاني المشرف على الماء في الجانب الأوروبي، ومعسكر

قيل: إنه أكبر معسكرات الدنيا في الجانب الآسيوي. والحق يقال: إن هذا المنظر لا يعدله منظر في العالم أجمع، فهو يفوق سويسرا وجبالها جمالًا وروعة.

دخلنا البحر الأسود وأخذت الأراضي تنفسح حتى اختفت وراء الآفاق، وكنت أتوقع اضطراب الماء في هذا البحر، وقد عرفنا أنه مقر الأنواء والعواصف الشتوية التي تُلقي عليه من سحبها القاتمة الكثيفة غبرة أكسبته اسمه، ولكن ظروفنا كانت موفقة، وظل البحر هادئًا جميلًا، ولو أن ماءه لم يبلغ من الصفاء ما يبلغه ماء البحر الأبيض، وظل سمك الدلفين طويلًا يناطح مقدم السفينة كأنه يقف في سبيلها، وأخيرًا بدت أرض:

(٤) رومانيا



فلاحات رومانيا يشتغلن في الحقول حفاة.

وألقت الباخرة مراسيها على مدرجات ثغر قستنزا الساعة الثالثة صباحًا. ومدخل الثغر وَطِيءٌ قليل النظافة نرتقي خلفه ربوة تقام عليها المدينة، ولا بأس بتنسيقها.

واسترعى نظري بها بعض المساجد؛ إذ إن المدينة وما يليها جنوبًا جزء من «دبروجة» الإسلامية التي كانت تحت حكم الترك، ولذلك لا يزال يلبس غالب سكانها الطرابيش.

قمنا إلى بوخارست وسط سهول مبسوطة تمتد إلى الأفق يكسوها النبت وبخاصة القمح والذرة، وكان القوم يحصدون القمح وقتئذ «٢٥ يونيه» بمحاريث غالبها آلي حديث تجرها الخيول، وغريب أن تروى الأرض بالأمطار فحسب، وليس هناك من قنوات تصلها بالدانوب وفروعه رغم قربه منها، والبيوت والقرى مبعثرة وسط تلك الحقول وجميعها تطلى باللون الأبيض وتسقف بالآجر الأحمر، وكان الجو جميلًا أميل إلى الدفء ويعمل النساء بكثرة في الحقول مع الرجال ويكثر توظيفهن في خط السكة الحديدية وعندما قارب الدانوب في بلدة «سرنافودة» اجتاز قنطرة هائلة في ثلاث قطع بينها بعض الجسور ومجموع طولها عشرة أميال لأنها تقام حول شعاب الطونة الكثيرة ومناقعه العديدة هناك والنهر وطيء هادئ متسع ويكاد يساوي النيل عرضًا، وكانت ترى مآذن المساجد بكثرة في القسم الأول من البلاد، وفي منتصف الساعة الثانية عشرة دخلنا …

(٤-١) بوخارست

عاصمة البلاد، وتسمى باريس الصغيرة لأن أحياءها الجديدة تشبه باريس، جوها متطرف قائظ في الصيف، جليدي في الشتاء؛ ولذلك تنزع العربات عجلاتها شتاء تأهبًا للزحف على الجليد. ولقد استعمر تلك البلاد تراجان إمبراطور الروم في القرن الثاني الميلادي؛ ولذلك لا يزال القوم يتكلمون لهجة رومانية رغم مضي سبعة عشر قرنًا، وهي منفصلة عن روما. وقد غالبت جميع الغزوات الأخرى وحافظت على لغتها، على أن الأتراك لم يخضعوا البلاد تمامًا، بل أقاموا عليها ولاة من قبلهم كانوا ينتخبون من رعاياهم من الإغريق.

وهؤلاء وشيعتهم كان لهم النفوذ الأكبر حتى إنهم لا يزالون المُلاك للمساحات الأرضية الكبيرة، ويمثلون الطبقة الأرستقراطية، وهم يترفعون عن العامة، ويتكلمون الفرنسية، وتطبع جرائدهم وكتبهم، وتمثل رواياتهم بالفرنسية. والطلبة اليوم يحتجون على ذلك بمرارة، ويسمون ذلك بالهوس الفرنسي Francomania.

وقد كان هؤلاء القوم أشبه برؤساء الإقطاع مذ تملكوا غالب الأراضي، على أن الفلاح بدأ يمتلك الأرض، وبدأت فوارق الطبقات تخف عن ذي قبل، ونسبة المزارعين ٨٠٪، ورغم ذلك فإن سكان المدن ينظرون إليهم نظرة احتقار. وقانون البلاد مقتبس من القانون



كاليا فكتوريا أكبر شوارع بوخارست، وهو دون شارع فؤاد الأول عندنا.

الفرنسي، ومعظم الشئون المالية في يد طائفة من الإسرائيليين يبلغ عددهم ٤٤٠٠٠، والأجراء من المزارعين يمقتون الأغنياء؛ لأنهم لا يمهرون إلا كراء زهيدًا.

وهذا الحيف دعا الحكومة إلى تعديل نظام الملكية بعد الحرب، فأخذت من الملكيات الكبيرة حتى التابعة للملك منها، ووزعتها قطعًا على صغار الفلاحين بعد تعويض أصحابها، وملابس القوم بسيطة في جمال وحسن ذوق يبدو في كثرة التطريز، وزهاء الألوان، وكل نسائهم مهرة في أشغال الإبرة التي تعد أحسنها في الدنيا، وفنهم خليط من البيزنطي والسلافي. والغذاء القومي لديهم من الذرة ويسمى «مامالجا»، وهو يحكي «العصيدة» عندنا. وأحب الشراب الجعة التي تستعمل لدرجة الإدمان.

وأعظم شوارع المدينة «كاليا فكتوريا» أو شارع النصر، تذكارًا لانتصارهم على الأتراك في بلفنا سنة ١٨٧٧، وبه القصر الملكي المتواضع، وبه عدة مبانٍ فاخرة. وكنائس المدينة عديدة تناهز المائتين، غالبها على المذهب الإغريقي، وهندستها قريبة للعربية. واسم

كارول شائع في كل المحال الهامة، خصوصًا متنزه كارول، وهو فسيح بديع التنسيق، به كثير من الرُّبى، وتتوسطه بحيرة شاسعة، وفي نهايته يقوم متحف للأسلحة القديمة.

وبالمتنزه مسجد كان القوم يصلون به الجمعة عند زيارتنا، وكان به نحو ثلاثين شخصًا يلبسون الطرابيش، وقد خطب الخطيب وصلَّى بالعربية، وعلمنا أن عدد المسلمين هناك ربع المليون، وبالمدينة كثير من المتنزهات الأخرى. بها المقاهي التي تسمع فيها الموسيقى الشجية التي تقرب أنغامها من الأنغام الشرقية، والقسم الحديث من المدينة منسق الأبنية، متسع الطرق، كثير الفلات.



فقراء الفلاحين والرعاة في مساكنهم الريفية برومانيا.

وأهله متأنقون يؤمون المقاهي بكثرة، وقد زرت هناك متحفًا للفن الجميل به مجموعة للتصوير لا بأس بها. أما الأحياء القديمة فتعوزها النظافة، ترصف طرقها بالحجر الأسود الصغير. وصادف أن كان القوم يعقدون محفلًا شبيهًا بالموالد عندنا،

وكانت طبقة العامة تبدو هناك في سذاجة وجهل وقذارة، يبيعون الشربات في أحواض زجاجية مكشوفة يعف عليها الذباب، كذلك اللب والسوداني والفشار الذي كان أظهر ما يتسلى به الفقراء، فخُيل إليَّ أني في حي تحت الربع تمامًا.

ويحيط بالمدينة سور من حصون أقيم سنة ١٨٨٥، وكلفهم أربعة ملايين من الجنيهات، لكن لم يغنِ عنهم في الحرب فتيلًا. ويشق المدينة نهر Dimbovitza فرع الدانوب، ماؤه قذر محمر تكسوه طبقة من الطحالب المنفرة، وعنده حي قذر ترى به البائعين يفترشون الأرض لعرض سلعهم، كذلك ترى الخدم بمكانسهم في انتظار من يستأجرهم. هذا واللغة السائدة هناك الألمانية، أما الإنجليزية والفرنسية فقليلة. ولقد كانت التجارة الألمانية رائجة في رومانيا وما جاورها قبل الحرب، وأخذت تعود لمجاريها الأولى.

هذا وقد لاقت رومانيا أحسن الجزاء في الحرب الكبرى، فأصبح سكانها سبعة عشر مليونًا بعد سبعة، أما أهل بوخارست فنحو ٣٥٠ ألفًا.

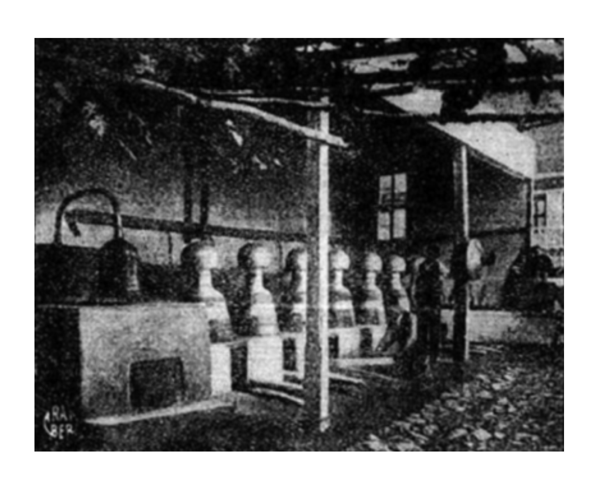
غادرت المدينة قاصدًا قرية جورجو في جنوبها، وتقع على الدانوب، وهناك حللت الباخرة أورانوس، من سفن الدانوب، قاصدًا القيام برحلة نهرية إلى بودابست، وكان تيار النهر هادئًا وماؤه وطيئًا كدرًا تشوبه حمرة، وكنا نرى بلاد بلغاريا على الجانب الآخر. وكانت السفن تقف بين آن وآخر على بلاد بلغاريا لنزول المسافرين، وكانت المناظر الطبيعية غنية جدًّا بأشجارها الكثيرة، وأرضها المدرجة في تقسيمات زراعية منسقة تدل على مهارتهم الفائقة في زراعة المنحدرات التي قد تميل جوانبها ٤٥°.

وكانت تبدو القرى مقامة على جانب النهر بأكواخها الصغيرة، وكان الشاطئ البلغاري أكثر تموجًا وجمالًا، مما يشعر بأن النهر سلك السفح الشمالي لجبال البلقان، فكانت المرتفعات تحف بالنهر من هذا الجانب، وكنا بين حين وآخر نلاقي البواخر تمخر عباب الماء في كثرة عجيبة، وترسو في محاط أعدت لذلك، وتصل إليها من البر الطرق الحديدية، مما يثبت مبلغ استفادة القوم من الدانوب في النقل، وكم كان أسفي شديدًا عندما ذكرت النيل المبارك الذي يفوق الدانوب طولًا وعرضًا، لكن وسائل النقل فيه لا تتمشى مع نهضتنا الاقتصادية!

ومن غريب ما يكون أن العلاقة بين شعوب رومانيا وبلغاريا المتجاورة متوترة، فقد كنت أعتقد أن الانتقال من شاطئ إلى آخر سهل ممكن، لكنني علمت أن القوم يمنعون ذلك، ويفرضون ضرائب فادحة لمعاكسة ذلك، رغم اشتراك مصالحهما في النهر. ومن مدن بلغاريا التي زرتها مدينة:

(٤-٢) لوم

وهي أشبه بمركز صغير من مصر، طرقها قذرة متربة، وأهلها تبدو عليهم سيماء الفاقة والتشرد، وبيوتها متناثرة بين الربى والوهاد، بها بعض المساجد المهملة، وقد قيل لنا: إن المسلمين هناك يرتادونها بسهولة.



طريقتهم الساذجة في استخراج عطر الورد.

وأمم البلغار شعب من التتار حلوا هذه البلاد أوائل العصر الميلادي، ثم أخضعهم الترك لحكمهم إلى سنة ١٨٧٨ حين انفصلوا وبقي للترك الإشراف الاسمي، ثم استقلوا وطردوا الأتراك وضموا الروملي الشرقي، وقد مثلوا بالباشا التركي أشنع تمثيل؛ إذ أركبوه حصانًا وأداروا وجهه إلى مؤخر الحصان وطافوا به المدينة مهللين محقرين، وقد دخلوا ضد الحلفاء في الحرب الكبرى طمعًا في الغنائم من رومانيا، لكن خاب فألهم وفقدوا جنوب دبروجة التي ضمت لرومانيا، وتراقيا الغربية وأخذها الإغريق، ونزل سكانهم من ٧½ ملايين إلى خمسة.

والقوم متأخرون جدًّا، أكبر مواردهم الورد ذو الروائح التي يشتمها المرء على بعد أميال، ومنه يستخرجون زيت الورد الذي أصبح العنصر الرئيسي لغالب الأعطار العالمية، وهو يساوي وزنه ذهبًا، ويقطفه الفتيات من أغنى جهاته، وهي حدائق كازانلك بالروملي

الشرقي وممر شبكا على سفوح جبال البلقان، بفضل التربة الرملية والجو المشمس، ولا بد من تقطيره يوم قطافه، وقد قدر للأوقية الواحدة من العطر ستون ألف زهرة.

(٣-٤) الباب الحديدي

بعد أن بدت سواحل يوجوسلافيا بقليل دخل النهر في عقدة من الجبال الغنية بنبتها وشجرها، وأخذ النهر يتلوى ويختنق، وتياره يشتد، وقد أقام القوم جسرًا من حجر أصم وسط منعطف النهر، وحطموا جزءه الواقع بين الجسر وساحل يوجوسلافيا، وأخلوه من جنادله، فأضحى صالحًا للملاحة، وفي اتساع قناة السويس تقريبًا. أما الجانب الآخر فظل بجنادله ودواماته ومنحدراته، وبعد نهاية الجسر بقليل ظهرت جزيرة مستطيلة وسط المجرى تكسوها الغابات، وتقام فيها البيوت الصغيرة، واسمها «جزيرة أكادالي»، وبها مسجد بمئذنة دقيقة.



الباب الحديدي وجباله العاتية.

وتلك كانت في قبضة الأتراك، واليوم تحت لواء رومانيا، ولا يزال أهلها مسلمين، وبعدها بقليل رست الباخرة على أرشوفا، آخر مدن رومانيا على النهر، وكانت قبل الحرب

تحت حكم النمسا، ولا شك أن هذا المكان ساحر في جماله، وتنوع مناظره، وتعقيد جباله ولفائفه، ومناعة موقعه. مكان أثار في النفس شجونًا كثيرة، وذكريات خالدة، بدأ النهر يدخل في ثنيات بين الربى الشاهقة سريعة الانحدار يكسوه النبتُ المنزرعُ إذا سهل المنحدر نوعًا، والبريُّ فوق المزالق السريعة.



وسط الباب الحديدي بالدانوب.

وبين آونة وأخرى كانت تبدو في النهر مجاميع الجنادل في جهات تجتنبها السفن بعلامات أقيمت لها وسط الماء، وفي بعضها كانت دوامات النهر قاسية عاتية، وصخور الجوانب تسير في طبقات ملتوية التواء شديدًا تهوي تحت اليم، ثم تبدو ثانية على الجانب الآخر؛ مما يُشعر بأن هبوطًا عظيمًا حدث في سلسلة جبال ترنسلفانيا هنا، فسلك النهر طريقه وسطها، ولا يزال يدأب على الجرف من جوانبه بنشاط غريب، يدل على ذلك أثر طريق قديم عبَّده «تراجان» الروماني على حافة الماء، ولم يبق منه اليوم إلا جدار نقش عليه اسم ذاك العاهل، وقيل: إن الدانوب كان يصب في بحيرة أو بحر داخلي حوضه اليوم سهل المجر، وذلك قبل أن يهوي جانب الكربات، ويمكنه من السير إلى البحر الأسود.



بلغراد وهي تمتد على الدانوب.

أما مناظر ذاك الخانق فساحرة تأخذ بالألباب، فهي تمت إلى مناظر سويسرا بشبه قريب إن لم تفقها، ولا يعدلها جمالًا غير منظر البسفور وما يحوطه من جلال، وقد لبثت السفينة تسير في ثنياته ثماني ساعات، وبعدها انفرج النهر وتباعدت الجبال سراعًا. وهنا أخرنا ساعاتنا ساعة كاملة لنسير مع زمن أوروبا المتوسط الذي يتأخر عن ساعة مصر؛ لأنه يقع غربها بنحو ١٥° طولية، هذا عند نهاية حدود بلغاريا.

على أن الجانب الآخر من النهر، وهو روماني ظل على زمنه الشرقي حتى اجتزنا حدود رومانيا؛ ذلك لأن رومانيا تمتد على طول النهر أكثر من امتداد بلغاريا. هذا ومواسم الزراعة في تلك البلاد جميعها الربيع؛ حيث ينزل أكثر المطر، وتزرع الغلات، خصوصًا القمح والذرة، وبعد الحصاد تترك الأرض للسنة القابلة، ثم يعيدون زراعة غلة أخرى، وهناك نوع من القمح يزرع في الخريف.

فإذا ما هلَّ الشتاء نزل الثلج وكسا الأرض إلى علو قد يبلغ المتر، فيحمي النبات من البرد القارس الذي ينزل بالحرارة عشرات تحت الصفر، وإذا كان الربيع ذابت الثلوج فارتوى النبات ونما عاجلًا. وكنا نرى بواخر عديدة ليوجوسلافيا. وتلك البلاد على نفور وعداء مع جارتها بلغاريا أيضًا، وهي تحرم على أبنائها السفر في غير بواخرها لتساعد شركاتها الملاحية.

(٥) يوجوسلافيا

أقبلنا على بلغراد عاصمة يوجوسلافيا التي تمتد طويلًا على النهر، وعندها يصل نهر الساف أباه الطونة. والمدينة يعوزها الشيء الكثير من النظافة والتنسيق، فغالب ميادينها قذر مترب، وأهلها كذلك قذرون فقراء، وأجمل جهاتها الجزء المقام على النهر، واسم المدينة أجمل منها؛ إذ يسميها القوم بيوجراد، ومعناها القلعة البيضاء. ولقد تخلفت فيها عند عودتي فلم يرقني بها شيء، وأخذت القطار إلى نيش التي وصلتها في ست ساعات، فبدت حقيرة منفرة في كل شيء.

هذا وبلاد يوجوسلافيا تضخمت بعد الحرب جدًّا، وناهز سكانها اثني عشر مليونًا بعد أن كانت قاصرة على حدود الصرب التي لا يزيد أهلها على خمسة ملايين. والصرب تعرف بجنة الفقير؛ لأنه يمون فيها نفسه بكل لوازمه بغير حاجة إلى النقود إلا بقدر ما يدفع الضرائب. والقوم يعيشون جماعات قد تبلغ الواحدة المائة عدًّا، يخضعون لزعيم واحد يضع لهم نظام المعيشة، ويتدخل في كل تفاصيلها.

وقد يمتد البيت فيشغل حيًّا بأكمله، ويتعاون الفلاحون بوساطة لجنة اسمها Moba تؤلف من الجيران الذين يخدمون بدون أجر. ومن عاداتهم الغريبة أن يعلقوا دمية على النافذة من الداخل ليراها المارة فتدلهم على وجود آنسة ترغب في الزواج، كذلك يعلق الجميع سنابل القمح على المنازل، فإن سرقت عُدَّ ذلك فألًا بقرب زواجها، وعندهم من أمثال تلك الخرافات كثير كأن تشوى الضفادع والجعلان فيأكلها الطفل المريض ليبرأ من علته، وكلهم يعتقدون أن الأطفال يطيرون ليلًا لامتصاص الدماء من غيرهم وما إلى ذلك.

وقد ضُمَّ لأملاكهم «الجبل الأسود» الذي كان مستقلًّا من قبل، ويعرف أهله بالقوام الشامخ والسحن التي تشبه قدماء الرومان تمامًا، وتكاد تقتصر صادرات البلاد جميعها على الفاكهة بأنواعها والأخشاب.

غادرنا بيوجراد وكانت سهول المجر تبدو إلى يميننا في انبساط إلى الأفق، لذلك أصبح المنظر موحدًا مملًّا، وأخيرًا تعددت الجزائر والغدران وبدت الأشجار ومقاطع الخشب، وكانت ترص على الضفاف هدارات مائية تحكي العوامات تتوسطها عجلة ذات أجنحة يديرها التيار فتطحن الغلال. وفي الساعة الثانية مساء، استهلت بودابست عاصمة بلاد المجر بمداخنها العديدة وقصورها الشامخة وامتدادها العظيم على جانبي النهر. إلى اليمين «بست» المدينة الجديدة المنبسطة، وإلى اليسار «بودا» القديمة ذات التلال العديدة، ويخترق النهر هنا نحو سبع من القناطر الجذابة.

(٦) المجر

بلاد تشبه في نظامها الاجتماعي بلاد القرون الوسطى؛ فقد كانت إلى سنة ١٨٤٨ تحت حكم الأشراف أصحاب الأرض الذين يسخرون العامة في فلحها وفي خدمتهم نظير إعفائهم من الضرائب، ونحو أربعة أخماسهم يعملون في الحقول، وهم في الصناعة أقل نشاطًا واستعدادًا من جيرانهم النمساويين، وغالب تجارتهم وأموالهم في أيدي طائفة من الإسرائيليين يناهزون الخمسة في المائة من المجموع، وهم مبغضون من طبقة الشعب، لكنهم أكثر الطبقات علمًا، فغالب الأطباء والمحامين والمهندسين من بينهم.

وفي بودابست عدد عظيم من اليهود، ولذلك يلقبها بعضهم Judapest؛ لذلك ليس بعجيب أن تباح المقامرة وتصبح موردًا هامًّا حتى في الاكتتابات للمنشآت الخيرية والدينية. والمجريُّ مرح خفيف الروح رقيق العواطف، ومن ثم كانت شهرته في الموسيقى. وهو ساذج الطبع، كريم، نظيف حتى إنه يعد فرضًا مقدسًا عليه أن يغسل فمه بالسواك مرتين في اليوم، ويعنى بتطبيق ملابسه بنفسه قبل النوم، فهو في ذلك شبيه بالفنلندي الذي يمت إليه بصلة القرابة؛ إذ إن المجري آسيوي الأصل وفد إلى تلك البقعة سنة ٨٩٥، ويؤيد صلته بالمغول انحراف عيونه، وبروز خديه، ولغته المغولية.

ولذلك كانت المجر أشبه بواحة آسيوية وسط أوروبا، ولا يزال بينهم كثير من الرعاة المعروفين بالمهارة في ركوب الخيل التي جلبوها معهم من آسيا، والتي أكسبتهم من الفروسية ما فاقوا بها «كاوبويز أمريكا»، وتسمى فرسانهم شيكوز Chikos. وتسترعي النظر كثرة الخيول في البراري الجافة عندهم؛ فقد يبلغ القطيع الواحد سبعمائة. ونساؤهم ذوات سحن جميلة للغاية، وهن مهرة في التطريز. وعادة تقبيل أيدي النساء شائعة بينهم جميعًا، فالرجل ينحني على يد السيدة يقبلها إذا بدأها السلام.



«الشيكو» رعاة المجر يروضون الخيل الجامحة.

(٦-١) بودابست

ما شعرت بالاستمتاع الكامل لما كنت أرى من تنسيق، وخفة روح، وحسن ذوق، ولين معاملة قدر ما أحسسته هنا، فهي بحق تسمى «ملكة الدانوب». ويسترعي النظر فيها بوجه خاص كثرة ميادينها ذات المتنزهات والتماثيل، وكذلك تعدد قناطرها ذات المنظر الجذاب فوق الدانوب، وبخاصة قنطرة إليصابات، قلبها النابض شارع أندرسي أوت، وفيه تبلغ حركة المرور حدًّا مخيفًا.

ونظام البوليس على رءوس شوارعها الهامة دقيق للغاية، فهو لا يسمح لأحد أن يسير أسفل إطار الطريق، ولا يعبر الشارع إلا في مكان معين، وعلى رءوس الطرق يحاط الإطار بسياج من سلاسل محكمة القفل، وسير العربات إلى اليسار والمارة إلى اليمين.

وفي قبالة قنطرة إليصابات ربوة بودا الشاهقة، صعدناها بطرق متلوية بين الشجر والنبت، ويقوم في أعلاها تمثال سان جيرار، وقلعة كبيرة هي أقدم بناء في المدينة، وإلى جوارها كنيسة التتويج التي توج فيها فرنسوا جوزيف، في هندسة قوطية مظلمة الداخل



عند قنطرة «إليصابات» بين بودا القديمة إلى اليسار و«بست» الحديثة إلى اليمين.

يتخللها قبس ضئيل من النور ينفذ من زجاج نوافذها النحيلة بألوانه المتعددة، وأمامها ردهة يقوم فيها بعض تماثيل القديسين، ويحف بها سور تقوم أركانه في شكل الطوابي، وتنزل منها المدرجات إلى متنزه جميل يقوم به تمثال لهنياد المجري الذي طرد الأتراك وهو يرتدي لباس الفروسية بدروعه، ويقف وبيده حسامه وقد وطئ بقدميه علمين للأتراك، وكان الأتراك عند فتحهم المدينة قد حوَّلوها إلى مسجد.

ومن أبنية بودا الجديرة بالزيارة: القصر الملكي الكبير الذي يشرف على النهر، دخلته فتجلت فيه عظمة الملك حقًّا في امتداد أبهائه، والإسراف في زخرفه، وحجراته ٨٦٠. وقد بدأ المجر تشييده يوم أن حلوا تلك البلاد من آسيا، لكن الأتراك دمروه تمامًا، ومكثوا يحكمون البلاد ١٤٥ سنة، ثم طردوا، ومن العجب أنهم لم يتركوا بالبلاد أثرًا لا في البناء ولا في الدين؛ مما يدل على سوء إدارتهم، خصوصًا وأن القوم كانوا وثنيين ولم يعتنقوا المسيحية إلا قريبًا.

وقد جدد القصر بشكله الحالي عهد مرياتريزا، ومن الصور الزيتية الكبيرة التي تزين بعض الجدران صورة ليوجين سافوي، وقد هزم الأتراك وكبلهم، وأخرى لفرنسوا جوزيف، إمبراطور النمسا، وهو يتوج ملكًا على المجر. وهذا تذكار لبدء العهد البرلماني، ثم صورة أخرى لفرنسوا في رداء «الهوسار»، والكلمة مجرية معناها «العشرون» أخذت من أن الجندي الذي يقع ترتيبه في صف المجاهدين العشرين كان يعفى من القتال ليؤلف فرقة الحرس الملكي.

ومن آيات فن التصوير لوحة بها منظر طبيعي لطريق يقف وسطه فارس يمتطي جوادًا، فإذا نظرت إلى الصورة من اليمين امتد الطريق إلى اليسار، وكان الفارس متجهًا كذلك، والعكس إذا نظرته من اليسار، ويواجه القصر من الجانب الآخر للنهر: البرلمان، ولعله أفخم مباني المدينة من الخارج، يشرف بأبراجه وأسنانه الباسقة المتعددة وقبابه الخضراء الجذابة، ومن الداخل يبدو بنقوشه وزخرفه الفائق، فهو في مجموعه أبدع إتقانًا من برلمان لندن.

ولا يزيد عدد أعضاء المجلس الأدنى عن أعضاء المجلس الأعلى كثيرًا؛ مما يشعر أن للأشراف أثرًا كبيرًا في البلاد، ويمثل به رجال الدين من الكاثوليك والبروتستانت واليهود. والميادين حوله منسقة تنسيقًا عظيمًا، فسيحة الرحاب جدًّا. وهناك أقيم نصب تذكاري احتجاجًا على معاهدة الصلح، وبه أشخاص يمثلون هيئات المجر، وهم غضاب نافرون في مظهر مخيف احتجاجًا على حرمانهم من كثير من أرضهم، وكذلك احتجاجًا على نفي مليكهم شارل الرابع وعائلته إلى جزائر «مديرا».

وكان قد فر بعد دخول البلشفيك، ثم حاول العودة مرتين، لكنه أرغم على الانسحاب بتهديد من يوجوسلافيا وشيكوسلفاكيا. وقد مات شارل ولا يزال ابنه «أتو» منفيًّا في الجزيرة، ويطالب الشعب بعودته ملكًا. وقد رفضوا الجمهورية وعينوا نائبًا عن الملك إلى أن يتمكنوا من فك عقال هذا. وقد لبثت البلاد تحت حكم البلشفيك ١٢٤ يومًا بزعامة



بودابست: دار البرلمان الفاخرة على الدانوب.

إسرائيلي اسمه كوهين، على أن مجلس الأمة اجتمع في هيئة واحدة ورفض الاعتراف بالبلشفية، وأباح الاشتراكية فحسب.

ومن المتنزهات الرائعة جزيرة مرجريت إلى شمال المدينة، وهي مجموعة حدائق منسقة تقام بها الأنزال الفاخرة، والحمامات البديعة، والبرك المعدة للرياضة، يؤمها القوم عند الأصيل طلبًا للراحة والهواء البليل، وتصلها ببودابست قنطرة بثلاث شعاب، ومن متاحفها القيمة المتحف الفني، وتعرض به آيات التصوير القديم والحديث التي تثبت أن المجر ليست أقل عناية بالفن من كبريات دول أوروبا.

أما المتحف الزراعي فحدِّث عن عظمته، فهو حقًّا معدوم النظير في العالم كله، معروضاته غنية وقيمة للغاية، ترى به خرائط زراعية لمناطق الزراعة وللغلات نفسها مفصلة، كذلك أنواع الأسمدة المختلفة والعناصر المعدنية التي تتألف منها تربة بلادهم. وأهم الأقسام قسم الغلات نفسها تعرض في نماذج وافية في سنابلها وكيزانها وأغصانها. وتبدو الجذور نامية في سوائل داخل أسطوانات غليظة من زجاج. ومدهش أن ترى طول

جذور بعضها فوق المتر، وسمك مجموع الجذيرات قدم، وبخاصة القمح والأرز، وجذور الكروم تمتد نحو أربعة أمتار.

كذلك ترى نماذج لطرق الحرث والري وللآلات نفسها، ووسائل تبخير الشجر، ثم ترى بعض الغلات معروضة في أحجام تسترعي النظر، فقرن الفول طوله شبر ونصف، والقرع العسلي قطره ذراع، والكمثرى في حجم الشمام، والتفاح في حجم البطيخ، والجوز في حجم كرة التنس، كذلك ترى آفات جميع النباتات في مختلف أطوارها، ونماذج كاملة للقرى والزرابي والمزارع والمعامل، وبعضها يشغل بهوًا بأكمله. وفي الطابق الأعلى تعرض كافة حيوانات البلاد محنطة، وأظهرها الخيول التي خُصص لها بهو كامل، ثم البقر والخراف والدجاج التي تبلغ الواحدة حجم الديك الرومي، والأوز والحمام والدجاج الرومي والأرانب، ثم دود القز وتربيته، وجمع الحرير وإعداده.

وقد علمت أن جلالة الملك قد زار هذا المتحف، وسُرَّ به كثيرًا، ويعتزم إقامة مثله في مصر، وقد عرضت حكومتنا أن ينتدب مديره لإدارة متحفنا عند إكماله مقابل مرتب قدره ١٥٠٠ جنيه في العام، وهو الآن نزيل مصر. والحق أنه أجدر بنا أن نقيم متحفًا كهذا يخدم الزراعة ولا تزال أكبر مواردنا. ويطبع القوم مجلدات زراعية قيمة بمختلف اللغات، ويوزع غالبها مجانًا. وقد قابلت وكيل المتحف وحدثته بشأن مصر وشئونها الزراعية طويلًا، وقدم إليَّ مجلدًا بالإنجليزية لمختلف غلات الدنيا.

وقد لاحظت أنهم يكثرون من طبع الخرائط لبلادهم بحدودها الطبيعية الكاملة، ويعرضونها في كل مكان، مظهرين للعالم مقدار الحيف الذي حل بهم في معاهدة الصلح، ويزعمون أن شعوبهم تشمل ٢١ مليونًا من الأنفس ولم يُعط لهم في المعاهدة إلا ثمانية، وتلك الأجزاء ضمت لرومانيا وشيكوسلفاكيا والنمسا وإيطاليا ويوجوسلافيا، وهم ينشرون الدعاية ضد هذا التقسيم تحت عنوان مأساة هنجاريا.

(٧) النمسا

البلاد الجديرة بالعطف: غادرت بودابست منتصف التاسعة صباحًا قاصدًا فيينا حاضرة، النمسا، تلك البلاد التي تتمثل في أهلها الجاذبية ورقة الحاشية إلى كفاية في الأعمال، فهم دائمًا باشون رغم جهدهم اليوم في الحصول على الرزق، عكس ما تراه في الألماني الذي يبدو لأول وهلة مقطب الوجه؛ فالنمساوي قلما يغضب لشيء، وهو مثقف مذ كان التعليم يقصر عليه دون زملائه من الجنس السلافي؛ ذلك لأن النمسا كانت تحتقر أتباعها من

غير الجنس الجرماني، وهذا سبب تمرد تلك الأجناس عليها وانسلاخهم منها بعد الحرب الكبرى.

وصلت فيينا منتصف الساعة الثانية مساءً، فبدت من المدائن الفاخرة بمبانيها الضخمة وطرقها الفسيحة ومتنزهاتها الجذابة، وبخاصة على طريق «الرنج» الذي يطوقها، ويحصر داخله فيينا القديمة، وهو أفسح طرق الدنيا تحفه أشجار وارفة مزدوجة، ومن أفخر مبانيه:

(٧-١) البرلمان

ومدخله ذو شعبتين تؤديان إلى البهو الأوسط، وعلى جانبيه سلَّمان يؤديان إلى الطابق الأول، وفيه ردهة فخمة على النمط الإغريقي أعدت لفسحة الأعضاء، ثم دار المجلس الأدنى، وبه ٥١٢ مقعدًا لأعضاء الولايات التي كانت خاضعة للنمسا قبل الحرب، وقد نزل العدد اليوم إلى ١٦٥؛ لذلك أصبحت هذه الغرفة لا تتناسب مع عددهم القليل، فأعدوا لهم غرفة أصغر منها، وتركت هذه بأثاثها القديم، وفي الجانب الآخر: المجلس الأعلى، وقد نزل عدد أعضائه من ٢٤٢ إلى ٥٠، وهناك صالة للجنة المالية تزين جدرانها صور زيتية لفرنسوا جوزيف ووزرائه، ثم جميع أعضاء البرلمان. والبناء فخم يُكسى داخله بالرخام الذي جيء به من غاليسيا وتزينه النقوش الفاخرة.

زرنا بعد ذلك متحف الآثار والفنون، ومن آثاره القيمة: القسم المصري والإغريقي والروماني، وحجرات كل قسم تقوم في هندسة البلاد نفسها، وفي الدور الأعلى معرض التصوير، ومررت على دار الاستشارة بأبراجه الباسقة، وبجانبه الجامعة التي دخلتها وطفت بأرجائها، وكانت حركة الطلبة من الجنسين ناشطة، وبخاصة في المكتبة الفسيحة التي كانت تغص بالطلاب وهم منكبون على درسهم، ومنظرها الخارجي يمثل عظمة العلم وخلوده.

ثم قصدت متحف التاريخ الطبيعي، وبه مجموعة غنية جدًّا؛ ففي قسم الجيولوجيا قطع لا حصر لها من بلورات يزيد طول الواحدة على المتر، وبخاصة الكوارتز والجبس، وكتل من ذهب خالص في طول ذراع غالبها من أستراليا وآرال، وأخرى من معادن غفل والداليات والصاعدات «ستلكتيت وستلجميت»، وكتل من ملح يزن بعضها ٢٢٤٠ كيلوجرام، والبعض ١٦٨٠ في مكعبات أو مسلات، وحصى غليظ شق وسطه فبدا منقوشًا في تجزيع طبيعي مدهش. وأنواع الرخام الغفل والمصقول من مناجم غاليسيا بألوانه



«الرنج» أفسح طرق الدنيا تشرف عليه دار البرلمان في فيينا.

العجيبة، وخشب متحجر قد يبلغ طول الشجرة ثلاثة أمتار، وحفريات لأوراق الشجر مطبوع على الصخر أو على الفحم بأشكال عدة، وقطع من ورق الشجر المتحجر ينفذ منها الضوء فتظهر تفاصيلها جلية، ويرى الذباب وهو مطبوع عليها.

وبه قسم للحيوانات البائدة التي قد يشغل الواحد منها الفناء بأكمله، ثم آلات العصر الحجري والحديدي، وهياكل الإنسان في مختلف العصور، وجماجمه من مختلف القارات والأزمان، وبناء المتحف فخم للغاية، ويعلق بندول فوكولت في قبة البناء لإثبات دورة الأرض حول محورها أمام الزائرين.

ومن المتنزهات القيمة في المدينة Prater، يشبه الغابة بكثرة أشجاره، وبه مجموعة من الطرق المعبدة والمقاهي والمراقص ودور الموسيقى، فهو مكان تسلية عام، وفي جانب كبير منه دور للألعاب على اختلاف أنواعها من أراجيح وقاطرات ودور للملاهي لا حصر لها. وهذا المكان يظهر مبلغ ميل الشعب النمساوي للهو والمرح، رغم ما حل به من نكبات الحرب ومعقباتها القاسية.

(٧-٢) قصر شوينبرن

مسكن مريا تريزا الأنيق، تمتد من حوله المتنزهات، وقد شذب شجرها في شكل بوابات وأقواس، وفي الأرض بدائع الزهور، ولفائف الطرق تمتد في كل جانب من القصر إلى قصارى مسارح النظر، والنافورات والبحيرات تترامى أمام القصر. دخلناه فبدا فاخرًا به مجموعة من مخطوطات مريا تريزا بتوقيعها، وكرسي العرش، وحجرة الطعام وقد مد السماط بكامل أدواته.

وتزين جوانب الحجرات الصور الزيتية التي تمثل الحروب والحفلات، كذلك تُعرض به مجموعة من جواهرها وأسلحتها ونياشينها وبعض الأعلام التي كسبتها في الحروب. أما الأثاث ففخم للغاية، وعلى أشكال منوعة، أجملها حجرة النوم وسماط للشاي بأوانيه من الذهب الخالص، كذلك بيانوها ذو الطبقتين، وبجانبه مجموعة من النوتات الموسيقية لموزار وغيره.



شوينبرن قصر ماريا تريزيا في فيينا.

أما الحجرات نفسها فيأخذ نقشها بالأبصار، فمن خشب مطعم بالذهب الخالص في إسراف شديد، وقماش يغطي الجدران وقد وُشِّي بالألوان الخلابة، فهو حقًّا قصر لائق بعظمة الملوك الخالدين، رغم أن الملك شارل، آخر ملوك النمسا، قد وقَّع صك اعتزاله الملك في إحدى تلك الحجرات الفاخرة التي بلغت نفقاتها أربعين ألف جنيه.

وفي المساء دخلت الأوبرا، وكانت تمثل رواية Boheme الغجرية، فبدت الدار في جلال واتساع يضم ٢٢٦٠ نفسًا، ألواجها أربع طبقات فوقها مدرج فاخر لأعلى التياترو، ومشاهد التمثيل كانت رائعة، أعجبني منها منظران: منظر حانة الرقص غصت بالغجر، ومنظر المساكن وسط الليل وقد هطل الثلج عليها في رهبة موحشة، كذلك لا أنسى فرقة الموسيقى التي كانت تفوق المائة عدًّا.

يعجب المرء إذ يرى كل تلك العظمة في بلد يضم أكثر من ثلث سكان مملكة كان مُلكها يمتد إلى الآفاق، فكيف يمكن لماليتهم الصغيرة الآن أن تسد تلك النفقات، وتقيم تلك المظاهر. حقًّا إن موقف النمسا ليبعث الشجون ويثير العطف على ذاك الشعب الرقيق الذي أضحى مُثْقَلًا بالديون الأهلية والأجنبية، حتى إن الحكومة تلجأ إلى فرض الضرائب الباهظة على الدخل تلك التي قد تبلغ خمسين في المائة، وبخاصة على الأغنياء أمثال رتشلد، خصوصًا بعد أن انحط إنتاجها الصناعي الكبير، واندفع المتعلمون إلى طلب الوظائف الحكومية التي أخذت تضج من كثرتهم — تشبه مصر في ذلك.

والمدينة آخذة في الاحتضار، إلا إذا قام ائتلاف بين صغار الدول من حولها واعتبروها مركزًا لهم، وإلا أضحت أثرًا بعد عين، وحل بها ما حل بطيبة ونينوى وبابل؛ ولذلك ليس بعجيب أن يؤيد فكرة انضمامهم لألمانيا عدد كبير منهم.

ويحيط بالمدينة مجموعة من الضواحي التي يستهوي جمالها الزائرين من بينها:

(٧-٣) كوبنزل Cobenzl

التي تعلو فيينا بنحو ١٢٠٠ قدم، وتقع إلى جنوبها، والطريق إليها كثير الرُّبَى تكسوها الكروم التي زادت شهرة الإقليم في النبيذ، ولياته من الأعاجيب، وكنا كلما علونا كشفنا مناظر فيينا ومن حولنا الربى تكسوها الغابات، وفي نهاية الطريق نُزُلٌ فاخر أعد للمقام الهانئ والمتاع الكامل.

(٧-٤) سمرنج

ولعله أجمل ضواحيها الجديرة بالزيارة. ظل القطار يسير بنا ثلاث ساعات ونصف وهو يجوز مناظر ريفية هادئة التغضن، ومررنا في الطريق على بادن وعلى راكس؛ حيث بدأت الجبال، ودخل القطار في أنفاق لا عد لها، وهي في مجموعها تُكوِّن نفق سمرنج الذي يصل النمسا بإيطاليا عن طريق فيرونا، وكانت تُرى القرى في بطون الأودية من دوننا، وتنتثر بيوتها الصغيرة على جوانب المنحدرات.

وأخيرًا وصلنا مدينة سمرنج، وهي مصطاف جميل لا يسأم المرء المقام فيها قط، تكثر من حولها الطرق الجبلية الملتوية ذات المقاعد المنثورة، وهي على ارتفاع ألف متر، وبعد أن أمضيت فيها زمنًا رجعت إلى ثلث الطريق؛ حيث أخذت ترامًا إلى راكس، وهي المدينة التي تحيط بها مجموعة ذرى تُكوِّن جبال Rax Alpes، وهي تماثل سمرنج، وفي نهاية الترام أقام القوم ترامًا آخر هوائيًّا يصعد على أسلاك معلقة إلى قمة مشرفة تكشف منظر القمم الأخرى جميعها في مشهد يأخذ بالألباب.

ركبنا تلك العربة المعلقة، وقد وسعت عشرين نفسًا، وأخذت تصعد بنا وكانت تنضمر المدينة من تحتنا تدريجًا وتكشف مدن الأودية الأخرى، حتى وصلنا القمة بعد نصف ساعة وكأننا طائرون في الهواء. ولا أستطيع أن أصف مشاهد الطبيعة التي تجلت أمامنا من تلك القمم، فالغابات إلى مد البصر، والصخر لا يخلو في مكان من النبت، وغدران المياه تنزل إلى بطون الأودية في خرير جذاب، والسحب تبدو وتجلو، وخلالها تستبين الشمس تارة في قوة، وأخرى في فتور، وقد طال تجوالي في تلك الربى، ولولا ضيق الوقت لرغبت عن النزول.

(٧-٥) بادن

ومن ضواحي فيينا التي لا يصح إغفالها بادن، التي وصلناها بترام كهربائي وعربة أمنيبوس، فألفيناها جنة تزينها حماماتها العديدة، وهي تَغُصُّ بحدائقها ومقاهيها وأنزالها، ومن حولها التلال العالية يكسوها الشجر، وعلى جوانبها شقت الطرق المختنقة تصفُّ بها المقاعد والمناضد يجلس عليها من أراد، وهي شبيهة بإكس لبان، تلائم الحياة الهادئة التي لا تقبل انتقالًا إلا بين ثنيات التلال بجوارها، وعلى مقربة منها زرنا «لكسمبرج»، وهي متنزه كأنه الغابة كثيرة القنوات والبحيرات، وبها قصر على نظام



أمام مدخل نفق «سمرنج» بالنمسا.

قلاع القرون الوسطى أقيم وسط جزيرة — وقد دخلته — وهو يحوي جانبًا من الآثار القديمة والصور الزيتية، وبه بعض الأبهاء والحجرات فاخرة النقش.

ويدهشني من أولئكم القوم عنايتهم بأماكن النزهة لهم ولأبنائهم، من إقامة الفنادق، وتعبيد الطرق، وتيسير سبل الاتصال، وتوفير أسباب الراحة حتى فوق تلك الجبال النائية. وقد بلغ بهم غرامهم بالطبيعة أنهم لا ينفكون يرتحلون كلما أتاح لهم وقتهم ذلك، والكل يرتدون ملابس الرحلات في شيء كبير من التقشف، ويحملون وراء ظهورهم جعبًا كبيرة، وفي أيديهم العصي، وهم يتسابقون في الصعود والركض رجالًا ونساء وأطفالًا، شيوخًا وشبانًا.

ويخيل إليَّ أن هذا نظام شبيه بالكشافة العسكرية أو بنظام الفاشيست الإيطالي، والإقبال عليه شائع بين الجميع. هذا والاختلاف إلى المتنزهات التي تملأ الميادين كلها مقدس لديهم حتى وقت الظهيرة، حين ترى الأطفال مع مربياتهم وأمهاتهم يمرحون في تلك الحدائق وقد زود بعضها بالحمامات — أعدت للصغار — ويغلب أن توجد مقصورة في



الترام الهوائي يناطح السحاب في صعوده إلى ذرى جبال راكس بالنمسا.

الحديقة لأجهزة الاختبارات الجوية، وترى الكل حتى الصبية والرعاع يرقبونها ويتفهمون منها حالة الجو المنتظرة.

(٧-٦) سالزبرج

وصلتها في أول سبتمبر في عودتي من ميونخ، وكانت مناظر الطريق سهولًا، ثم ما لبثت أن أخذت الربى تبدو وتتزايد حتى دخلنا المدينة بعد ساعتين ونصف، وهي في وهدة بين القمم التي تكسوها الغابات، وتسيل على جوانبها الغدران. وأول ما زرنا بها: مناجم الملح الشهيرة في إحدى ضواحيها الداخلة في الحدود الألمانية، وتبعد عنها بساعة ونصف في الترام. وهنا ألبسنا الحراس أردية خاصة تشبه أردية السجون عندنا.



تقودنا تلك الجرارة الكهربائية في سراديب مناجم الملح بسالزبرج.

وركبنا جرارة كهربائية مستطيلة أوغلت بنا في سراديب لا حصر لها كأنها السربيوم في سقارة ذات شعاب متعددة، وفي طوابق مختلفة، صعدنا بعضها بالدرج، وهبطنا البعض بالانزلاق الذي يبلغ أحياناً خمسة وعشرين متراً، وكنا بين آن وآخر نرى تجاويف شاسعة في الصخر عند أمكنة استخراج المعدن، وفي كل تجويف يعرض القوم نماذج من الملح مختلف اللون في شكل مصابيح زجاجها من الملح.

ومن التجاويف ما يملؤه الماء في بحيرات أكبرها خمسون متراً. جُبنا أطرافها في زوارق، والكل يضاء بالثريات الكهربائية، وكانت درجة الحرارة داخل المنجم منخفضة إلى حد يشبه الجليد، وعلو بعض نواحي المناجم يناهز ثلاثة آلاف المتر. والحق أن الإنسان ليدهش لمجهود هؤلاء الجبابرة من الألمان؛ لعظيم المشقة التي لاقوها في إنجاز عمل خطير الشأن كهذا. وقد لبثت داخل المنجم نحو ساعة.

قمت بجولة استعرضت فيها كل مدينة سالزبرج الظريفة التي تقع على جانبي نهر Salsach، وهو يتلوى بلونه المخضر وتياره السريع تعبره القناطر المعلقة الرشيقة، وقسمُ



سالزبرج يشقها نهر سالزاك بلفائفه العجيبة.

المدينة القديم يقع إلى يساره، وطرقه مختنقة جدًّا غاصة بالحركة من الزائرين، وبها جملة كنائس فاخرة وقصور لبعض الأرشدوقات مثل Mirabell ودار الحكومة.

وأجمل ما راقني كثيرًا موطن موزار الموسيقي الشهير، فله هناك بيتان: أحدهما ولد به، والثاني كان يقطنه، وفي أحدهما تقيم الحكومة متحفًا باسمه تعرض به مخلفاته، وله ميدان يقوم فيه تمثاله، وقنطرة تتوج باسمه، فهو خير من أنجبته المدينة.

وتشرف على المدينة قلعة قديمة ضخمة على علو ٥٦٠ مترًا تسلقناها بترام كهربائي، فتجلى منظر المدينة تعانقها الربى من حولها، ويجري من تحتها النهر الثعباني، فكان المنظر فذًّا فاتنًا؛ ولذلك لم أعجب لما علمت أن بعض الشعراء قد عدها ثالثة مدن العالم جمالًا، فالمدينة مصطاف غني بمناظره الخلابة وأنزاله الفاخرة.

(٨) شيكوسلفاكيا

مثال التضحية والثبات: غادرت فيينا، عاصمة النمسا، فكنا نسير في مروج وغابات تكسو الأرض المموجة، وما لبثت أن تعددت الربى، واشتدت كثافة الغابات، كلما قاربنا هضبة بوهيميا، وكان جل صادرات القرى من الأخشاب، ولما دخلت حدود شيكوسلفاكيا زاد تعقيد الجبال، وهي تكاد تختنق بالشجر، وبدأ الصخر يتغير؛ إذ تحول من الجير إلى



إلى جانب تمثال موزار بسالزبرج.

النيس والجرانيت، وأخذ القطار في الهبوط تدريجًا حتى دخلنا براج عاصمة البلاد، بعد أن اجتزنا نفقًا طويلًا.

وكان يومنا كله غائمًا ماطرًا ظل الوابل طوال النهار وشطرًا كبيرًا من الليل، فكأني بذلك قطعت أكثر من نصف هضبة بوهيميا، أغنى أقسام تلك البلاد الفتية العتيقة: فتية؛ لأنها حديثة عهد بحياة الاستقلال الجديدة، وعتيقة؛ لأنها غالبت الزمن طويلًا، فلقد أمَّها منذ القدم خلق من البدو كثير أولهم الكلتيون، ثم جاء شعب من الألمان، ولم تنزل أمم

السلاف بها إلا في القرن السادس، واختلطوا فكان من الجميع شعب شيكوسلفاكيا، ولقد اندمجوا في الإمبراطورية الرومانية الغربية، وفي ٨٣٠ استقلوا واعتنقوا النصرانية.

ولما أغار المجر على الدانوب انحلت إمبراطورية مورافيا، وانفصل صقالبة الشمال عن صقالبة الغرب، والتشيك عن السلفاك نحو ألف سنة، على أن الروح الشيكوسلفاكية لم تخمد بينهم قط، وقد نهض قوم من التشيك في بوهيميا وكونوا لهم دولة دخلت مع الدولة الرومانية المقدسة في حروب شعواء بين القرن العاشر والرابع عشر، وأخيرًا حصلوا على استقلالهم في القرن الخامس عشر.

ومن أكبر أمراء التشيك الذين ساعدوهم على بناء دولتهم «سانت فاكلاف»، الذي أقيم له حفل هذا العام بمناسبة مرور ألف عام على موته، وقام «جون هوس»، الأستاذ بالجامعة، بمجهود في تثبيت أركان اللغة التشيكية، وصبغ التربية بصبغة قومية، لكنه اختلف مع زعماء الكنيسة فحوكم وقُضي عليه بالحرق سنة ١٤١٥، فألهب ذلك نار الحروب الهوسية، وأقام الثورة ضد الكنيسة، وأخيرًا انتخب فرديناند، الأرشدوق النمساوي من أسرة هبسبرج، ملكًا على بوهيميا.

وبهذا انتفى استقلال بوهيميا بذاتها، وحلت فيينا محل براج في الحضارة، وحاول فرديناند إصلاح ما بين الشعب وروما لكنه فشل، وزاد في كراهية الشعب له تقييده نظام الملكية، فألقى الشعب ممثلي الحكومة في براج من النوافذ، لكن ثورتهم أخمدت في قسوة بعد واقعة الجبل الأبيض سنة ١٦٢٠، واضطهد التشيك وبخس حقهم، واستمر التدهور على أيدي النمساويين، ومنعت دراسة اللغة التشكية من المدارس والكنائس.

وقد ساعد أشراف التشيك الأعداء النمساويين على الشعب حتى تم استعباده سنة ١٧٢١، عهد شارل السادس، وفي حكم ابنته مريا تريزا أصبحت فيينا كل شيء، ومحيت دولة التشيك من الوجود، على أن عقلاء الشعب ما فتئوا يوقظونه، خصوصًا بعد نشر المذاهب الحرة في فرنسا، لكن قاومهم مترنيخ برجعيته حتى كانت سنة ١٨٤٨، حين منحوا بعض الحريات وبدءوا يطالبون بالاستقلال.

وعلى أثر الملكية الثنائية «النمسا والمجر»، تصرف هؤلاء في رعاياهم من غير الجنس الجرماني كما يشاءون، فقاوم التشيك حتى نالوا بعضًا من استقلال التعليم، فبدأ العلم يزدهر في بلادهم ثانية، وأخيرا قامت الحرب الكبرى فتأهبت التشيك لمناصبة النمسا العداء، وانحاز رجالهم إلى جانب الأعداء، وكانت النمسا قد أعدتهم للدفاع عنها فحاربوا ضدها في الروسيا وإيطاليا وفرنسا.

ثم تألف في باريس المجلس الوطني التشيكي تحت زعامة الدكتور مزريك، الأستاذ بجامعة براج، الذي فر إلى خارج بلاده تفاديًا من اضطهاد النمسا وشل يده عن العمل لصالح بلاده، وأخذ هذا المجلس يعمل لتحرير البلاد، وتأسست في شيكوسلفاكيا جمعية سرية سميت Maffie لإيقاظ شعور الأهلين، وإشعارهم بقرب الاستقلال، حتى تمت هزيمة دول الوسط، فتحرر التشيك من ظلم مبيد ظل ٣٠٠ سنة.

وفي ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٨، أعلنت الجمهورية وانتخب لرياستها مزريك، وهو الآن الرئيس للمرة الثالثة. وعدد سكان بلاده اليوم ١٢ مليونًا، وهم نشيطون في الزراعة، وأخذوا ينشطون للصناعة، وفيهم مواهب فنية، خصوصًا في الموسيقى، والناس عمليون إلى حد كبير، وهم في الدين إباحيون قاوموا الكاثوليكية، ويفاخرون بعدم دخول الجزويت بلادهم، وقد دمرت كنائس الكاثوليك بسبب إهمالها، ومن فرقهم الممتازة فيما يحاكي الكشافة Sokol، أو البزاة وشعارهم «كونوا أشداء».

(٨-١) براج

عاصمة البلاد، ومعناها «الباب»؛ لأنها أول ما سكن من أرض بوهيميا. تقع على نهير صغير اسمه Vltava من روافد الألب، سكانها يناهزون ثلاثة أرباع المليون؛ حيث إن عددهم ضوعف بعد الحرب حتى إنك لتجد في خارجها قسمًا حديثًا كأنه مدينة ثانية، والمباني تمتد فيه بسرعة عجيبة.

وقد بدأت المدينة صغيرة فوق ربوة بني حولها سور، وأخذت تمتد. وفي ١٦١٤ انتقل الإمبراطور إلى فيينا وترك براج تحت حكم الولاة الذين اضطهدوا البروتستانت، فبدأت المناوشات الدينية، وألقي ممثلو الإمبراطور من النافذة، وبذلك بدأت جذوة حرب الثلاثين عامًا التي عمت أوروبا الوسطى، خصوصًا بوهيميا.

وعقب هزيمة التشيك في التل الأبيض ١٦٢٠، إحدى وقائع حرب الثلاثين سنة، التي هزم فيها البروتستانت، أخذوا يقاسون مظالم فادحة، وشنق ٢٧ من زعماء الاعتصاب في ميدان المدينة، وظل الاضطهاد حتى كانت ١٦٤٨ حين هاجمهم السويد، لكن الطلبة حموا القلعة بمُهَجهم.

وفي ١٧٥٧ في حرب السنين السبع، أصابت براج نكبة فادحة حين دمرها ملك بروسيا بالمدافع، وفي ١٧٧٣ في حكم ماريا تريزا، ألغي أمر الجزويت، ودُمر كثير من الأديرة والكنائس، وفي ١٨٦٦ قاست أيضًا من حروب بروسيا، وفي بدء الحرب الكبرى



براهة: الميدان التاريخي الذي شُنق فيه مثيرو واقعة التل الأبيض.

أصابتهم أهوال كبيرة. وبفضل تضحيتهم وصبرهم قاوموا المجاعات، وكانت جمعية «مافي» تستنهضهم وتوثقهم بقرب الخلاص، وساعدهم مزريك من الخارج حتى كان يومهم المشهود يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٨ حين خلعوا النير النمسوي وأعلنوا الحكم الجمهوري. وبدأت براج تشعر بمسئولية كبرى وهي دائبة على الإصلاح من جميع نواحيه بهمة تكاد تأتي بالمعجزات؛ كي تصبح عاصمة تليق بدولة ناهضة كبرى.

فبراج تسمى بحق «روما الشمال»؛ لأنها صفحة تاريخية تبدأ حوادثها منذ ٣٥٠٠ سنة، ولعل أجمل ما رأيت فيها: القصر الملكي الذي يحوي بعض البقايا الأثرية من القرن التاسع، وتشمخ حصونه وأبراجه على نظام هندسة القرون الوسطى. وأبدع أبهائه البهو الإسباني، وهو آية في الفخامة والزخرف، واليوم يقطن الرئيس مزريك ثلاث غرف منه فقط، وحراس القصر يلبسون الأزياء المختلفة، فبعضهم على نمط الملابس العسكرية الفرنسية، والبعض الطليانية، وآخرون الروسية؛ ذلك لأن أجناد التشيك انحازوا للأعداء، فكان منهم المحارب في صفوف الجيش الفرنسي والطلياني والروسي. وإلى جانب القصر

كنيسة سنت فيتس، وبناؤها قوطي فخم بديع، وفيها يدفن ملوك بوهيميا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة، وبها بعض الذخائر والجواهر المخلفة عنهم.

ثم زرت قصر ولنشتين[١] في حي مالاسترانا — وكان دوق فريدلند في صدر القرن السابع عشر — وهندسته إيطالية في ضخامة يعوزها الجمال، وبه بعض مخلفاته وأسلحته وأثاثه، وحصانه يرى محشوًّا محنطًا، وبالقصر حديقة بديعة شاسعة، وبجانبه بيت صغير كان يقطنه موزار الذي ظل زمنًا يمثل بنفسه في دار التمثيل هناك، كذلك راقني زقاق قذر بدأت به شعلة حرب الثلاثين عامًا في حي Vladislav.

وفي ميدان المدينة القديم زرنا دار الاستشارة «راتهوس»، وعلى رصيفه المطل على الميدان نرى فوق الأرض صلبانًا بعدد أشراف بوهيميا الذين شنقوا في هذا الموضع عقب هزيمة التل الأبيض «١٦٢٠». وبرج الدار تزينه ساعة فلكية منذ ١٤٩٠، وكلما دقت الساعة انفتحت أبواب في أعلى البرج، وتحرك أشباح يمثلون الرسل الاثني عشر والمسيح. وتلك الساعة ترى منازل الشمس والقمر وأيام الأعياد وما إليها بدقة غريبة، وفي داخل القصر قبر الجندي المجهول، وحوله باقات الزهر وأطر الحرير مقدم من مختلف الملوك، ولمصر باقة حولها الأشرطة الخضراء ممثلة العلم المصري، وفي كنيسة أم المسيح يدفن الفلكي الدانماركي الشهير «تيكو براهة».

وأبهى شوارع المدينة «فاكلافسكي نامستي»، ومنظره من شرفة المتحف الذي يشرف عليه رائع، وأنواره في الليل تبهر النظر. والمتحف يحوي مجموعة قيمة من النبات والحيوان، على أن المجموعة الأثرية به قليلة، أما باقي المدينة فعادي يشقها النهر وهو يتمايل، وتعبره القناطر التي أشهرها قنطرة كارل، ويطل عليه برج قديم كان له شأن في صد المغيرين عن المدينة، وتتوسط النهر عدة جزائر بها المتنزهات، وتصلها القناطر العدة.

على أن المدينة ينقصها كثير من المنشآت كي تُحَاكي من المدن أمثال فيينا وبودابست، وكي تليق بحاضرة دولة ناهضة كبيرة كهذه، ويزمع القوم حفر قناة بجوارها تصل نهر الألب والطونة فتزيد حركة النقل. ويلاحظ النشاط على سكانها، فهم يبدءون العمل

[١] ولنشتين: أعظم قواد ألمانيا في حرب الثلاثين عامًا: جمع جيشًا من المرتزقة وساعد إمبراطور النمسا، بشرط أن تكون له القيادة العليا، ولما عظم نفوذه حنق عليه حتى الإمبراطور نفسه، وأعد مكافأة لمن يقتله، فطعنه جندي أيرلندي من جيشه وأرداه سنة ١٦٣٤.

مبكرين — حتى عمال الحكومة — بنحو ساعتين، ويتأخرون في المساء. وبين الساعة ١٢½ و٢½ فترة راحة توقف فيها جميع الأعمال حتى الكنائس.

وبراج تسمى مدينة الشدائد لما مر بها من عصور عصيبة، ويظهر أن تلك المآسي هي التي كونت أخلاقهم التي ستكون خير معوان لهم على بلوغ أوج التقدم. وهم اليوم ناهضون بصناعاتهم بنشاط عجيب، دائبون على ترويج سلعهم في الخارج، وها نحن نرى ذلك في مصر؛ إذ تنتشر مصنوعاتهم الخشبية: كأدوات الموسيقى، ومنسوجاتهم، وبخاصة الصوف والطرابيش التي تقوم مصانعها في مدينة «برون» — عاصمة مرافيا — والجعة التي تزاحم أجود أنواع الدنيا، ومصانعها في «بلزن» من أمهات مدنهم، وإليها تنسب جعة «بلزنر».

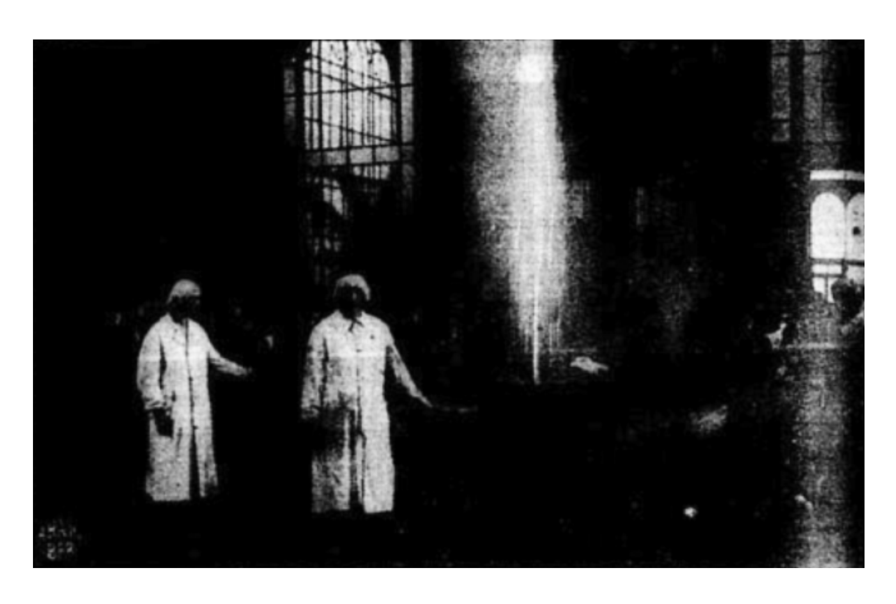
كذلك مصانع الجلود والأحذية، وأكبرها مصنع «باتا» المعروف، ثم صناعات الخزف والزجاج. كل ذلك يسير في سبيل التقدم بخُطى الجبابرة، وذلك بفضل نشاطهم وإخلاصهم لوطنهم، ونجاحهم في رفع نير الأجنبي عن كواهلهم، والحق أن الفرق الشاسع بين حالتهم النفسية والإنتاجية قبل الاستقلال وبعده ليؤيد ما للحرية من أثر سحري في الأخذ بناصر الشعوب.

(٨-٢) كارلسباد

ويسميها القوم اليوم Carlovy Vary؛ لأنهم يمقتون الألمان والنمساويين، ويتجنبون لغتهم. قمت إليها فوصلتها في أربع ساعات، وكانت مناظر الطريق جميلة؛ فالأرض مغضنة، والحقول منزرعة، وأظهر نباتها حشيشة الدينار Hops.

وبوهيميا تعد أكبر جهات العالم إنتاجًا لها، وتصدرها للممالك الأخرى، وبخاصة ألمانيا لتخمير الجعة. وهذا سر شهرة Pilsen التي لا يباريها في الجعة غيرها، وعيدان النبات كأنها فروع الكروم تقام على شرائح خشبية تُصفُّ في نظام دقيق، على أن ثمنها هذا العام هبط كثيرًا بسبب كثرة الإنتاج؛ ولذلك تدهورت حالة الفلاح المالية، خصوصًا وأنها المحصول الرئيسي له، يعقبها في الأهمية الشوفان والشيلم والقمح، ثم الغابات.

ومدينة كارلسباد تقع في وادٍ ضيق تحفه التلال، يكسوها الشجر، ويشقها نهر Tepl الصغير — وهو رافد لنهر Eger، ويكاد ماؤه يكون ناضبًا، لكنه في الربيع يمتلئ وقد يفيض على المدينة — وتقوم المباني الأنيقة في درجات فوق بعضها على جوانب الربى في



ينبوع «سبرودل» الكبير في كارلسباد والفتيات يملأن منه أكواب المُستَشفِين.

منظر جذاب، ويعبره عدد لا يحصى من القناطر. وغالب سكان المدينة أغراب من طالبي الاستشفاء.

والمدينة تحمل اسم منشئها شارل الرابع «حمام شارل»، وفي أقاصيصهم أن الإمبراطور خرج للصيد يومًا، فتبع كلبٌ له وَعْلًا، فقفز الوعل من قمة ربوة ونزل في الوادي، فسارع الكلب وراءه، لكنه سرعان ما أخذ يعوي عواء مرًّا استرعى نظر سيده، فلما أتاه ألفاه قد احترق بمياه نبع فوار اتخذه شارل حمامًا فيما بعدُ.

وينابيع المدينة عديدة، ويختلف ماؤها في الحرارة والمركبات المعدنية، على أن صبغتها قلوية في الجملة. وأكثر مواردها شيوعًا سلفات الصودة وكربوناتها وكلوراتها، وأعلى حرارتها ٧٣°م في الينبوع الكبير المسمى Sprudel، وهو يقذف من مائه نحو ألفي لتر في الدقيقة — ٢,٩ مليون يوميًّا، ١٨ ألف كيلو من الأملاح الذائبة — وهو يمون جميع الحمامات هناك، ويصدر منه سنويًّا أربعة ملايين من الزجاجات؛ أي نحو محصول يوم

ونصف، ويشرب القوم نحو ٢٣٥٠٠ كوب يوميًّا، ويستخرج منه مائة ألف كيلو من الملح المسمى باسمه سنويًّا، وهو يصعد كل ساعة ٢٥٠ كيلوجرامًا من غاز الكربونيك.

وهناك من الينابيع عشرة أقل من هذا أهمية. ومنظر سبرودل مدهش؛ فهو يدفع بالماء إلى علو يناهز عشرة الأمتار في رشاش وانفجارات وغازات. ومياه تلك الينابيع تشفي المرضى بالمعدة والأمعاء والكبد، والتمثيل الغذائي، والمجاري البولية والروماتيزم. وكم يروقك منظر القوم وهم يتزاحمون كلٌّ يمسك بكوبه ويملؤه من الينبوع الذي وصفه له الطبيب. وهم يتناولون الماء جرعة جرعة، ويمشون ذهابًا وجيئة على اختلاف أجناسهم وأعمارهم.

ويبلغ عدد مَن يُمْضِي زمن الاستشفاء بها سبعين ألفًا، ومَن يزورها مرورًا مائتي ألف؛ ولذلك ليس بعجيب أن ترى المتنزهات ودور الملاهي والأنزال ووسائل النعيم منتشرة، وقد عبد القوم طرقًا متلوية خلال الربى طولها نحو ١٢٠ كيلومترًا، فالمناظر من حولها شعرية ساحرة تغري الزائر بطول المقام، ولو لم تكن به حاجة للاستشفاء.

(٩) ألمانيا: بلاد الفخامة والنظام

قمت من براج الساعة الثالثة مساء، فوصلت درسدن السابعة مساء، وكان الجو غائمًا، وكلما تقدم القطار زادت كثافة السحب، وسح المطر، وصار وابلًا، والسماء ترعد وتبرق في شدة غير عادية، وبخاصة عندما قاربنا السفح الجنوبي لجبال «أرزجبرج»، وكنا نعلو تدريجًا، ويزيد تعقيد الجبال وتكثر الأنفاق. ولما أن اجتزنا الجبال أخذت السهول تنفسح، والسحب تنقشع، وظهرت الشمس.

وأخيرًا دخلنا درسدن التي بدت خفيفة الروح نظيفة، ويسهل تتبعها على المصور، وهي تقع على نهر الألب، وغالبها على الضفة اليسرى، وأعظم شوارعها رونقًا وحركة Prager، وامتداده Schloss، وبه معظم المتاجر. وخير ما زرت بها: القصر الملكي، وهو على نظم قصور القرون الوسطى، ممتد الأجنحة، مشرف الأبراج، وبه في الدور الأسفل متحف للمجوهرات والتحف والمخلفات الملكية الثمينة.

وفي الدور الثالث الأعلى مسكن الملوك، وحجرات القصر وأبهاؤه في امتداد وعظمة تبهر النظر، ونقوشها تدل على ما كان لملوكهم من صولة وسلطان، وبالحجرات أثاثها، من بينه سرير غليوم ومكتبه ودولابه. ومن القصر يمتد طريق معلق على شكل قنطرة



مدينة درسدن عند منعطف نهر ألب.

تصله بالكنيسة الفخمة التي تشرف على النهر عند قنطرة «أوجسطس»، وإلى وراء القصر متنزه بديع الشكل تحيط به أبنية فخمة بشرفات ودرج فاخرة يصعدها الإنسان؛ فتؤدي به إلى دورها الأعلى، وكله ممشًى للتنزُّه ينتهي بقباب وأعمدة فخمة، واسم هذا المكان الساحر Swinger، وفي أحد جانبيه المتحف الفني، وبه مجموعة مدهشة لكبار المصورين نخص بالذكر منهم: رفائيلو، روبنز، فانديك.

ومعروضاته كثيرة العدد بحيث تملأ طبقاته الثلاث، وهو معدود من متاحف الفن الكبرى في العالم. ويظهر أن هواة الفن والتصوير كثيرون هناك؛ لأنك لا تكاد تدخل غرفة إلا وتجد بها مصورًا أو اثنين ينقلون على لوحاتهم ما راقهم من آيات الفن القديم، وثم متنزه تجاه الكنيسة من الجانب الآخر يسمى Belvedère، إذا علوت مسارحه بدت لك المدينة على النهر المتلوي ومبانيها على جانبيه في مشهد رائع، وبه عدة حدائق ومتنزهات ومقهى كبير، وتشرف عليه دار العلم «أكاديمي» في أبهة البناء وفخامته، وخلفه متحف الحفر، وبه مجموعة لا بأس بها من النُّصب التي نحتت في مختلف العصور، وفيه جانب

مصري صغير جدًّا. قضيت في تلك المدينة النظيفة يومين كاملين تمتعت خلالهما بجو جميل، ومناظر جذابة، ثم قصدت إلى:

(٩-١) ميسن

التي وصلتها في ساعة، وهناك ركبت ترامًا إلى مصنع الخزف ذائع الصيت الذي ينتج خزف سكسونيا، الذي لا يخلو منه سماط فاخر قط. دخلته واقتادنا أحد رجاله شارحًا، فمررنا في الطابق الأسفل على مجهزي العجينة التي تعد من مادتي: الكولين والفلسبار لعمل الخزف الرخيص، ومادتي الكولين والكوارتز للخزف الثمين. وتلك المواد تستمد من الجبال النارية القديمة المجانبة للمصنع.

وهناك ترى الرجال يديرون دواليب بالأرجل شبيهة بتلك التي تراها في قنا، ويمسك الواحد بالعجينة ويشكلها بيده أو بسكين معه كيفما أراد، وبمهارة فائقة، وبعضهم يضع العجينة في وسط قوالب من الجص، ثم توضع حولها حلقات غلاظ من الفخار السميك الصقيل، وترص في الأفران التي تُحمى إلى درجة ألف مئوية، والأفران يطلى داخلها بدهان براق.

أما النقش والزخرفة ففي الطابق الثاني، وهنا يرى الإنسان عجبًا، فالرجل أو الآنسة تمسك بالطبق أو الكأس وتطبع عليه تحديد الرسم، وتملأ فراغه بريشتها في إتقان يثير الدهشة. ومن الأشكال التي كانت تتم في دقائق ما يعجز المِفَنُّ المبدع أن ينجزها في ساعات. والمواد الملونة من مادة الكوبالت الأزرق، وبعد إتمام ذلك يغمر الإناء في السائل الصقيل كي يصبح ناعم الملمس.

وثم قسم للحفر تشكل فيه التماثيل على اختلافها، والزهور وما إليها بالأيدي في دقة عظيمة بلغت أن كان الرجل ينقش أمامنا رقائق من الجص مخرمة تحكي «الدانتلا». ويزوغ البصر إذا انتقل المرء إلى قسم المعروضات حين ترى نماذج من الآيات التي ينتجها المصنع من تماثيل للحيوانات جميعها، وبعض الأشخاص في مختلف حركاتهم، وآنية ترى كأنها مرصعة تزينها الصور الفنية البديعة؛ مما يشهد للقوم بالفضل العظيم في هذا النوع الذي أكسبهم قصب السبق في ميدان المنافسة. وقد تفقدنا المعرض وحده في ساعة ونصف.



أكبر مصانع الخزف في العالم: ميسن سكسونيا.

أما المدينة نفسها فصغيرة، لكنها تفوق بندرًا من بنادرنا في ضخامة الأبنية، ونظافة الشوارع، وتنسيق المتنزهات، وعجيب أن تعلق الجرائد اليومية في مركبات الترام كي يتصفحها الركاب.

قمت إلى برلين الساعة الثالثة مساء، فوصلتها الساعة السادسة إلا قليلًا، وكانت المناظر في الطريق كله سهولًا ممتدة تكسوها الخضرة إلا حيث ترى الغلال بيضاء يحصدها القوم، وبخاصة الشوفان، ولا تخلو تلك السهول من الغابات المتناثرة.

(٩-٢) برلين

في صباح الجمعة ١٨ يوليه، قصدت شارع المدينة الممتاز «إنتردن لندن»، وبدأت بزيارة القصر الملكي الذي يقع في آخره، وهو قسمان: حديث وقديم، فالحديث أقيم منذ القرن الثامن عشر، وهو فخم لحدٍّ كبير، به غرف وأبهاء للقياصرة، ومن بينها عرش غليوم، والغرفة التي خاطب الشعب منها عند إعلان الحرب سنة ١٩١٤، وصور زيتية كبيرة للملوك جميعًا، وفي مقدمتهم فريدريك[٢] الأكبر على جواده، وهو يتجه إليك بوجهه من أي جهة تنظر إليه. وهذا القسم كان من الفضة الخالصة حتى العرش والشرفات «البلكونات» والمقاعد، لكن فريدريك صهر كل ذلك وسكَّه نقودًا لما أعوزه المال في حرب السنين السبع، ولا تزال منه بقية في مقعدين وشرفة من الفضة البيضاء، وبعض الحجرات تكسى جدرانها ببُسُط من صنع مهرة الهوجنوت.

والقسم القديم أقل فخامة، راقتني به صورة لأولاد فريدريك يعزفون على الموسيقى خلسة؛ لأن أباهم كان يقسو عليهم، ويمنعهم ذلك، وبالقصر سبعمائة حجرة، وأربعة طوابق، وألف نافذة، وفي دوره الأسفل متحف لمخلفات الملوك من هدايا وأثاث. والقصر يطل على نهر سبري الصغير، فرع الألب، الذي تقع عليه برلين، وتعبره القناطر العديدة في مقدمتها قنطرة القصر، وقنطرة فريدريك، وعندها كنيسة الدوم، أفخم كنائس برلين، قبتها الأنيقة تناطح السحاب، وهي ذات نقوش فنية بديعة، بهوها يتسع لخمسة آلاف جالس، وتطل عليها شرفة خصصت للقيصر نفسه يؤدي فيها الصلاة، ولها سلم فخم خاص به وخلفها يقع مدفن القياصرة، وبه تحفظ رفات مائة من آل هوهنزلرن، من بينهم فريدريك الأول.

ثم زرت متحف «القديم والحديث»، وخير ما راقني به القسم المصري، وبه قطع عديدة نفيسة أخص منها تمثالًا من الجرانيت الأسود الصقيل لرمسيس الأكبر، وآخر لسيزستريس الأول وهما جالسان، ونماذج لأنوال للنسج بكامل أدواتها، وبعض الآلات والأسلحة، وأضرحة كاملة، وجثث محنطة بعضها ممدد، والبعض مطبوق الأرجل إلى

[٢] فريدريك الأكبر بطل القرن الثامن عشر، أصلح شئون بلاده، ثم وجه همَّه إلى التوسع في الخارج، وكان عبقريًّا في الحروب حتى كان يعجب به نابليون فيما بعد، ويحمل تمثالًا له أينما سار. والحق أنه رفع ألمانيا إلى مصافِّ الدول العظمى.



جهاز زايس لتبسيط علم الفلك في برلين.

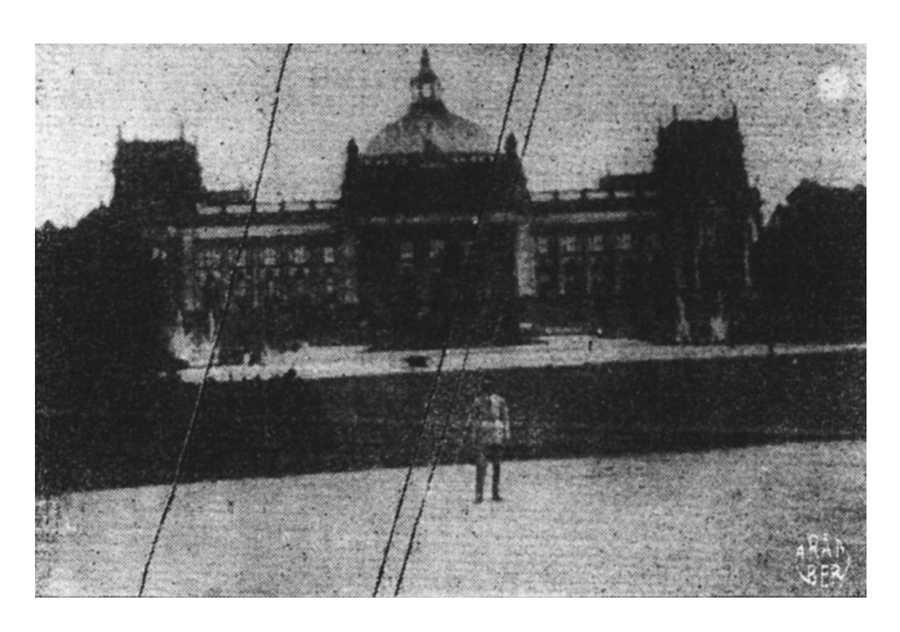
الصدر من ٣٥٠٠ق.م، وبعضها موضوع في قبره، ومن بينها ضريح مُطعَّم بالأبنوس والعاج غاية في الإبداع والدقة.

وهناك رأس نفرتيتي — منذ سنة ١٣٧٠ق.م — المتنازع عليها بوجهها الدقيق، ورقبتها النحيلة، وعيونها السحرية. وقد عمل منها عدة نماذج من الجص، وخبرنا الحارس أنها على وشك أن ترسل لمصر، والمتحف غاصٌّ بقطع قيمة لا حصر لها.

وبه قسم إغريقي من «أتيكا»، وخير ما به أوانٍ فخارية حمراء صقيلة، وعليها نقوش بديعة، وإن كان بعضها خارجًا عن حد اللياقة والأدب.

ومن معارض الفن الشهيرة: المعرض الأهلي، وبه مجموعة لصور فنية من مختلف العصور، ثم متحف «القيصر فريدريك»، وفي دوره الأعلى تحف فنية كثيرة لكبار المصورين، وأجملهم في نظري روبنز، وفي دوره الأسفل مجموعة تماثيل وأوانٍ وقطع

من خزف، وبه قسم قبطي مصري يحوي مجموعة أنسجة قيمة، ومحرابًا قبطيًّا من دمشق، وتماثيل وواجهات من خرط الخشب عليها المسيح والقديسون.



أمام الريشستاغ «البرلمان» برلين.

وثم قسم إسلامي بالقيشاني، والآيات القرآنية، وطنافس ومحاريب كاملة، وأبواب وجدران من خرط الخشب بكامل نقوشها، ثم أنسجة جميلة من عهد هارون الرشيد، وعليها الخط الكوفي الجميل، وأخرى لخلفاء غيره، وأقمشة موشاة بالذهب مزركشة بمختلف الألوان. هذا وأبنية المتاحف تبهر النظر في فخامتها وعظيم امتدادها.

والحق أن أول أثر لبرلين ينطبع في نفس الزائر دالًّا على عظمتها وثراء أهلها: ضخامة مبانيها، وسعة شوارعها وامتدادها الرائع في استقامة واحدة، وفوق ذلك نظافتها التامة، فلمجرد جولة يثبت أنها عظيمة. أهلها أهل نشاط وعمل ونظام ودقة ونظافة: بلغ من دقتهم أن أسماء الشوارع تكتب على لوحات مستطيلة، تقام على عُمد في زوايا الطرق وعليها أرقام البيوت التي في هذا القسم من الشارع، وسهم يدل على الاتجاه، وعند مواقف

سيارات الأمنيبوس تعلق خرائط لخطوط سيرها تبدو واضحة في النهار، وتضاء من داخلها ليلًا. أضف إلى ذلك البوليس المهيب المثقف الذي يخاطبك بأكثر من لغة واحدة، ويجيبك في رفق وتؤدة، ويهديك إلى طِلْبتك كائنة ما كانت.

وهذا كله ملاحظ في سائر البلاد الألمانية؛ ولذلك فإني أعد ألمانيا خير بلاد أوروبا جميعًا في الدقة والنظافة والنظام والمظهر العظيم، وقد جمعت بين الكد وراء العمل والإسراف في اللهو مما لم يتوافر في بلاد أخرى.

قصدت إلى مكان أسموه Planetarium نسبة إلى الأجرام السماوية السيارة، وهو مؤلف من قبة ضخمة صفت داخلها المقاعد للمستمعين، وتتوسطها آلة معقدة، ومؤلفة من جملة عدسات تظهر فيها كل الأجرام السماوية مشرقة، سواء على حدة أو في جمع من النجوم والشمس، كل يدور أمامك في فلكه بنسبته الفلكية الصادقة، والرجل خلال ذلك يشرح لنا ما نرى مشيرًا بسهم من ضوء يتحرك في أرجاء القبة حيث يشاء، والجهاز يعد من أكبر المبتدعات لتبسيط علم الفلك، وسرعة تصور مدارات الأجرام بعضها بالنسبة لبعض، وهو من مبتكرات «زايس» صاحب الشهرة في الأجهزة الإبصارية. وقد حذت حذوه سائر المدائن الأوروبية الكبرى، وأنشأت أمثاله ليفيد الطلبة والعامة على تفهم معميات الحركات السماوية الغامضة.

وخير متنزهات المدينة وأفسحها Treptow وTiergarten، تنسق فيهما الزهور ونقائع المياه ومجاريها، ويكثر الشجر الكثيف حتى ليخيل إليك أنك تسير في غابة هذبت مسالكها. ووسط الأول المرصد، وبه معرض لآلات الرصد وتطورها، وأجهزة فلكية عدة، وكثير من الشهب حجم أكبرها يناهز نصف المتر، وبه منظار هالني امتداده، وقد قيل لي: إنه أكبر ما وجد، قطره ٦٥سم، وطوله ٢١ مترًا، وقد رسم الراصدون بواسطته كثيرًا من الأجرام السماوية.

ويؤدي المتنزه الثاني إلى ميدان الملوك الفخم يشرف عليه البرلمان في بنائه الأنيق الفاخر، الذي نقش عليه ما معناه «إلى الشعب الألماني»، وأمامه تمثال لبسمارك، أكبر دهاة ساستهم، ويواجهه وسط الميدان عامود النصر يصعده الإنسان بمائتين وخمسين سلمًا، فيمر بشرفة شاسعة نقشت جدرانها بالفسيفساء البديع، وتتوج العامود سيدة بأجنحة وصولجان، وتاج مرفوع من زهر، وحول جدرانه السفلى نقوش نحاسية لوقائع تاريخية، وأقيم تذكارًا للنصر في حرب السبعين؛ ولذلك نقش عليه ما معناه «من الوطن الشكور إلى الجيش المنتصر هنا».

وتبدو برلين من ذروته في عظمة وجلال، وقد أصر الحلفاء، خصوصًا فرنسا، على هدمه في معاهدة فرساي، لكن الألمان رفضوا ذلك في إباء. وحول الميدان تماثيل لجميع القياصرة بجانبهم كبار الساسة، أمثال مولتكة، ومنه يصل المرء إلى بوابة «برندنبرج» على نمط إغريقي ضخم تتوجها عربة تجرها أربعة جياد عرضها ٦٨ ياردة، وعلوها ٢٢، أقيمت سنة ١٧٨٩ لتحكي بوابة باريس، وأمامها ميدان بالرخام الناصع، والنافورات الجميلة، والتماثيل الدقيقة، وامتداده يؤدي إلى شارع إنتردن لندن الشهير، ويقطعه في وسطه ثاني طريق في الأهمية «فريدريك شتراس»، وتمتد قصوره الفاخرة إلى قصارى مسارح النظر في استقامة رائعة إلى الأفق حيث يخيل إليك أنه لا نهائي.

وفي تلك المنطقة تقع أضخم مباني برلين من قصور ملكية، ومتاحف ومعارض فنية، والأوبرا التي تسع ١٩٠٠ شخصٍ، وهي ذات نقش رائع، وفي إسراف كبير، وكذلك دار الجامعة، وأمامها أبدع تماثيل المدينة لفريدريك الأكبر.

حديقة الحيوان

مترامية الأطراف بها مجاميع كبيرة من مختلف الحيوان، وأحسن ما راقني بها الحظائر التي أقيمت في هندسة متباينة تحكي هندسة البلاد التي يقطنها الحيوان الذي فيها، فمثلًا أقيم بيت النعام وفصائله على نمط مصري قديم، والظباء والإبل على نمط عربي صميم، والفيلة على نمط هندي يحكي «الباجودا»، والطيور طويلة الأرجل على نمط ياباني وهكذا، وبالحديقة من المقاهي وجواسق الموسيقى الشيء الكثير، على أن حديقة القاهرة تفوقها تنسيقًا واتساعًا، فحديقتنا إذن أجمل حدائق الدنيا جميعًا.

وبجانب الحديقة قسم للأسماك «أكواريوم» يقال: إنه أكبر ما وجد في الدنيا، وهو ثلاثة أجزاء، في الدور الأرضي تعرض الأسماك على اختلاف فصائلها، بما فيها الأصداف عجيبة الألوان والأشكال من كافة بحار العالم، وفي الدور الثاني Terrarium، ويشمل فصائل الحيوان الذي يشترك بين البحر والبر، وغالبه من الضفادع والسلاحف والأفاعي، وفي الدور الثالث دار الحشرات Insectarium، واسترعى نظري به عنكبوت أكبر من راحة اليد مبسوطة، وآخر ذو أهداب غزيرة كالشعر، وثعبان كأنه البساط الجميل النقش قطره قدم، وهو بالغ الطول جيء به من الأمازون.

وبجانب الحديقة حظيرة بها ألف تمساح في مختلف الأحجام والأعمار، وبجانبها بعض السلاحف الكبيرة، وكان بعض السيدات يمتطينها، وتمشي بهن مسافات طويلة.

ومن المتاحف القيمة متحف الشعوب، ويحوي مجموعة نادرة المثال من مخلفات سكان آسيا، بين تماثيل وحوائط وأسلحة وأنسجة في الطابق الأسفل، تعلوه معروضات أمريكا الوسطى والشمالية والجنوبية، ومن بينها مخلفات مدنية الأزاتقة والأنكا، وفي الطابق الثالث مجموعة قيمة من أفريقيا — الشمال والوسط والغرب والجنوب كل على حدة — ثم أوشيانيا. وأعجبتني كثيرًا مخلفات ميكرونيزيا، وبخاصة نظام المساكن وهندستها ونظافتها، وكذلك دقة الأنسجة من الألياف النباتية، وجدائل الخوص في تأنق عجيب، وهو الوحيد من نوعه في العالم، ويقوم في بناء فخم للغاية.

ومن الأشياء الجديرة بالزيارة برج برلين على نمط برج إيفل، لكنه أصغر قليلًا، أقيم من الحديد، وله سلم ومصعد كهربائي يعلو إلى ١٢٠ مترًا، فيرى منظر المدينة وضواحيها في تخطيط هندسي جذاب كأنه خريطة يدوية، ويرى الناس كالدويبات، وهو يتوسط متنزهًا ومقهًى عظيم الامتداد يؤمه خلق كثير لسماع الموسيقى الشجية. والحي كله حديث طرقه فسيحة مبعثرة المباني نادرة السكان.

مسجد برلين

في ناحية من شارع فخم اسمه «هوهنزلرن» يتوسطه متنزه جميل على طول امتداده، والمسجد في هندسة مغولية كأنه تاج محل مكون من قبة كبيرة حولها القبات الصغيرة، وأمامها مئذنتان دقيقتان جدًّا، وبجواره منزل صغير جميل للإمام عبد الله، وتعلق عليه لوحة لنشر الإعلانات والمنشورات الدينية بإمضاء الإمام، وتتوجها البسملة باللغة العربية، والباقي بالألمانية، أقامته جمعية نشر الإسلام الهندية باكتتابات ٩٠٪ منها من الهنود، خصوصًا أهل بنجاب.

وقد بدئ البناء سنة ١٩٢٤، لكن اضطراب سعر المارك أوقف العمل، وتم سنة ١٩٢٧، وهو منقوش من الداخل نقوشًا لا بأس بها، ولا يزال تنقصه الفرش، وبلغت أكلافه أربعة آلاف جنيه، والإمام شاب هندي نحيف أسمر وسيم ذو لحية خفيفة سوداء براقة الشعر، يجيد الإنجليزية، ويعرف قليلًا من العربية، وبمجهوده ومجهود سائر أعضاء الجمعية الإسلامية ببرلين — تلك التي يرأسها دكتور في الفلسفة ألماني الأصل — تنشر الكتب والمقالات، وتظهر مجلة شهرية، وتلقي المحاضرات في المسجد. وقد اعتنق الإسلام من أهل برلين نحو الأربعين بينهم دكتوران، ولم تساعدهم الحكومة الألمانية قط، بل كانت تُلزمهم دفع ضريبة على المسجد، ولم يُعفَوا منها إلا السنة الماضية بعد جهد كبير.

(٩-٣) يوم بوتسدام

أصبح الجو جميلًا مشمسًا على غير ما عودنا في ألمانيا؛ إذ كان طوال إقامتي باردًا رطبًا كثير الأمطار، فكان ذلك خير معين لي على الاستمتاع بضاحية بوتسدام التي تحكي فرساي في باريس، مذ كانت الموطن الأول لمنتخبي برندنبرج أولًا ولملوك بروسيا آخرًا، وقد زاد صيتها عهد المنتخب الأكبر، ثم بلغ الأوج عهد فريدريك الأكبر، وساعد على هذا التجميل كثرة البحيرات والجداول المتلوية، التي تتفرع من مجرى Havel، وكذلك كثرة الغابات.



قصر سانسوسي في بوتسدام بألمانيا.

والمدينة تضم الآن ٦٥ ألف نسمة سلكت في سبيلي إليها قطار المترو من محطة ZOO bahnhof إلى بلدة Vann See، فوصلتها في نصف ساعة، ومنها أقلني زورق بخاري أخذ يجوب بي نواحي بحيرة متلوية، ويرسو على محاطها الساحرة إلى بوتسدام التي وصلتها في ساعة وربع، فكانت هذه رحلة مائية غاية في الإبداع. وهنا سرت إلى القصر الأول، فبدا عظيم الامتداد تخرج منه الأبهاء ذوات العمد الرائعة، يتقدمه ميدان فسيح يؤدي إلى غابة كبيرة، وخير حجراته غرفة المطالعة لفريدريك الأكبر، وبها كثير من مخطوطاته، وإذا

أغلق الباب والنوافذ لا يكاد يتعرفها من يكون في داخلها؛ لتشابه نقوشها من الداخل، وحجرة فريدريك وليم الثالث، وزوجته لويز، ثم حجرة البرنز البراقة.

أدى بي السير إلى متنزه سانسوسي الذائع الصيت، ومعناه «بغير سأم»؛ وأنَّى لي أن أصف ما حوى من آيات التنسيق في الزهور وبدائع الفن في الأنصاب والنافورات، وإتقان الذوق في المقاصير. وليات الطرق تحفها التماثيل وإبداع تشذيب الشجر.

بدت عند المدخل مسلتان صغيرتان يؤدي الطريق داخلهما إلى قصر سانسوسي، الذي يشرف على متنزه أنيق يؤدي إلى نافورة كبيرة تغص بالسمك الأحمر، ثم إلى مدرجات ستة يعلو الواحد منها الآخر بثلاثة وعشرين سلمًا، حولها من عيون الماء وبواسق الشجر وأكمام الزهر ما يعجز عن وصفه البيان.



مكتب فريدريك الأكبر بقصر سانسوسي.

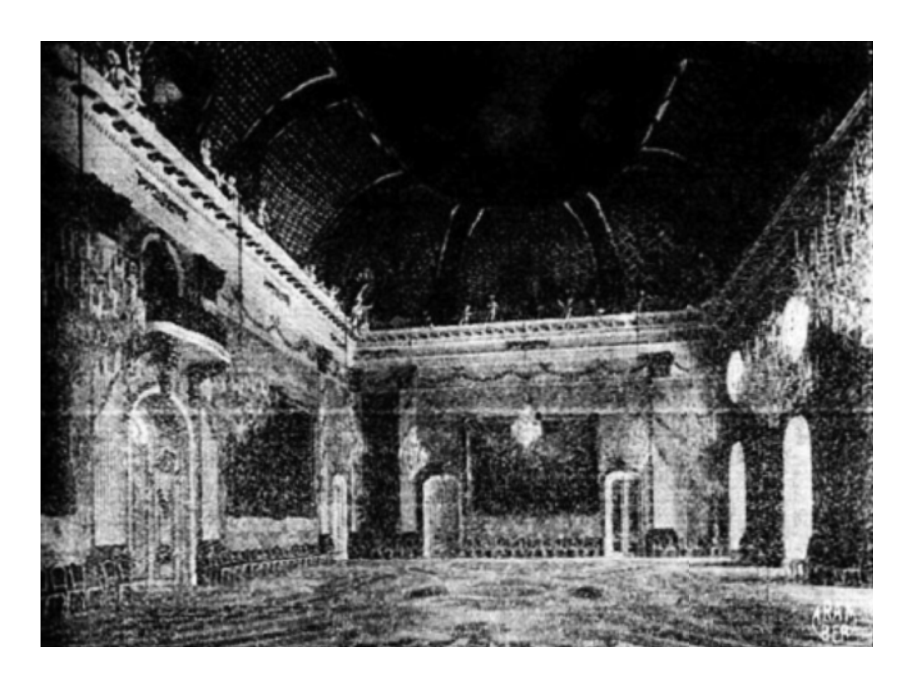
والقصر من طابق واحد، أجمل حجراته غرفة فولتير، صديق فريدريك الأكبر، الذي دعاه للإقامة عنده، وهي بخرط الخشب في أشكال مختلفة من حيوان ونبات. وبهو الطعام الإهليلجي الذي عقدت به وليمة المائدة المستديرة الشهيرة بدعوة من فريدريك الأكبر، ثم حجرات فريدريك نفسه وسريره الذي مات فيه، وبجانبه ساعته التي كان يملؤها بنفسه، والتي وقفت ساعة وفاته تمامًا، وكانت الثانية والدقيقة العشرين من صباح ١٧ أغسطس سنة ١٧٨٦، وبالقصر مكتبته القيمة التي تحوي مجموعة قيمة من مؤلفات غالبها فرنسية.

وفي الثلث الثاني من الطريق الرئيسي القصر الثاني المسمى «أورانجري»، لكثرة أشجار البرتقال من حوله، وقد بُنيَ على نمط هولندي، وهو أقل فخامة من الأول، وبجانبه ترى أطلال الخزانات التي كانت تسقي المكان كله، والطاحونة الهوائية التاريخية التي كانت لفقير أَبى أن يبيعها لفريدريك، رغم توعده إياه، مخافة أن تشوه من منظر قصوره، لكن الرجل رفض ذلك قائلًا: لن يقع حيف ما دام في برلين قضاة، فأعجب به وتركها له، وبعد هذه بقليل هيكل قديم على شكل قبة البانثيون، ودفنت به رفات القيصرة الأخيرة زوج غليوم في تابوت من الرخام.

وقرب آخر الطريق القصر الحديث، وهو مستطيل تتوسطه قبة عظيمة، وتتقدمه حديقة أبدع تنسيقها، تُزيِّنها التماثيل، بناه فريدريك الأكبر سنة ١٧٦٣ لإظهار عظمة بروسيا بعد حرب السنين السبع، وكان يستخدمه لإقامة الحفلات الرسمية، واتخذه غليوم مصطافًا له، وبه ٢٠٠ غرفة، ومسرح للتمثيل يتسع فناؤه لخمسمائة نفس، وأهم حجراته ردهة المرمر بديعة النقش، والمدخل الذي ترصف جدرانه جميعها بالأصداف الثمينة في أشكال مدهشة، وحجرة الموسيقى — وقد حفرت آلات الطرب على جدرانها بالذهب، وكان فردريك ولوعًا «بالفلوت».

وكذلك الحجرات التي كانت خاصة بغليوم نقشت بالفضة والذهب الخالص. والقصر في نقشه الداخلي يفوق جميع ما شاهدته حتى في فرساي نفسها، ويدفن فريدريك الأكبر وأبوه في كنيسة سانسوسي تظلهما أعلام النصر التي غنموها في حروبهم.

رغبت في أن اطَّلع على بعض ملاهي القوم، فزرت Haus Watterland في «بوتسدام ربلاتس» ليلًا، فإذا به جنة نادرة، فمن ثريات الأنوار تصفُّ في أشكال تبهر النظر إلى طلاء ونقوش فوق الجدران في إبداع دونه أي إبداع. والمكان مقسم إلى أبهاء عدة كل بهو على نمط خاص في هندسته ونقوشه وأثاثه وأهله، فمثلًا ترى جزءًا من بلاد الرين بجبالها



ردهة الودع والمرمر بالقصر الحديث في بوتسدام.

وقصورها وغاباتها تضاء، ويبدو القمر والنجوم في سمائها، ثم يظلم الجو تدريجًا، وينذر بعاصفة لا تلبث أن تثور فتبرق السماء وترعد، ويثقل السحاب وينزل مطره وابلًا، ثم تنقشع العاصفة ويعود الصفاء، وثم بهو تركي ترى جدرانه بخرط الخشب العربي، والمصابيح من النحاس المثقب، والمقاعد الخشبية العريضة.

وهو يطل على البسفور، وتبدو إسطنبول بمبانيها وأنوارها ومآذنها، وآخر يمثل كولمبيا تسمع فيه موسيقاها، وترى مراقصها، ورابع إغريقي. وترص وسط تلك الأبهاء مناضد يجلس عليها الزوار ليتناولوا ما لذ لهم من طعام وشراب، يُقدم إليهم في آنية البلاد نفسها، وبأيدي طائفة من الخدم يلبسون أردية البقاع التي يمثلونها.

وعلى أثر عودتي من دانماركه، قمت من كوبنهاجن إلى همبرج — سافرت بقطار ١٠ صباحًا فوصلتها ٩ مساءً — وتعددت وسائل النقل بين قاطرات وسابحات عدة مرات، ومررنا على مدينة لوبك على البلطيق، وتحكي بندرًا من بنادرنا. أما همبرج فبلدة ضخمة

المباني، ممتدة الطرق نظيفتها، يدخل البحر إليها بألسن متعددة الشعاب، تعبرها القناطر الجميلة، وأضخم مبانيها دار البلدية «راتهوس» شيدت من الصخر الرملي المزركش في هندسة النهضة الألمانية. وأقدم أحياء المدينة ترجع إلى سنة ٨٠٠ حين بدأها شارلمان، وطرقه مختنقة لكنها نظيفة شأن جميع البلاد الألمانية.

أما الميناء فعظيم الحركة، مشعب الفروع، يصب عنده نهر الألب، وهو الشريان التجاري لألمانيا، وفيما عدا عظمة مبانيها وضوضائها وامتداد طرقها، لا يلذ للمرء المقام بها، خصوصًا وأن المعيشة بها غالية لا تطاق، فمستواها أعلى منه في أية بلدة ألمانية أخرى.

(٤-٩) كولوني

بعد انتهاء زيارتي لهولنده، آثرت أن أسلك سبيلي إلى أعالي الرين، فقمت من روتردام بقطار الثانية مساء، ووصلت كولوني الثامنة مساء، ويسميها القوم Küln بإمالة الكاف، بلدة تاريخية عتيقة يرجع عهدها إلى زمن نيرون الروماني، وإن لم يبق للرومان هناك من أثر إلا الاسم، وهو محرف عن Colony؛ أي مستعمرة.

كولوني اليوم ثالثة مدن ألمانيا، بعد برلين وهمبرج، وعدد سكانها يناهز ثلاثة أرباع المليون، ٧٦٪ منهم من الكاثوليك؛ ولذلك ليس بعجيب أن ترى بها نحو مائة كنيسة كاثوليكية، وفي مقدمتها كنيسة Dom الذائعة الصيت، وتقام في هندسة قوطية تبهر النظر لمجرد رؤيتها. وأذكر أني وقفت أمامها صامتًا ذاهلًا من عظمة ما رأيت من آيات الحفر والنقش، وكفى أنها استلزمت أربعين عامًا حتى تم بناؤها. ووضع الحجر الأساسي سنة ١٢٤٨، وعلو برجيها ٥١٨ قدمًا، بكلٍّ سبعةُ أجراس زنة أكبرها ٢٧ طنًّا، ويتسع فناؤها لأربعة وعشرين ألفًا، وتعد من معجزات فن العمارة القوطي في العالم أجمع.

وهي وحدها تبرر زيارة المدينة من أقصى الأرض. يواجهها المرء لمجرد خروجه من المحطة الرئيسية، فتعطي عن المدينة فكرة رائعة. وبالمدينة عدد كبير من الكنائس الفخمة في هندسة الرومانسيك الألمانية البحتة، وهناك عدد كبير من المتاحف أشهرها الجالاري، وغالب طرقها عظيمة الامتداد، غاصَّة بالحركة. وكانت الأحياء القديمة تحاط بسور كالهلال تتخلله بوابات تحكي باب النصر عندنا، ولا تزال لها اليوم بقية.

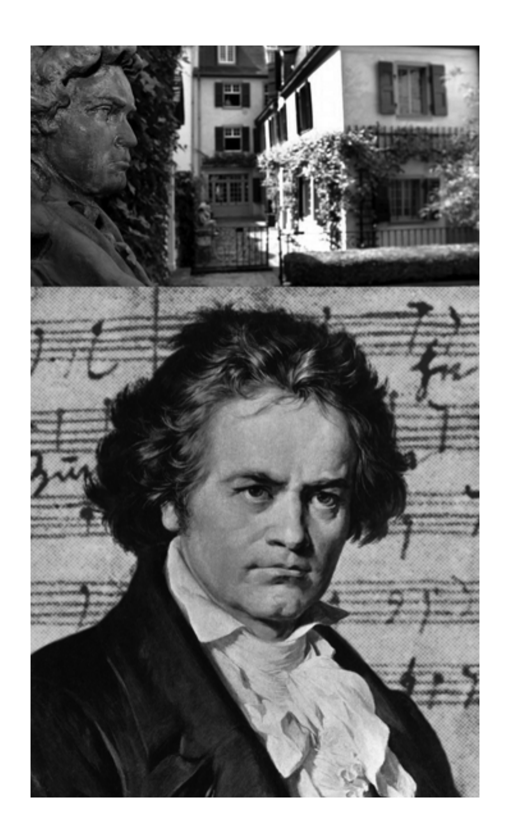
والرين هناك عظيم الاتساع تعبره القناطر الفخمة، ومن بينها أكبر قنطرة معلقة في أوروبا جميعها، وجزء من النهر كبير أعد بالأهوسة والروافع، فأضحى مرفأ تجاريًّا



واجهة كنيسة الدوم في كولوني.

عظيمًا. والجامعة تشرف على النهر، وينتسب إليها ستة آلاف طالب. وقد طغى الرين على المدينة سنة ١٩٢٦ فأغرق كثيرًا منها. ولعل أجمل جهاتها القديمة سوق الخضر الفسيح، كثير الضوضاء، وعظيم الحركة، وبالمدينة شارع خاص بالبنوك، وآخر برجال القانون.

هذا وإن انحلال الأخلاق الذي أعقب الحرب الكبرى، ولم تنج منه دولة أوروبية، ليبدو جليًّا في ألمانيا، وبخاصة في كولوني. ويظهر أن الحالة زادت سوءًا بسبب الاحتلال الأجنبي إلى السنة الماضية، فالنساء هناك مبتذلات إلى حد مخجل: لا يتورعن أن يمسكن بتلابيب المارة في غير حياء، وعجيب أن تجمع ألمانيا بين النقيضين: عظمة العمل وتدهور الخلق هكذا؛ ولذلك ليس بعجيب أن نرى عقلاء القوم ناقمين على الحالة السياسية الحاضرة، ويرون أن عصر الجمهورية أسوأ حالًا من سالفه؛ إذ سهَّل للناس سبل الفساد، ومهد لتلك الإباحية الممقوتة، فكان الانحلال الخلقي؛ لذلك فهم يتوقون لرجوع الإمبراطورية. أما حالة القوم المالية فشديدة تبدو في كثرة المتسولين والفقراء، وهم يجرون وراء كسب عيشهم في كد ونصب فاق كل حد.



بيتهوفن إمام الموسيقى ومسكنه الصغير.

ومن ضواحي المدينة الجديرة بالزيارة Bonn، التي وصلتها بالترام في ساعة. سكانها تسعون ألفًا من بينهم كثير من طلاب العلم الأجانب ينتسبون لجامعتها، وهي أشبه ببلاد المصايف لكثرة متنزهاتها وفلاتها ومناظرها الرائعة، وقد دفعني لزيارتها أنها مسقط رأس الموسيقي الذائع الصيت «بيتهوفن»، وقد زرت بيته الصغير وبجانبه متحف لمخلفاته، ووسط ميدانها يقوم تمثاله، ومن خلف المدينة سبعة تلال ذات مناظر ساحرة. وفي ظني أنها سر إظهار عبقرية هذا المِفَنِّ العظيم.

(٩-٥) إلى ميونخ

قمت من كولوني التاسعة صباحًا، فوصلت ميونخ التاسعة والنصف مسًاء؛ أي بعد نحو ١٢½ ساعة، وكان الطريق الحديدي يجانب الرين الذي كان يتلوى يَمنة ويَسرة، ومن حوله الربى الجبلية تكسوها الخضرة، وترصف جدرانه كلها، وتمخر عبابه بواخر لا حصر لها، وفوق التلال ترى قلاع القرون الوسطى بأبراجها. وكنا نرى طريقًا حديديًّا آخر على حافة النهر الأخرى.

ثم مررنا بمدينة كوبلنز؛ حيث عبرنا الموزل فرع الرين، والمدينة حصن منيع ومزار جميل يقع عند ملتقى النهرين، وكانت التلال تُكسى بالكروم تقام عيدانًا منفردة قصيرة على عصي، ومن ثَمَّ كانت المنطقة غنية بالنبيذ، وبعدها زادت منعطفات النهر، وكان يُرى بعضها في زاوية قائمة. وفعل القرض والإرساب واضح جلي في الجروف الهائرة وما يقابلها من ضفاف مدرجة، وتتوسطه مجاميع الجزائر، وكان القطار بين حين وآخر يخترق أنفاقًا ومفاوز جبلية.

وعند مدينة Ringen قبيل ماينز اختفت الجبال، وانفسحت السهول الزراعية، ثم جزنا ماينز ثم مانهيم ذات المصانع العديدة للكيماويات، ثم عبرنا النهر إلى الضفة الأخرى، وبعدها بدت هيدلبرج التاريخية ذات الجامعة الكبيرة، والقلعة التي تشرف عليها من التلال حولها، ثم قاربنا ستتجرت ذات المناظر الخلابة؛ إذ تقع في وهدة تقوم حولها المرتفعات بزراعاتها وغاباتها وعليها الفلات البديعة، وعند مدينة Ulm بدا منحدر وعر تسلقه القطار بعد أن زُوِّد بقاطرتين، وظل يصعد والحرارة تهبط هبوطًا محسوسًا، والغابات تزيد كثافة. وسرنا طويلًا فوق هضبة منزرعة، وبعدها أخذنا في الهبوط، وبعد ذلك عبرنا الطونة إلى أوجزبرج ومنها إلى ميونخ.

(٩-٦) ميونخ

ويسميها القوم منشن، عاصمة ضخمة حقًّا تليق بمملكة عظيمة مثل بافاريا، فهي كسائر المدن الألمانية الكبرى ذات مبانٍ شامخة، وطرق ممدودة، كنائسها عديدة، وغالبها للكاثوليك. والقوم هنا متمسكون بالدين حتى إنك لترى في بعض الأزقة تماثيل المسيح وهو مصلوب؛ ولذلك قل تهتُّك النساء بشكل محسوس.

ومن أجمل مبانيها الراتهوس في هندسة قوطية فاخرة، ودار العدل في هندسة ألمانية ضخمة، والقصر الزجاجي عظيم الامتداد يقام كله من البلور، يشغله اليوم متحف

التصوير، ثم القصر الملكي في هندسة «الباروك»، حوله الحدائق وأبهاء الأعمدة، وتنتهي حديقته بقصر أعد للمتحف الحربي، وأمامه في وهدة قبر الجندي المجهول، وحوله مدافن أبناء بافاريا الذين ذهبوا ضحية الحرب الكبرى، ثم دارا المتحفين الفنيين القديم والحديث في هندسة إغريقية تحكي البانثيون. وعلى ربوة أقيم تمثال بافاريا الشهير، وتمثلها سيدة ترفع إكليلًا بيدها اليسرى، وتتكئ على أسد باليمنى. وعلو قاعدة التمثال ٦٥ سلمًا، وجوف السيدة ستون.

ويشق نهر «إيزر» المدينة في ليَّات مستملحة، وتعبره قناطر عدة، ولون مائه ضارب إلى الخضرة تشوبها زرقة كعادة الأنهار التي تستمد ماءها من الثلاجات، ولعل أهم ما في المدينة:

المتحف الألماني Deusche M.

الذي يعد الوحيد من نوعه في الدنيا، وهو وحده خير مبرر لزيارة المدينة، وإليك مثلًا ممَّا به: نماذج بالجص لبراكين العالم، ومن بينها فيزوف، وتغضن القشرة الأرضية، وحفريات لكائنات بائدة، وشهب سماوية، ومن بينها شهاب زنته ٩٠٩ كيلو جرام، ثم نماذج كاملة لجميع أنواع المناجم بآلاتها وعمالها وسراديبها التي قدت في عدة طوابق تحت الأرض آلاف الأمتار.

وترى تماثيل العمال في مختلف حركاتهم وأدوار أعمالهم، وأجملها مناجم الفحم والملح، ثم قسم للآلات التي يديرها الهواء والماء بحجمها الطبيعي، وفي أطوارها المختلفة، ويمكن إدارتها بسهولة، ثم معروضات لجميع وسائل النقل منذ نشأتها من عربات ودراجات وسيارات وسكك حديدية وسفن وطيارات وغواصات منذ اختراعها إلى أحدث طراز منها، والكل يمكن تحريكه، وهالني منظر سفينة كبيرة مقامة في صلب البناء نفسه بآلاتها وفرشها وأدواتها وكافة تفاصيلها، كذلك معدات الثغور والفنارات والمطارات والأسلحة والقناطر، ثم الساعات وتطورها، وكذلك آلات الموسيقى والراديو والأشعة، والأجهزة الهندسية والمترليوجية.

وفي الحديقة الخارجية طواحين وروافع وإشارات السكك الحديدية وأكشاكها وقضبانها وتحاويلها وغير ذلك مما لم أستطع إتمام استعراضه، فالمكان يتطلب درسه وتفقده شهورًا، مكان إذا دخله الزائر آمن بعظمة الأدمغة الألمانية، وجبروت عقولهم، فهو كفيل بأن يرفع رأس تلك الأمة رغم ما منيت به من هزيمة في الحرب الكبرى.



في حديقة المتحف الألماني بميونخ وترى إحدى مطاحن الهواء الكبيرة.

وكان يحيط بالمدينة سور قديم لا تزال ترى بقاياه وبواباته، وبالمدينة جامعة للطلاب كبيرة، ومما تجب زيارته في المدينة دار الجعة، أكبر مواطن البيرة وأقدمها في العالم — والجعة من أكبر صادرات بافاريا — فبناؤها القديم يتألف من أربعة طوابق في أبهاء متسعة، وأقبية سُقُفها مزركشة، وتقام على عمد ضخمة.

دخلت المكان فذهلت لما رأيت من الجماهير الغفيرة من أبناء الشعب البافاري، كل فرد بيده جرة من الصلصال تسع نحو لترين يتناولها من دولاب، ثم يقدمها لحارس الجعة يملؤها له فيحتسيها، ويعيد الكرة مثنى وثلاث ورباع، وترى البعض يحتسيها



دار الجعة في هندستها الألمانية القديمة بميونخ.

واقفًا بجانب برميل كبير من الجعة يضع كأسه عليه، ويغلب أن ترى ذلك في الدور الأسفل وغالب من به من العامة.

أما الأدوار العليا فللطبقة الممتازة، وفيها تجد المقاعد والمناضد من خشب ضخم منقوش، والمصابيح تتدلى في شكل دوائر متسعة ومزدوجة الثريات، وضوضاء المكان لا تخبو لحظة واحدة. هنا حقًّا يأخذ المرء فكرة صادقة عن الشعب البافاري، ومبلغ غرامه بالجعة وميله للمرح، وكم كنت مغتبطًا وأنا جالس وسط القوم وأمامي الجرة التي لم أستطع أن آتي على ثلثها! بينا كان بعض الأطفال يتناولها في لمح البصر.

خرجت من المكان إلى ملهى أمامه اسمه Platz عرض به أشباه ما نراه عند الكسار في مصر، وغالبه تمثيل للحياة الريفية الألمانية من عادات وأزياء ورقص وموسيقى، فكان يومي هذا مما روَّح عن نفسي وراقني كثيرًا.

(١٠) هولنده: بلاد السلام

دخلنا أرض هولنده وافدين من سهول شمال غرب ألمانيا، فلم نحس الفرق في المناظر المنبسطة تتخللها المطاحن الهوائية، وكانت السهول الوطيئة تمتد إلى الآفاق، فبررت أمامنا تسمية البلاد بهولنده؛ أي الأرض الجوفاء الوطيئة Hollow land، على أن تربة البلاد بدت كثيرة الأتربة التي ضايقتنا في القطار، فكنا وكأننا نسافر في صعيد مصر، وطرقها الزراعية رديئة متربة، والمروج تغص بالبقر الأحمر والأسود تزينه البقع البيضاء، والمباني بالآجر مختلف ألوانه يحلى بقليل من الحجر الأبيض.

ولا تخلو السهول من الشجر المتناثر، وبعض الجهات رملي التربة كأنه من صحاري مصر، وعجيب أن يحاول القوم الاستفادة منها بزرعها، وكان الصبية يمرون في جميع المحاط حاملين كئوس القهوة مجهزة؛ مما يشعر بحب القوم لها، ويبرر ما نعلم من أن الهولندي أكبر مستهلك للبن في العالم.

(١٠-١) أمستردام

ما أجملها! هي حقًّا تفوق البندقية خفة وروعة، وخير دليل على ذلك أن ما يشقها من قنوات سبعون، وما يعبرها من قناطر أربعمائة، تطوقها سلاسل من المياه في حلقات تبلغ نحو العشر عدًّا، الواحدة خارج الأخرى، وكل أولئك تقطعها قنوات مستعرضة تتجه نحو المركز، فأينما سرت ألفيت البيوت تقوم مقام ضفاف القنوات يرطمها موجها الهادئ.

وقد وقفت على قنطرة فكنت أرى من حولي قاب ثلاثة أمتار ثماني قناطر ذات اليمين وذات الشمال، ومن أمام ومن خلاف. وبعض تلك القنوات طبيعي؛ إذ المدينة تقوم على شعبة من بحر زويدرزي الضحل، والبعض صناعي حُفر ليزيد المكانة التجارية للمدينة أيام لم يكن ينافسها غيرها في القرون الوسطى، ويخترقها نهر عظيم الاتساع اسمه Amstel، كان قد أقيم عند مصبه سد بنيت على جوانبه بيوت المدينة عند نشأتها، ومن ثم حملت اسمها هذا، ومعناه «سد أمستل»، وتتشعب عنه عدة قنوات قرب مصبه.

وقلب تلك القنوات يمثل المدينة القديمة الذي يرجع عهد بنائها إلى القرن العاشر، وخلال الحروب الإسبانية في القرن السادس عشر فر إليها كثير من رجال الفن والتجار والصناع، فزادوا المدينة شهرة، وذاع صيتها بعد تأسيس شركة الهند الهولندية سنة ١٦٠٢.



أمستردام: قنواتها تجانب المساكن، والزوارق مطيتهم الرئيسية.

طرقها مختنقة قد لا يسع بعضها مرور شخصين متجاورين، ولا يكاد يصيبها شعاع من الشمس، وهندسة البيوت متشابهة، فهي من الآجر الملون، واجهاتها مسننة، وفي بعضٍ الحلية البسيطة، والطرق نظيفة، ويغلب ألا يكون لها إطار، وإن كان فواطئ لكي تعلوه العربات عند الضرورة، ومياه القنوات يكاد يلمس باليد من الطرق، والمدينة تعد الميناء الثانية لهولنده بعد روتردام.

وعجيب أن تقام كلها على مجموعة من عمد قد يبلغ الواحد عشرين مترًا غرست في الرمال والأوحال، ومن المدهش أن تبقى بيوتها قائمة دون أن تنهار، وإن ظهر في بعضها ميل مخيف، ويُظن أن الأعمدة قد تحجرت اليوم وزادت صلابتها من أثر الماء والطين.

وأكبر ميادين المدينة ميدان دام، وعليه القصر الملكي الذي يقام على ١٤ ألف من الأعمدة السالفة الذكر، بني سنة ١٦٤٨ عقب انتهاء حرب الثلاثين عامًا على أنقاض الراتهوس، واتخذه لويس نابليون، أخو نابليون الأكبر، قصرًا له عندما نُصِّب ملكًا على هولنده، وفي واجهته مائة نافذة متشابهة تطل على الميدان.



سدود هولنده التي تدفع غالة البحر عنهم.

ولقد مررت بدار شركتي الهند الشرقية والغربية الهولندية، وهما من الأبنية القديمة، وبعض البيوت التي كان يميزها القوم بقطعة حجر يحفر عليها رمز كل عائلة، وكانت تقوم مقام أرقام البيوت الآن، ومن بينها بيت نوافذه من زجاج إذا نظرت خلاله إلى داخل الحجرات بدت الألوان بنفسجية، وإذا نظرت منه إلى الخارج بدت الألوان بيضاء، وتلك مهارة كانت للقوم في صنع الزجاج قديمًا.

وثَمَّ حي لليهود الذين يبلغون ٧٣ ألفًا غاصٌّ بالحركة، وفيه بيتُ النابغةِ المِفَنِّ الذائع الصيت «رامبرانت»، الذي أنجبته أمستردام، فأهدى للعالم من آيات فنه دُررًا غاليات لا تزال تزين متاحف أوروبا جميعًا، وفي داخل منزله مجموعة قيمة منها، ولم يبق به من مجموع صوره البالغة نحو خمسمائة وخمسين سوى ثلاثين، وتمتاز صوره بما يبدو فيها من روح قوي، وأضواء ذهبية تبدو لك وكأنها وهج لنيران تضطرم من ورائها.

ولقد أقام القوم له تمثالًا وسط ميدان توج باسمه، ودفنت رفاته في كنيسة الغرب الشهيرة التي يشرف برجها على المدينة كلها، ويقال: إن لجمال المنظر في هذا الحي أثرًا في إظهار عبقريته هو وفيلسوف أمستردام النابه «سبنوزا»، وقد مررنا على داره التي ألصق القوم ببابها «نظارته» التي كان يستخدمها عند القراءة والكتابة.

وتمتد أحياء المدينة الحديثة في الخارج في شوارع فسيحة، ومتنزهات منسقة وبيوت ضخمة، ومن بينها الملعب Stadium، ويسع أربعين ألف نفس، وغريب أن تقوم تلك الأبنية الضخمة فوق تربة البلد الرملية الهشة. ومما زرناه دار فابريكة الماس، وتقام بالآجر الأصفر البراق في امتداد عظيم.

وهي أقدم معامل قطع الماس في الدنيا، وكذلك أكبرها، ولا يزال يشتغل بها ثمانية آلاف عامل، ولقد كان جو البلاد حارًّا مشمسًا على غير انتظار، وكانت مضايقة القوم بادية على وجوههم المقطبة التي تتصبب عرقًا. وتلك هي الموجة الحرارية التي مرت على غرب أوروبا عندئذ فمات بسببها الكثير، خصوصًا في إنجلترا. أما عندي فكانت تحكي أيام مصر القائظة في الصيف، وكان أفراد الجنس الأسود والصيني يجوبون الطرق بكثرة، وقد وفدوا من مستعمراتهم في جزائر الهند الشرقية للدرس، وكأني كنت أحس أن وجودهم بتلك الكثرة مما يبرر ذاك الجو القائظ الغريب.

قمنا من أمستردام صوب لاهاي بقطار كهربائي يسافر مرة كل نصف ساعة، فمررنا بهارلم وليدن، ثم دخلنا لاهاي بعد ساعة كاملة. أما المناظر فكانت مصرية بحتة بحقولها المبسوطة السندسية، وقنواتها العديدة، وشجرها المتناثر مع استثناء مطاحن الهواء المنتثرة. وفي الحق أن الشعب الهولندي نشيط مجد، كفاه فخرًا أن استنبت أرضه الرملية المقفرة، وغالب البحر وهو لا يزال يرده عنه بحر زويدرزي، وهم يفاخرون أنهم مدوا نصف بلادهم على حساب البحر، وفي أمثالهم المشهورة «إن الله خلق لهم البحر وهم أعدوا له شواطئه.»

ولا يزال يغير البحر عليهم أحيانًا برشحه الكثير، وقد يهدم الجسور التي يقيمونها لصده؛ ففي أخريات القرن الثالث عشر اجتاح ألف قرية كانت على أراضي زويدرزي في يوم واحد، وبعض جسورهم تعلو سطح الماء بأربعين قدمًا، والأراضي التي أصلحت داخلها قد تكون دون مستوى البحر بهذا القدر، فلو كسرت الجسور لغرق من بلادهم ٣٨٪ مرتين في اليوم؛ أي عند علو المد.

وتقام تلك الجسور في البحر من الرمل والأتربة ترصف جوانبها بالعشب والخشب، وقد تدك بالحجر، ثم تجفف الأرض من داخلها بمضخات يديرها الهواء، ثم تزرع كتانًا



الجبن في هولنده يعرض في كرات حمراء تكاد تكسو الأرض.

لتخف أملاحها، ثم يزرع بها البطاطس والبنجر والأعشاب للرعي، وقد تتعدد تلك الجسور بعضها أمام بعض، ومنتجات المرعى أهم ما في البلاد من لحوم وألبان؛ ولذلك شهرت بالجبن الفلمنك الأحمر الذي تعقد له أسواق خاصة نرى بها أكاديس الكرات إلى مد البصر.

وكثيرًا ما يتهكم الناس على هولنده فيسمونها «بقال أوروبا»، وأنت ترى القنوات أينما سرت في بلادهم، وبعضها كبير يصلها بالمحيط، والبعض صغير للنقل الداخلي زهيد الأجر، ولمقاومة فيض الأنهار، خصوصًا وأن الطرق البرية عندهم واهنة لا تحتمل ضغطًا كبيرًا؛ ولذلك قلما تسمع في الشوارع ضوضاء النقل، وجلبة العربات، فالبلاد ساكنة الحركة، والقنوات غاصة بالزوارق «الصنادل» يجر بعضها الناس والخيول، وغالبها الآن بالبنزين، وهي تُتخذ مساكن للكثير منهم، حتى قيل: إن من يقطنون الزوارق مائة ألف،



أعجب ما في أرديتهم غطاء الرأس للسيدات والأحذية الخشبية بالغة الحجم.

ولعل في بطء سير تلك الوسائل مبررًا لما هو معروف عن الهولندي من البطء في كل شيء: في التفكير، وفي العمل، وفي الكلام، بل وفي جميع تصرفاته؛ فهو يختص كل ساعة من زمنه بعمل، لكنه يسير في إنجازه ببطء ممل.

والهولندي سيئ الظن بالغير، شحيح في معاملاته المالية ومساوماته؛ ولذلك كان أبطأ من غيره في المغامرة في المشروعات الاقتصادية، ويؤخذ عليه شيء من قلة الذوق في الحديث؛ فهو صادق صريح لكن لحدِّ الإيلام، رذيلته الواضحة إدمانه على المسكرات. أما

نظافة مسكنه فخيالية، رغم إهماله في نظافة هندامه، حتى إنك لتعاف النظر إلى بعض المارة، فإذا ما دخلت منزل أحدهم هالك بريق جوانبه، ولمعان أثاثه، وشدة التأنق في تنسيقه إلى حد المضايقة.

ويروقك هندام القوم العجيب، فالرجال يلبسون شبه «سروال» فضفاض ينتهي عند العرقوبين، وجَمَّازة «جاكتة» محبوكة على الجسم، ومنديلًا معقودًا حول الرقبة، وتتدلى منه ذؤابة على الصدر كالكشافة، أما النساء فيرتدين على الرأس قلنسوة بيضاء ذات جناحين جانبيين مشرفين، وجلابيب محبوكة طويلة تنتفخ من أسفلها، وتلبس عليها «فوطة» ألوانها زاهية، وأحذية الجميع من خشب تحكي مركوب فلاحي مصر، طرفها مقوس إلى أعلى، ويقال: إنها أطول أحذية في العالم.

وأحب وسائل الرياضة لديهم السباحة وقيادة الزوارق، وكذلك ركوب الدراجات التي أضحت مطيتهم المحبوبة في انتقالاتهم حتى بين القرى، ولقد بلغ عدد الدراجات في أمستردام نصف المليون مع أن مجموع سكانها سبعمائة ألف.

وكان يجتذب أنظارنا في بعض الحقول عنايتهم بفلاحة البساتين، وتربية الزهور التي كانت تبدو أمامنا وهي تكسو الأراضي في صفوف متوازية إلى مد البصر، وفي ألوان جذابة كأنها الطنافس الزاهية؛ وذلك يدل على مبلغ غرامهم باقتناء الزهور.

(١٠-٢) لاهاي

ويسمونها هيج بإمالة الهاء، وهي محرفة عن Hedge، أو السياج، ذلك لأن أول من حلها من الكونتات أقام لها قصرًا، وأحاطه بسياج، وهي مدينة نظيفة جدًّا، لكنها موحدة المناظر تحكي أحياء مصر الجديدة عندنا في ازدحام مبانيها ذات الهندسة المتشابهة، وبها مجموعة من الشوارع المتسعة يتوسطها صفان من الشجر، على أن أمستردام في نظري أخف روحًا، وأوفر جمالًا، وخير ما رأيت فيها:

قصر السلام Palace of Peace

وهندسته هولندية بحتة، ويبنى بالآجر، وهو من الداخل فاخر الزخرف، فخم البناء إلى حد كبير، تبرع لبنائه الممول الأمريكي «كانيبي» بمليون ونصف مليون ريال، وقد أهدت إليه غالب الدول ما فيه من أثاث، نذكر على سبيل المثال: المدخل الخارجي بأسواره،

وقد أهدته ألمانيا، والمدخل الثاني قدمته بلجيكا، والرخام والمرمر المزركش تقدمة من إيطاليا، والمصابيح الفاخرة من النمسا، وبعض الجرار «فاز» من المجر، وزجاج النوافذ الملون كالمساجد من إنجلترا، والصور الزيتية الكبيرة التي تحلى بها الجدران من فرنسا، والفوارة التي تتوسط فناءه من دانماركة، وتمثال قيم للمسيح من أرجنتينا، وآخر للحرية من بعض مقاطعات الولايات المتحدة، والبساط الكبير الذي يملأ حجرة المؤتمر من تركيا، والحرير الذي تبطن به بعض الجدران من اليابان، والمحابر الفضية النفيسة من إسبانيا، وخشب المقاعد والمناضد الثمين من البرازيل، وجرة بها نقوش صينية من الصين، وأخرى مرصعة بالذهب من الروسيا.



دار السلام في لاهاي.

وكنت أتوقع أن أرى هدية مصرنا ذات السخاء والكرم، لكن لسوء الحظ لم تقدم شيئًا يعلن عنا بين تلك الأمم المتحضرة. وفي اعتقادي أن هذا ممكن الآن، وفيه معنى جليل؛ إذ يدل على مشاطرتنا العالم المتمدين في حب السلام والعمل على تأييده. حقًّا إنه لقصر

تطمئن النفس فيه، وتحس الهدوء والطمأنينة؛ لأنه في معناه ومبناه فأل السلم وبشيره، وقد نقش القوم على أرض المدخل ما معناه «تظل شمس السلام مشرقة علينا».

ثم زرت قصر الملكة، ويتقدمه تمثال فارس يمثل وليم الصامت، ولا بأس بضخامته من الداخل، وأبدع ما به غرفتان: إحداهما هدية من اليابان، وتظهر بها العبقرية اليابانية في التطريز، ودقة خرط العاج والخشب، والأخرى من الصين، وهي لا تقل عن الأولى رواء وإتقانًا، وتكسو قبته الوسطى صور زيتية رائعة للمصور الفلمنكي المبدع «روبنز»، وكلها ترمي إلى معانٍ تاريخية. وهنا لأول مرة ذكرت الفاتكان وإبداع رفائيل وميكلانج، وأعجبني في أحد الميادين نصب تذكاري لهزيمة نابليون سنة ١٨١٣، وإقامة وليم الأول ملكًا على هولنده.

وللعاصمة ضاحية على بحر الشمال بينها غابة كبيرة، والضاحية فاخرة المباني فخمة الأنزال، وتعد خير مصايفها، يمتد رصيفها على البحر خمسة كيلومترات في تنسيق رائع، وعلى مدرجاته الرملية تقوم أكشاك السباحة المزركشة المتشابهة. وهنا تبدو كثبان الرمل التي تحف بشواطئ هولنده على بحر الشمال في وضوح، وفي نهاية الرصيف ميناء صغيرة للصيد، ويقطنها نحو ١٢٠٠ سماك، ولهم مدرسة لدرس السمك وما يتعلق به؛ مما يشعر بأهمية مهنة الصيد عندهم. وسمك هولنده جيد النوع بفضل تمليحه في السفن بمجرد صيده. وفي هذا المكان نصب تذكاري للموقع الذي رسا به وليم من إنجلترا.

(١٠-٣) روتردام

وصلتها بقطار كهربائي في نصف ساعة، وتبدو لأول وهلة قاتمة غير جذابة؛ فمبانيها متراصة شاهقة، وليست على نسق واحد، وقليل منها في هندسة هولندية، والحركة التجارية بها كبيرة، ولقد مررت بتمثال «أرزم»، وهو خير من أنجبته المدينة، وطفت بغالب أرجائها، ثم أخذت زورقًا بخاريًّا وجُبْت نواحي مينائها، فبدت عظمة المدينة التجارية في سفنها المتراصة في غير حصر، وضوضائها التي لا تخبو.

وهي تقع على مصب نهر ماس «الميز» المتسع العميق الذي يُكوِّن القسم الأكبر من الميناء، وعنده تكثر ألسنة البحر تتوسطها بعض الجزائر، والماء داخل الميناء مائج مضطرب من تقابل تيار النهر بماء البحر. أما خارجها فهادئ، ومظهرها يدل حقًّا على أنها أكبر المواني التجارية بهولنده اليوم، وأنها كانت قديمًا أكبر مواني غرب أوروبا

قاطبة، ويشقها عدد كبير من القنوات كسائر بلاد هولنده، وفي بعض أحيائها ترى صفًّا مستطيلًا من الأبنية توازيه قناة، ثم يتلوه آخر فقناة وهكذا.

(١١) الدانماركة: بلاد الديمقراطية والتعاون

قمت من برلين قاصدًا كوبنهاجن عاصمة دانماركة، في ٢٤ أغسطس، فأخذت قطار الثامنة والنصف صباحًا من محطة Stettiner وكانت ليلتنا ماطرة، وظل الوابل طوال النهار والليلة التالية، والبرد كأنه شتاء مصر، وسرنا خلال سهول تكسوها الخضرة والأشجار حتى وصلنا فارنمند على البلطيق في منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر. وهنا انزلق القطار كله إلى سفينة طويلة منتفخة الوسط ferry boat، ثم فصلت عنها القاطرة، وعجيب جدًّا أن يسع وسطها صفين من العربات الكبيرة في كل صف ست عربات، وحول هذه تصف حجرات المسافرين في ثلاثة طوابق، وتوسق بعض البضائع، وفي السفينة نُزل فخم تناولنا فيه الغداء، ثم أقلعت بنا في عرض البلطيق الذي غابت عنا شواطئه إلى الساعة الثالثة حين وصلنا Gedeser على جزيرة دانماركية.

وهنا جرتنا قاطرة برًّا وسارت في سهول مبسوطة كثيرة النبت والمراعي بأنواعها، تجملها بيوت صغيرة تبنى بالآجر الأحمر الجذاب، وسقفها مثلثة سريعة الانحدار، لكنها مشطورة الجوانب، ثم وصلنا الماء ثانية، وحللنا بالقطار سفينة أخرى نحو ساعة، ثم إلى بر آخر، ومنه على كوبنهاجن. وكانت الجزائر تمتد حولنا في جميع الآفاق، وبفضل تعدد تلك الجزائر كانت دراية القوم بركوب البحر كبيرة حتى إن بواخرهم التي تمخر عباب بحارهم أضحت من الأعاجيب، وبلغت تلك العوامات السابحة بين الجزائر بنظام محكم جدًّا من الإتقان فاق نظائرها في بلاد العالم أجمع. وعددها اليوم يناهز أربعة وعشرين، ويبلغ مجموع ما تنقله من الأحمال مليونًا من الأطنان، وكذلك مليونًا من المسافرين في كل عام.

(١١-١) كوبنهاجن

حاضرة الدانماركة التي تغص بما لا يقل عن ثلاثة أرباع المليون من أهل دانماركة البالغ عديدهم ثلاثة ملايين، ولذلك فإنها جمعت كل مظاهر العظمة في البلاد، وما عداها من المدن قرى لا تذكر إلى جانبها، ولها موقع جميل على الساحل الشرقي لجزيرة زيلند

— طفت أرجاءها مشيًا — فبانت لي أعظم أرجائها على امتداد طريق رئيسي يشقها في الوسط، تتوسطه ميادين غير جذابة يعوزها التماثل في هندستها.



مؤخر الباخرة التي تحمل في قلبها قطارين حديديين عبر البلطيق ومن ورائنا بلاد السويد.

وهنا معظم المحال التجارية ودور السينما والملاهي ومباني المدينة متشابهة، هندستها ساذجة في شكل مكعبات، يعلو وسطها برج كأنه منشور رباعي ينتهي بهرم. ويندر أن تقع العين على بناء مخالف، ولكنها بالآجر الأحمر. والبحر يطوق المدينة بألسن لا حصر لها، فأينما سرت في استقامة لاقيت شعبة من البحر بها البواخر والزوارق والمراسي وصيادو السمك ينظفونه، ويلقون بأحشائه في اليم، ويعرضونه في زوارقهم للبيع، وبالمدينة عدد لا بأس به من المتنزهات أشهرها Tivoli، وبه مجموعة من الألعاب والأراجيح والمقاهي، ويضاء بثريات الكهرباء ذات الأشكال البديعة في شيء من الإسراف ليلًا، ويعد أكبر مكان للتسلية في تلك البلاد.

والناس هنا يلاحَظ في وجوههم بعض الاختلاف عن الألمان والنمساويين، خصوصًا في شدة حمرتهم، وصفاء زرقة عيونهم، وعرض أنوفهم قليلًا، وهم دون سابقيهم جمالًا

وجاذبية، على أنهم مرحون نشيطون نظيفون، وتراهم يستخدمون الدراجات مطية لهم صِبية وشبانًا وشيوخًا، نساءً ورجالًا، وخير ما تتجلى نظافتهم في هندامهم الأنيق ومأكلهم.

ولقد عد طهاتهم أنظف طهاة أوروبا وأمهرهم، وإن لم يرقني غذاؤهم كثيرًا، فكلُّه مسلوق، ويكثر لحم الخنزير، والدانماركيون كثيرو الأكل، فهم يفوقون في ذلك حتى أهل إسكندناوة؛ إذ يتناولون بين أربع وست أكلات ثقيلة في اليوم، ولا تخلو أكلة من طعامهم المغذي المحبوب الذي يسمونه «سمور برود»، ومعناه الخبز الملطخ، وهو مزيج من الخبز والزبد والبيض، وقطع الدجاج والسمك ولحم الضأن، وبعض الخضر، كل ذلك يقدم إليك مختلطًا كالسندوتش.

وفي المطاعم يصدر به الأكل، فيشعر المرء بامتلاء عند تناوله قبل أن تقدم له الأطعمة الرئيسية، وترى بائعيه يتجولون في الطرق بعربات يدوية صغيرة يجهزونه لك على الفور، وكم كان يدهشني وأنا أجلس إلى مائدة الطعام في النُّزل منظر القوم يلتهمون الطعام التهامًا، وبسرعة عجيبة، رغم كثرة الكمية التي تُقدم إليهم من البطاطس المسلوقة واللحوم، والطعام القومي السالف، وأنواع من الحلوى تحكي العجين يمزج باللبن والعسل تعافها النفوس!

ومستوى الثقافة عالٍ بينهم، فهم متعلمون جميعًا، وليس للأمية أثر بينهم، وميلهم للتعاون فطري، وليس لمدارسهم برامج مسطورة، بل يترك أمر تخير المادة للأستاذ الذي يدرس ما يراه صالحًا، والامتحانات العامة تكاد تكون معدومة. وهذا يدل على مبلغ نزاهة أساتذتهم، وكبير ثقة القوم فيهم، ولا يشترط في الأستاذ أن يكون حائزًا لإجازة علمية، بل يكفي أن يكون غزير المادة، حسن النظام، كبير الشخصية، جذاب الحديث. ولعل هذا النظام التعليمي الحر الذي بني على أساس عملي، والذي يرغب فيه النشء للعلم الخالص لا للشهادات والإجازات هو سر نجاحهم التام في شئون الزراعة والرعاية، بحيث أصبحوا قادة العالم وهُداته في هذه الناحية.

والتعليم العالي عندهم قسمان: قسم للتاريخ، ويدرس به تاريخ الأمم الشمالية، والتاريخ العام، وتاريخ الأدب والكنيسة والحضارة، وقسم للبحث الطبيعي، ويشمل الفلك والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا، والنابهون من علمائهم كثيرون في مختلف العلوم، نذكر من بينهم: تيكوبراهة في الفلك، وأوريستد في التلغراف الكهربائي، ونيلز فنستين في الطب، وبولسين في اللاسلكي، وفيلهم أندرسن في اللغات. وهذا يدل على أن نظام التعليم الحر الذي يعيب عليه البعض تطرفه في الإباحة يؤتي ثماره الطيبة بينهم.



كوبنهاجن: أمام دار الاستشارة وهي في هندسة دانماركية بحتة.

وأظهر المدارس هناك الزراعية، تلك التي بلغت شأوًا بعيدًا من التقدم، وكفاهم فخرًا أنهم أخصبوا موات أرضهم المجدبة الفقيرة بمجهودهم العلمي؛ ولذلك يؤمها الخلق من مختلف بلاد العالم لدرس نظامها الزراعي البديع. وثلث مساحة البلاد مجزأ في أربع وأربعين جزيرة، ونصف سكانها مزارعون، وغالبهم متيسرو الحال، بل وأغنياء، والفضل في تقدمها الزراعي يرجع إلى: نظام الملكية الحكيم، وإلى ثقافة القوم، وإلى ميلهم الفطري للتعاون.

ولقد ظل القانون أمدًا لا يبيح شراء الأرض من مالكها إذا كان فلاحًا، وكذلك فهو يحتم على الفلاح الذي يستأجر أرضًا أن تكون الإجارة مدى حياته، وتكاد تثبت قيمة الإجارة أجيالًا عديدة لا تزيد ولا تنقص، وكثيرًا ما تقرض الحكومة صغار الفلاحين المال إذا ما أرادوا شراء أراضٍ جديدة، وكذلك تضطر كبار المُلاك أن يبيعوا شيئًا من أملاكهم، وبذلك أصبح نحو تسعين في المائة من الأراضي ملكًا لصغار المزارعين، ولا تقف ثروة البلاد على غنى أرضها بقدر ما تقف على جودة العمل والفطنة في الإنتاج.

ولقد كانت البلاد غنية بإنتاج القمح، ولما انحط سعره لكثرة إنتاجه في الخارج عمد غالب الفلاحين إلى الاستعاضة عنه بالمراعي التي لا تتطلب من الجهد والأيدي العاملة ما تتطلبه زراعة الحبوب، واستحالت البلاد من مصدر للغلال إلى مستورِد لها بعد إعفائها من ضرائب الوارد. وفطن القوم إلى قيمة الصناعة فأنشئوا المصانع تحت إشراف الهيئات التعاونية لإعداد اللحوم ومنتجاتها، وأصبحت البلاد تصدر من منتجات المرعى والدواجن أضعاف ما كانت تجنيه من صادراتها الغفل من قبل، فهي تصدر من الزبد المشهور بنحو ١٤ مليون جنيه لإنجلترا وحدها.

وقد أصبحت البلاد غاصة بالمتعاونات التي ينتسب إلى عضويتها جميع الفلاحين، وقد يشترك الفرد في أكثر من عشر جمعيات منها؛ يحضر جلساتها، فيزيد هذا في ثقته بنفسه، ودرايته بعمله، وشعوره بالمسئولية، واستعداده للتضحية، وتمتاز المتعاونات الزراعية هناك بأن أموالها ليست مستمدة من الفلاح، بل من المصارف تحت مسئولية أعضائها. وهذا سر نجاحها العظيم، ولعل ثقافة الفلاح كانت خير معين على ذلك النجاح، وأثرها جليل في تحسين الإنتاج وزيادته، ولقد زاد إنتاج البقرة الواحدة مثلًا من ١١٦ رطلًا من الزبد في العام إلى ٢٢٠، ومن ٥١٠ جالونًا من اللبن إلى ٥٥٤، ويناهز عدد البقر الحلوب عندهم المليون.

وأصبحت الزبدة الدانماركية أجودها في الدنيا، وتقدر بأربعين في المائة من مجموع الصادرات، وشجعت المتعاونات إقامة المصانع ومحطات الكهرباء، وهي الآن تمتلك ٢٥٠ محطة كهربائية كبرى لإنارة القرى وطحن الغلال.

والحكومة تكاد تشرف على كل شيء، وتتدخل في جميع الأعمال، فهي أشبه بأوتوقراطية يسوسها قوم مصلحون، والاشتراكية الفردية سائدة في بلادهم.

زرت من متاحفهم: المتحف الأهلي، وبه مجموعة كبيرة من الآثار الدانماركية، وبه قسم لتطور المدنية في بلادهم يعرض به كثير من مساكنهم وأثاثهم ونسيجهم، وثم قسم

ثالث للشعوب، ويعطي صورة لحياة الإنسان في مختلف العصور والبلاد، ثم متحف Glyptothek وبه معروضات آيات الحفر الدانماركية والفرنسية، ويقال: إن المجموعة الفرنسية التي به أوفى مجموعة من نوعها خارج فرنسا، وفي قسم منه قطع من الفن القديم الإغريقي والمصري والروماني ومخلفات تدمر، وهذه أكبر مجموعة من نوعها في العالم.

وخير ما راقني من الفن المصري تمثال صغير من برونز لآمون مطعم بأسلاك الذهب حول العنق، وفي اليدين والأذنين وفوق الرأس بشكل يجتذب جماله الأنظار. وبالمتحف قسم للصور الزيتية البديعة، ثم متحف Thorvaldsens باسم مهديه، وبه خليط من قطع أثرية وصور فنية، وكان صاحبه مصورًا دانماركيًّا ماهرًا أهداه لأُمَّته، وهو مدفون في فنائه الأوسط.

ومن الأبنية التي تهول السائح لضخامتها وهندستها الهولندية البحتة «الراتهوس»؛ أي دار الاستشارة، وهو يشرف على أكبر ميادين المدينة، وكلف نحو ستة ملايين من الكرونات به ستمائة حجرة وخمسة طوابق، وعلو برجه ١٠٦ أمتار، به ساعة تدق نغمة موسيقية طويلة مرة كل ربع ساعة، ثم عدد الساعات كلما كملت ساعة، ورنينها يكاد يسمعه كل أهل المدينة وأبهاؤه وردهاته في فخامة ورواء.

قصر كرستيا نزبرج

أحد القصور الملكية الرئيسية، وهو أقدم القصور الملكية، لكنه جدد سنة ١٩٠٦ بعد أن احترق مرات عديدة، ولا تزال أنقاض القصر القديم وبقايا جدرانه تحفظ في أسفل المكان ليزورها الناس كأنها متحف. يقيم الملك فيه الحفلات، ويستقبل الزوار والسفراء. والحق أنه فخم لدرجة كبيرة، فآيات الحفر والنقش بالذهب والفضة وأنواع الرخام والمرمر مختلف ألوانه مما يدهش الناظر، وحجرة العرش مبطنة بالبسط والحرائر من نسيج ليون في لون أحمر رهيب، وجناح منه خاص بالبرلمان، وغُرفه في بساطة.

وتزين ردهاته صور للأعضاء والوزراء في جميع الأزمان، وبين الوزراء سيدة كانت وزيرة الزراعة سنة ١٩٢٤. وثم صورة بديعة للمؤتمر الدولي لمقاطعة شلزفج التي ضمت للدانماركة من ألمانيا سنة ١٩١٨، واسترعى نظري إناء Vase فخم أهداه البرلمان الفرنسي للبرلمان الدانماركي، وهناك ترى الدستور مسطورًا وممهورًا بإمضاء الملك كرستيان العاشر الحالي سنة ١٩١٥، وهو موضوع داخل سلة من فضة غطاؤها من زجاج، وفي

داخلها المحبرة التي كُتب بها، وقد بلغ من ديمقراطية الشعب ومليكه أن الملك يخرج وحيدًا يمشي على رجليه، أو يمتطي جواده كل يوم وهو يجوب أطراف المدينة في غير حراس يحيي الناس وهم يحيونه وكأنه واحد منهم.

ولقد رأيته مرارًا وهو يرفع قبعته تحية لأقل الناس مقامًا. هذا ولقد أبطلت دانماركة عادة تتويج الملوك منذ عهد جد الملك الحالي؛ لأن الناس رأوا أن حفلات التتويج مُتكلِّفة، فضلًا عن نفقاتها الباهظة، وللناس كامل الحرية أن يتريضوا في حدائق القصر على مسمع من الملك، والقصور كلها يزورها الجميع في مواقيت معينة. كل ذلك يؤيد ما هو معروف من أن أهل دانماركة هم المثل الأعلى للديمقراطية؛ فالرجل منهم يرفع قبعته احترامًا لأحقر الناس حتى للخادم، وقيمة المرء عندهم بعمله فقط، وفوارق الطبقات معدومة، والمميزات والحقوق الموروثة لا أثر لها عندهم.

وقد خلف ذلك أثره في التسامح الديني عندهم، وفي إباحة الطلاق للجميع على أن يكون ذلك في السر لا في العلن؛ ولذلك كثر الأبناء غير الشرعيين بينهم، والقوم لا يعدون ذلك عيبًا، بل أمرًا طبيعيًّا لا عقاب عليه. وفي خلقهم التسامح العام والمسالمة لا يقع بينهم شجار قط، ولا يتعرض أحدهم بالإهانة للغير، وإن حدث ذلك كان عقاب القانون قاسيًا. وتلك لا شك من آثار البيئة الزراعية، ويتحدث الكثير منهم في نزع السلاح، وتسريح الجيوش، والاستغناء عن الأساطيل، ولا يرون فائدة في بقائها، ويعتقدون أن الوقت قد حان لإنفاذ تلك الرغبة.

أما مقام الملك ففي قصر Amalienborg، وقسمه الأوسط خاص بالاستقبال، وبه غرفة العرش، وجناحاه مقوسان: الأيمن للملكة، والأيسر للملك، وأمامه ميدان فسيح يتوسطه تمثال فريدريك الخامس من البرونز، ومن عمل المثَّال الفرنسي الذائع الصيت Slay، وقد بلغت أكلافه حدًّا خياليًّا؛ إذ ناهزت ربع مليون جنيه.

ومما يسترعي النظر في المدينة ميناؤها التي تغص بالسفن من كافة الأشكال والأحجام، وهي في حركتها وقلة نظافتها تحكي ميناء الإسكندرية القديمة، على أنها كثيرة الشعاب التي تعبرها القناطر في كل اتجاه، بحيث كثيرًا ما ترى جزءًا من المدينة يحوطه الماء من كل جانب، وفي إحدى تلك النواحي الجزرية زرت كنيسة Frelser kirke، وهي شاهقة وذات أقبية كثيرة من الداخل، وأخص ما يلفت النظر بها برجها الذي نصعد إليه بسلم حلزوني من خارجها يشبه مئذنة ابن طولون، وقبتها خضراء اللون يزينها طلاء الذهب، وتفوق المائة متر في العلو.



دستور دانماركة في مدخل البرلمان يحوطه إطار مرصع فاخر.

ومستوى المعيشة هنا مرتفع لدرجة كبيرة، وقد قابلت أحد الإسرائيليين المصريين هناك، حادثني طويلًا وأفهمني أن المقادير طوحت به أن يشتغل بالشئون التجارية في كوبنهاجن، وهو يشكو مر الشكوى من الغلاء الفاحش؛ لأنه ينفق دخله البالغ أربعين جنيهًا في الشهر، وهو يشعر أنه في ضيق مالي. ويبدو الغلو في أثمان الملابس، فمتوسط ثمن البذلة الواحدة تسعة جنيهات، والحذاء مائة وثمانون قرشًا، ولعل دانماركة أغلى البلاد التي زرتها جميعًا، وتكاد تشبهها في هذا الغلاء بلاد السويد والنرويج، ثم هولنده وألمانيا على عكس دول وسط أوروبا وجنوبها، فتكاليف الحياة فيها أقل بنسبة واضحة.



ملك دانماركة على جواده يحيي المارة في غير حراس.

(١١-٢) إسكندناوة: موطن الغابات والطبيعة الساحرة

لعل أصفى ما يكون الجنس النوردي في تلك البلاد، وهم شعبة من القوط اتخذوا القرصنة عملًا لهم، وركبوا البحر ونزلوا جزائره وأجوانه، ثم استوطنوا بلاد إسكندناوة النائية فلم يمتزجوا بغيرهم كما حدث مع أقربائهم من الإنجليز والألمان والهولنديين والدانماركيين، وهم لا يزالون يمتازون بالشعر الأصفر والعيون الزرق والقوام الشامخ، وهم الذين وصلوا جرنيلد وأمريكا قبل عهد كولب بخمسة قرون، وكانوا معروفين بشدة البأس والوحشية



وسط ميدان القصر الملكي «أمالينبرج» في كوبنهاجن.

التي استحالت اليوم إلى حب للمخاطرة، ومغالبة لقوى الطبيعة من جبال وثلوج وغابات وسيول.

وكفاهم فخرًا أن أنجبوا أمثال أمندصن ونانسن من كبار الكاشفين. وأهل السويد أغنى من جيرانهم سكان النرويج؛ ولذلك كانوا أميل إلى الأرستقراطية، وبدت فوارق الطبقات بينهم واضحة على عكس النرويجيين المعروفين بحبهم للديمقراطية واحترام النفس، حتى إن الخادم والحوذي ليخاطبك وكأنه من أندادك، ويقطن أطراف إسكندناوة أمم اللابلنديين والفنلنديين. وهم من أصل مغولي طاردهم النورديون إلى الشمال لما أن حلوا تلك البلاد، وهم لا يزالون يحافظون على كثير من مميزاتهم الجنسية؛ كاستدارة الرأس، ونتوء عظام الخد، وانتفاخ العيون وانحرافها، وتفرطح سحنهم.



إسكندناوة في الشتاء: ونرى بعض ملاعبهم فوق الجليد وبيوتهم الخشبية وطرقهم في نقل الأخشاب.

وهم يحلون بلادًا فقيرة لا عمل لهم فيها إلا صيد السمك وإعداد الفراء، ورعاية قطعان الرنة، على أن الجزء الواقع في السويد غني برواسب الحديد، حتى إنك لترى على مقربة من مدينة جلفارا «شمال السويد» جبالًا من الحديد الخالص في مجموعها، وكذلك في كيرونا، ويصدر منه قدر كبير بفضل الخط الحديدي الذي أنشئ خصيصًا لهذا بين رأس خليج بوثنيا وثغر نارفك شمال غرب النرويج.

والعمل يستمر هناك حتى في ظلام الشتاء على أضواء الكهرباء المتوهجة، وعدد اللاب دون ثمانية آلاف، والفن نحو ثلاثين ألفًا.

قمت من كوبنهاجن قاصدًا ستكهلم، وبعد عبور أحد مضايق البحر البلطي نزلت مالمو من أعمال السويد، وهي مدينة صغيرة لا بأس بتنسيقها، وتعد من الثغور التجارية، ثم أخذت القطار الذي سار بنا في سهول فسيحة لا يزال يُحصَد بها الشوفان والشيلم، وبعض القمح والكتان الذي يكاد ينسجه الجميع بأنوال يدوية في المنازل. أما الغابات فحدِّث عنها، فهي تكاد تملأ كل البقاع وهادًا ونجادًا، وفي كثافة جعلتني أفهم حقًّا أن تلك البلاد منابت الغابات وموارد الأخشاب؛ فالمنازل كلها من الخشب تقام في هندسة أنيقة،

وتطلى باللون الأحمر، ومقاطع الخشب ومناشره تملأ الآفاق، وقاطرات السكة الحديدية تمر تباعًا وهي تحمل وسقها من منتجات تلك الغابات.

وفي بلاد السويد وحدها ١١٠٠ مصنع كبير لنشر الخشب، أشهرها يقع على سواحل خليج بوثنيا، وذلك بفضل الغابات التي تغطي نصف مساحة السويد، وبفضل الأنهار السريعة ذات المساقط المائية العديدة، وتلك تعوم فيها أرماث الخشب إلى المساقط؛ حيث تستخدم قوة الماء في إدارة الأرحاء والمناشر، وفي توليد الكهرباء، كل ذلك كنت أشاهده طوال الطريق.

ولعل مدينة Sundsvall على خليج بوثنيا «٦٢°ش» هي وسط صناعة الأخشاب، يحيط بها ثلاثون مصنعًا لنشر الخشب وإعداده. ولقد أصبحت الكهرباء زهيدة القيمة ومنتشرة حتى في أحقر القرى، وقد كانت قرية Hernosand شمال ساندزفال أسبق بلاد أوروبا في الإنارة بالكهرباء، وبفضل انتشار الكهرباء عمَّ استعمال التلفون، ورخصت أجوره، فهي لا تعدو جنيهين ونصفًا في العام؛ ولذلك كان السويديون أكثر الناس استخدامًا للتلفون؛ إذ دل الإحصاء الأخير على أن لكل خمسة أشخاص من السكان تليفونًا واحدًا.



اللابلنديون في شمال إسكندناوة.

ظل القطار ينهب الأرض في سرعة مخيفة ساعات ناهزت الاثني عشر حتى وصل ستكهلم، وكان الإقليم يغص بالمنافع والبحيرات والغدران التي خلفتها ثلوج العصر الثلجي حين اجتاح البلاد جميعها، وعرى تربتها، وخلف بها تلك القيعان. أما طبيعة

الأرض فصخرية نارية قديمة، أظهر صخورها الجرانيت الذي يصدر القوم منه مقادير كبيرة لبلاد الدانماركة ذات التربة الرملية.

وكان يكسو حطام تلك الصخور البقاع الوطيئة، فتصبح خصبة زراعية، ولا تخلو بقعة من الخضرة تزينها الزهور الجميلة؛ مما جعل مناظر الطريق رائعة، والبلاد شاسعة مترامية الأطراف نادرة السكان بحيث لا يعدو مجموعهم ستة ملايين؛ ولذلك كانت مساكنهم مبعثرة غير متجاورة ولا مكتظة. هذا وفي الطرق الحديدية وأنفاقها ومناظرها ولياتها ومسالكها وسط تلك الصخور العاتية دليلٌ على مبلغ المجهود الفني، والقدرة الهندسية التي يبذلها القوم في مغالبة الطبيعة؛ ولذلك ليس بعجيب أن تكون أجور السكة الحديدية عندهم غالية. ولقد أخضعوا كثيرًا من الخطوط لقوة الكهرباء، وهم جادون في كهربة ما بقي منها.



الأنوال اليدوية لنسج الكتان توجد في غالب بيوت إسكندناوة.

(١١-٣) ستكهلم

ومعناها مجموعة جزائر (Holm: جزيرة)، وتسمى بندقية الشمال ذات موقع لا يبارى حسنًا؛ فهي تقع على مجموعة من جزائر وأشباه جزائر على بحيرة مالار، فإلى شرقها تنتثر الجزائر تكسوها غابات الصنوبر، وتمتد النواتئ الصخرية مسافة ثلاثين ميلًا؛ مما يكسب مدخل مينائها من البلطيق منظرًا فذًّا، وإلى غربها تقوم ضواحيها على شواطئ



ستكهلم مدينة الجزائر والقناطر.

البحيرة وصخورها مسافات بعيدة، وأينما وليت في المدينة أشرفت على أفق صافي الزرقة، إذا سلكت سبيلك إليه وصلت إلى لسان من البحر يلتوي يمنة ويسرة، وتعبره القناطر، وتحف جوانبه المتنزهات بأشجارها الباسقة، وتشرف نصف بيوت المدينة على الماء، وتُنقل نصف متاجرها بالسفن والباقي بالعربات التي تنزع عنها عجلاتها فتصبح مزالق تسير فوق الجليد. وقد جمدت المياه من حولها إبان الشتاء، والمدينة لا تخبو حركتها قط؛ فأهلها ذوو نشاط وجدٍّ في النهار، ولهو ومرح في الليل، وهم يناهزون نصف المليون عدًّا.

ولقد صدق من أسماها بندقية الشمال؛ لأنها أذكرتني بالبندقية عندما رأيت بحيرة مالار وشعابها التي تحكي «جراند كنال في فنسيا»، وكذلك حين وقع نظري على أضخم بناء فيها؛ وهو الراتهوس أو دار الاستشارة ببوائكه وهندسته الغريبة، وهو يرمي ظلاله على مياه البحيرة ببرجه الرباعي الشاهق وكأنه قصر الدوج وسان ماركو في البندقية،

على أن كثيرًا من جهاتها يُقام على رُبًى شاهقة قد يستعين المرء على ارتقائها بمصاعد كهربائية أشهرها مصعد كترينا؛ ولذلك ترى طرقاتها تعلو وتهبط، ويسير بعضها تحت بعض، وهي في ذلك تخالف فنسيا.

وأقدم أحياء المدينة يقع على جزيرة Staden، ويسميها القوم بالبلدة بين القناطر؛ لأنها تتصل بحيراتها بقناطر من جميع جوانبها، جُسْتُ خلالها فإذا بها مجموعة من أزقة مختنقة متلوية لا يكاد يسمح غالبها لأكثر من اثنين بالمرور في وقت واحد، وفي شمالها الشرقي القصر الملكي أقيم سنة ١٧٦٠ في هندسة عصر النهضة الإيطالية، وقد زرته فإذا به آية في الزخرف والرواء، يحوي مجموعة قيمة من الستائر والبسط والأنسجة الموشاة التي تُكسى بها الجدران، وقد جيء بها من فرنسا عهد جستاف الثالث، وليس لها اليوم نظير حتى في فرنسا نفسها.



في أحد أزقة ستكهلم المختنقة.

وعلى مقربة من السراي قصر الأشراف Riddarhaus من نمط الباروك، ولعله أجمل بناء في المدينة كلها. يرجع عهده إلى القرن السابع عشر حين أقامه أشراف السويد لعقد

مجتمعاتهم السياسية والاقتصادية، يوم أن كانت لهم الغلبة، وكانت أسرهم تناهز أربعة آلاف، لكنهم اليوم فقدوا نفوذهم ونزل عديدهم إلى أربعمائة عائلة، ولم يبق لهم في البرلمان سوى ما بين ١٠ و١٥ عضوًا من بين أربعمائة، ولا تزال فلولهم تجتمع في هذا القصر للبحث في شئونهم الاقتصادية فقط؛ إذ لم يبق لهم من الامتيازات السياسية شيء، ولا تزال شارات عائلاتهم القديمة تنقش فوق جدران «بهو الفرسان».

وبين القصر والسراي كنيسة عتيقة دفنت بها رفات كثير من الملوك من بينهم جستاف أدلف، وشارل الثالث عشر والرابع عشر، وتقع إلى شمال هذا الحي جزيرة روح القدس الصغيرة التي تقام عليها دار البرلمان الفاخرة تطل على أكبر قنطرة توصل إلى القصر الملكي، وتسمى Norrbro، ويلاصق البرلمان من خلفه البنك السويدي Riksbanken أقدم البنوك هناك، وأسبق بنوك الدنيا في إظهار الورق المصرفي «البنك نوت».

ويواجه القصر الملكي من الشمال أفخم ميدان بالمدينة وأنشطها حركة؛ فحركة المرور به تبهر العقول بكثرة تشعبها وشدة ضوضائها وجلبتها؛ ولذلك عد قلب المدينة النابض، فمنه تتشعب أهم طرقاتها، ويحسن أن يتخذه السائح بداية لرحلاته في المدينة لكيلا يضل طريقه؛ لأن تعدد الجزائر والشعاب المائية في أرجاء المدينة يجعل تعرف الطرق هناك أمرًا متعذرًا، وبخاصة على السائح الحديث العهد بها، وهنا كانت تخونني الخريطة فألجأ إلى البوليس أحيانًا.

ومن أحياء المدينة الجذابة ذات الحدائق الغناء والربى المتفرقة التي تبدو من دونها مدينة ستكهلم في رواء ساحر Djurgarten، وأجدر أماكنها بالزيارة متحف Skansen تعرض به نماذج للحياة الريفية من أكواخ ومزارع وكنائس للشعوب السويدية قديمها وحديثها، وهي آهلة بسكانها في ملابسهم القومية، إلى ذلك ترى أهم صناعاتهم ومطاحنهم الهوائية وهداراتهم المائية.

وأجمل ما يسترعي النظر بيوت لابلانده، ونظام معيشتهم الساذج، وأدوات منازلهم التي لا تزال على فطرتها الأولى، كذلك ترى أغلب حيوانات المناطق الجليدية كالدب القطبي الأبيض المفترس، وعجل البحر، وقطعان الرنة، والثعالب، والطيور المائية، وكلب البحر، والسمور. والمتحف فوق ذلك متنزه كثير المقاهي والمطاعم، وتحيط به من الخارج دور الملاهي.

وعلى مقربة من المكان متحف Nordiska الفخم، بناؤه من أربعة طوابق تعرض بها نماذج قيمة لمعيشة أهل السويد جميعًا، ونماذج للناس في تماثيل بأرديتهم المختلفة

وأدواتهم وأسلحتهم وزوارقهم، ومنها يبدو ما لهم من المهارة في إعداد الخشب وخرطه وجدل شرائحه فيما يحكي الأنسجة تصنع منها الأحذية وبعض الآنية، وترى من بين ذلك أهل لابلاندة بزحافاتهم تجرها الغزلان، وفراشهم وجلودهم وخيامهم، وثَمَّ مخلفات ملوكهم من أثاث وفرش وأسلحة، نخص بالذكر منها مخلفات جستاف أدلف أسد الشمال، وحامي البروتستانتية مُذ كان من أبطال حرب الثلاثين سنة الذين هزموا الكاثوليك مرارًا، لكنه قتل في الواقعة التي انتصر فيها على ولنشتين. وقد حشا القوم جواده وحنطوه بسرجه وخطامه، بحيث يبدو وكأنه لا يزال حيًّا. والحق أن المتحف يُعطي للزائر فكرة صادقة عن الحياة السويدية في مختلف البقاع والعصور.

قصدنا ضاحية Drottningholm ويسميها القوم فرساي السويد، وتقع على بعض شعاب بحيرة مالار، والطريق إليها يجوز قرى أبنيتها خشبية صغيرة في نظافة تامة، وتنسيق أنيق، تحيط بكلٍّ منها حديقة. وخير ما يزار بها القصر الملكي الفاخر أقيم على نسق الباروك، وهو يشرف على البحيرة التي تغص بالجزائر ذات الأدغال الكثيفة، وخلف القصر حديقة تكاد تحكي في روائها وروعتها حدائق بوتسدام، وإلى يمينه الكنيسة، وإلى جنوبه القصر الصيني يشبه في بنائه «الباجودا» الصينية. بني خلال القرن الثامن عشر حين انتشر الولوع بالفن الشرقي.

وبجانب القصر دار للتمثيل بناها جستاف الثالث، وقد كان روائيًّا وشاعرًا، وكان كلفًا بالتمثيل وبمشاهدة رواياته وهي تمثل على المسرح. وهذه الدار تعد الوحيدة في العالم التي تَحوي أثاثًا ومسرحًا تام العدد والملابس منذ ذاك العهد، وهي لا تزال تصلح للاستعمال.

وكان القوم قد أعدوا معرضًا كبيرًا دعي إليه الخلق من مختلف بقاع الدنيا لمشاهدة منتجات السويد، راقني من معروضاته طائفتان: معروضات الأخشاب من دور، وأثاث تشهد بما بلغته السويد من الشأن الكبير في هذا المضمار، الذي لا يدانيها فيه غيرها من الدول، فقد عرضوا من الأبنية الخشبية ذات الطابق والطابقين بكامل أثاثها في هندسة متباينة، وأحجام مختلفة ما يحار فيه اللب.

الطائفة الثانية وسائل النقل المختلفة من قاطرات وسيارات كبيرة وصغيرة وبواخر وزوارق في أحجام كبيرة، ولا غرابة فللكهرباء المستمدة من قوة الماء هناك فضل كبير على هذا التقدم الصناعي، خصوصًا في الآلات والسيارات وأدوات الكهرباء والتليفون والتلغراف، على أن المعرض في حجمه وتنسيقه أقل بكثير من معرضنا الذي أقمناه سنة ١٩٣١.



وسط ميدان جستاف أدلف بستكهلم.

وأذكر أنني في بعض متنزهات المعرض تحدثت إلى سويدي بالإنجليزية في شئون مصر، وأتينا على ذكر معرضنا، وما كان أشد دهشته لما علم أن في مصر كثيرًا من أمثالي، وأن معارضها وحضارتها تحكي أوروبا، وصارحني أنه كان يعتقد أننا قوم همل رعاع، وراعه أن كنت أرتدي صديريًّا من الصوف، وصاح قائلًا: «ماذا عسى أن تفعل إذا جئت إلى هنا شتاء؛ فرأيت الماء جامدًا والقوم يسيرون بمزالقهم فوق البحار والبحيرات، وقد غشَّى الثلج المتساقط الطرق كلها إلى علو قد يفوق المتر.»

(١٢) إلى أزلو

قمت إلى عاصمة النرويج، وكان القطار ينهب الأرض بسرعة خيالية بحيث كانت العربات تترنح وكأنها الأراجيح؛ ولذلك لم أعجب لما أبصرت من النافذة بقطار قد انقلب بعرباته فتهشم وانتثرت شظاياه ذات اليمين وذات الشمال في منظر يهز القلوب. ولما أن دخلنا أراضي النرويج زادت كثافة الغابات، وكثرت مسايل الماء ذات المساقط العديدة، وأرمات

الخشب السابحة. وقد أقاموا لها الحواجز الخشبية عند المنحنيات كي تمنع كتل الخشب أن تلتصق بالضفاف.

وبعد ساعات إحدى عشر كاملات دخلنا أزلو — عاصمة النرويج التي أسسها الملك هارالد سنة ١٠٤٦ على ضفاف فيورد أزلو الذي يتلوى نحو الجنوب — ومن خلفها ربوة تشرف عليها. ولقد تخير لها هذا المكان لسهولة نقل غلات جنوب شرق النرويج، أخصب بقاعها، على أن النار قد شبت بالمدينة فيما بعد وأبادت شطرًا كبيرًا منها، فأشار الملك كرستيان الرابع أن تقام على الجانب الآخر من الجون، ذاك الذي تحميه قلعة منيعة من الغارات السويدية، ومن ثم سميت كرستيانيا. وفي ١٩٢٥؛ أي بعد ثلاثة قرون، قرر البرلمان إعادة اسمها القديم أزلو، ومعناه المرج أسفل التل، أو مرج الإله، ويربو عدد سكانها اليوم على ربع المليون.



كارل جوهان الشارع الرئيسي في «أزلو» يسير صعدًا إلى القصر الملكي المتواضع.

والمدينة صغيرة ولا بأس بمبانيها ونظافتها، قلبها النابض شارع: كارل جوهان، يمتد في استقامة من المحطة إلى السراي الملكية، وعليه تقع أكبر الأبنية والحوانيت، وأظهر ما به دار البرلمان ودار التمثيل التي يتسع بهوها لنحو ١٥٤٥ نفسًا، ثم الجامعة التي ينتسب إليها ٢٥٠٠ طالب، وينتهي الشارع بربوة يشرف عليها القصر الملكي المتواضع يتقدمه تمثال الملك كارل جوهان، أما باقي المدينة فعادي لا يسترعي النظر.

ومن المتاحف التي زرتها المتحف الأهلي، وبه مجموعة لا بأس بها لمخلفات النورديين القدماء وأدوات أقزام الشمال، ومن بينها المجموعة التي أهداها أمندصن، المستكشف العظيم، وقد جمعها من سكان شمال آسيا في رحلته وهو يحاول كشف الطريق الشمالي الشرقي، وهي تتألف من أحجار وأدوات وعُدد وملابس وخيام وعقود نظمت من الأسنان والعظام.

ومما هو جدير بالزيارة ضاحية جميلة اسمها Bygdo، يسكنها طائفة من أغنياء المدينة، وبها متحف Folke Museum لمخلفات ملوكهم، وبعض الآثار الكنائسية، وفي جانب منعزل تعرض أقدم سفينة في العالم دفنت بها الملكة Asa منذ ١١٠٠ سنة، وقد استخرجت كاملة من تحت الثرى، وطولها ٣٠ مترًا، وعرضها في الوسط ١٠، وطرفاها في طيات مدببة تحكي عرف الديك، وعليها نقوش من خرط الخشب، وفي كلا جانبيها ١٥ ثقبًا للمجاذيف، والدفة ملتصقة بجانب مؤخر السفينة، وتحكي مجذافًا كبيرًا ربط في السفينة بجدائل من خوص، وهي أثر قيم؛ لأنها التي ساح بها Erikson من ترندهيم عبر المحيط الأطلنطي إلى شواطئ أمريكا منذ أكثر من ألف سنة؛ أي قبل كولمب بخمسة قرون ونصف.

وفي ضاحية أخرى يسير إليها ترام الكهرباء صعدًا إلى ٤٠٠ متر فوق البحر في وسط الصخور تكسوها الغابات، كنا نتبين جوانب الفيوردات والنقائع والقرى في الهوي من تحتنا، في منظر رائع، وغابات الصنوبر لا تغيب عن العين أينما وقع بصرها، وهناك متحف Ski الصغير، وبه يعرض زورق نانسن الذي صنع من قماش الشراع، وهو الذي أنقذ ذاك المستكشف العظيم في رحلته بالأصقاع القطبية الشمالية، وكذلك خيمة أمندصن التي آوته في القطب الجنوبي، وبها أدواته وكلب محشو من كلابه.

على أن القوم يبالغون جدًّا في أجور الدخول لتلك المتاحف، ويوزعون المعروضات على قلتها في مبانٍ مختلفة، كي تتعدد الأجور رغم غلوها؛ فهي لا تقل عن كرونر؛ أي نحو ستة قروش لكل مرة؛ لذلك فهي أشبه بتجارة واستغلال، ولعل لفقر البلاد دخلًا في ذلك



أقدم سفن الدنيا صنعت منذ ١١٠٠ سنة في النرويج.

«الاستغلال». أما الجو هنا فحدث عن رداءته، فهو أبدًا غائم مظلم عاصف مطير، برده قارس حتى في أغسطس، ولم أذكر إلا يومًا واحدًا لم تمطر فيه السماء طوال إقامتي في السويد والنرويج، فكأن الطبيعة بقدر ما منحت القوم من مناظرها الخلابة لم تُنجهم من غضبها الذي لا يفتأ ينغص عليهم بعض هنائهم؛ ولذلك ليس بعجيب أن نراهم أقل منا سكان البحر الأبيض مرحًا وضحكًا، فظلام الطبيعة قد خلف أثره في نفوسهم.

(١٣) إلى برجن

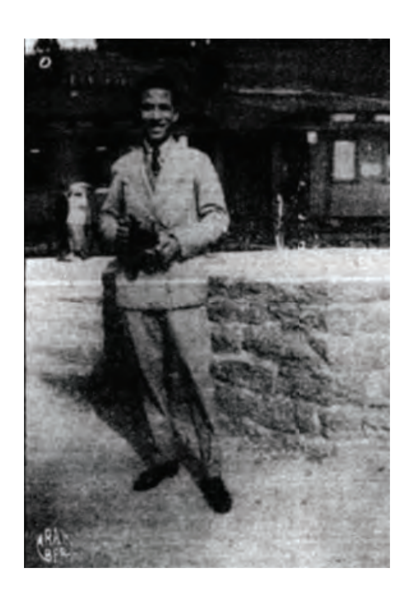
قمت بقطار الصباح والسماء تمطرنا وابلًا قاصدًا ثغر برجن في غرب النرويج، والطريق الحديدي هنا يعد من المعجزات الهندسية؛ فهو يمتد مسافة ٤٩٢كم وسط مسالك وعرة، وجبال قديمة عاتية، فيشق صخورها النارية بمئات الأنفاق، ويجوز وديانًا وقيعانًا، ويجانب ثلاجات وغدرانًا، ويعلو إلى ١٤٠٠ متر فوق سطح البحر.



محطة فنس في طريق «برجن الحديدي» بين السويد والنرويج عند حد الثلج الدائم.

بدأنا السير في إقليم مغضن كثير الخضرة، كثيف الشجر، وأخذ القطار يسير صعدًا إلى جانب التلال، وكلما علا انكشفت لنا مناظر لوديان جذابة ونقائع فضية، وكنا نمر بقرى صغيرة يتخذها القوم مصايف لهم يقيمون فيها أيام عطلتهم، وهم كل يوم يتسلقون الربى من حولها في أردية متشابهة، وعلى ظهورهم الجعب الكبيرة، وفي أيديهم عصي الجبال.

وفي تلك القرى تكثر مناشر الخشب قرب مساقط المياه، وكانت غالب الوديان تغص بأرماث الخشب الغفل يسوقه التيار إلى المناشر، ويعرفه ذووه بعلامات يحفرونها في أطراف الكتل، وكنا نحس زيادة البرد كلما علونا، وبعد اجتياز قرية Gol في أكثر من ثلث الطريق أخذ المنحدر يزداد وعورة، والشجر ينضمر ويقل عدده حتى انمحى وعم العشب بنوره الجميل ذي الألوان المختلفة. وهذا أيضًا أخذ يندر حتى حللنا قرية Finse في أعلى بقعة على الخط.



القطار يقف بنا قليلًا في محطة «فنس» أعلى محطات جبال إسكندناوة.

وهنا بدت بقع الثلج بيضاء وضاءة تنتثر على الربى من حولنا، ثم ظهرت بعض الثلاجات الكبيرة، وبخاصة Hallingskarvet إلى اليمين، وهاردنجر إلى اليسار، وعلى مقربة منها شلال Voringfoss الذي يهوي خمسمائة قدم دفعة واحدة. وهنا يعجز قلمي الكليل عن تصوير بدائع الطبيعة من ذرى تتوجها عمائم الثلج إلى مسايل من الماء تهوي في بطون سحيقة إلى أودية مختنقة تسمع فيها دوي الماء، وترى أرغاءه وهو ينسكب على نواتئ الصخر، ويثب درجات بعضها دون بعض، والوديان تختنق وتنعرج ثم لا تلبث أن تنبسط وتنفرج في نقائع وغدران هادئة آسنة. كل ذلك والقطار يشق طريقه في ليات ومطاوٍ عجيبة، ويخترق أنفاقًا لا عد لها.

وكان القوم يقيمون مظلات خشبية متحدرة لمنع الثلج أن يتكاثر فيضحى جليدًا يعوق سير القطار. وعند قرية Myrdal التي تقع وسط هوة تعلوها الربى الشاهقة من جميع نواحيها يدخل القطار أطول أنفاقه البالغ ١٧٤١٣ قدمًا، وينكشف خانق Flamsdale الذي يسير الطريق على جرفه — وهو هائر سحيق يهوي من جانب القطار



في أعالي جبال إسكندناوة حيث يدوم الثلج ويكاد ينعدم النبت.

إلى ١٦٤٠ قدمًا في منظر رهيب — وكنا نرى في الأعماق طريقًا ضيقًا يلتوي وكأنه اللولب في إحدى وعشرين طية متقاربة تؤدي إلى بطن الوادي.

وفي هذا الإقليم تكثر قطعان الرنة التي قد يبلغ الواحد منها الألف يتقدمها دليل من الغزلان كأنه الكشاف، ويغلب أن يسير الجميع في صفوف من ثلاثة أو أربعة، والدليل يجري إلى ناحية مهب الريح لكي يشتم رائحة عدوه من إنسان أو حيوان، ثم يقود القطيع إلى الطريق المأمون، ورغم ندرة النبت هناك وعلو المكان عن حد الثلج بنحو ١٥٠ قدمًا، قد أحصى القوم من فصائل النبت نحوًا من ١٦٧، وغالبها ذوات زهر جميل مختلف ألوانه.

بعد ذلك يأخذ الخط في الهبوط بسرعة عجيبة، ويبدأ ظهور شجر الصنوبر القصير المعقد، ثم يتزايد عدده ويمتد طوله كلما هوينا، ثم يجانبه شجرُ البتولا ذو السيقان الفضية، وتعود مقاطع الأخشاب ثم منابت الشوفان والشيلم إلى أن نصل برجن وسط فيوردها كثير الشعاب، وفي هذا الخط تتجلى قوى الطبيعة في وضوح، ففي التواء الطبقات وتداخلها بعضها في بعض، بل وانقلابها أحيانًا دليل على مبلغ أثر القوة الباطنة في رفع

تلك الأنحاء إبان عصر الجليد، وفي خفضها عندما غرقت وديان غرب أوروبا وخلفت البحار الضحلة والفيوردات العديدة.

وإن في كثرة الطبقات الشستية والصخور النارية التي تبدو طوال الطريق دليلًا على قدم تلك الأصقاع، أضف إلى ذلك ما يحسه المسافر وهو يسير صعدًا من نقص في درجة الحرارة، وزيادة في المطر، وما يشاهده من اختلاف في نوع النبات الذي يتدرج من غلات البلاد الباردة إلى الغابات الصنوبرية إلى الأعشاب القصيرة وثلوج التندرا، يبدو كل ذلك على كلا الجانبين، وفي يوم واحد، وتتوسط هذا الإقليم هضبة «هردنجر فدا» التي وصفها السائح إليوت الإنجليزي، وكان أول من عبرها سنة ١٨٣٠ بأنها قفار جبلية لا يمكن اختراقها. وبعد اثنتي عشرة ساعة ونصف بدت برجن تحوطها الربى من جوانب ثلاثة.



فيورد برجن أشرف عليه من ربوة «فلوين» بالنرويج.

(١٤) برجن

أقيمت سنة ١٠٧٠ على لسان من الأرض مختنق نحيل، ثم أخذت في التضخم حتى أضحت أكبر بلاد النرويج، وارتبطت مع دول عدة بعلاقات تجارية وثيقة أصبحت بفضلها أكبر الأسواق الشمالية للأسماك، وظلت أمدًا عاصمة النرويج، وفيها تُوِّج أول ملوك تلك البلاد، وفي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر أخذت التجارة تتحول إلى أيدي الألمان الذين فتحوا لهم مكتبًا تجاريًّا بها، وزاد نفوذهم حتى احتكروا جميع تجارتها، خصوصًا تحت نظام الاتحاد الهنسي الذي أسس لحماية التجارة من لصوص البحر، وامتد نفوذه حتى شمل البحرين الشمالي والبلطي. وقد تملك الجانب الأيسر كله من الميناء.

ولا تزال مباني هذا الحي بشكلها القديم، وهي أجمل ما يسترعي نظر السائح بهندستها الغريبة، ولبثوا كذلك قرنين كاملين حتى انفصلت النرويج عن دانماركة، واستعاد النرويجيون مركزهم تدريجًا، وفي سنة ١٧٦٣ ابتاعوا آخر دار هنسية ألمانية وأجهزوا عليها، وظلت برجن أول مدن النرويج إلى القرن التاسع عشر حين بزتها أزلو. وقد شبت بها النيران مراتٍ أبادت من بيوتها الخشبية شيئًا كثيرًا، وقد ساعد هذا على تجديد بنائها في نظام هو خير من سالفه، على أنها لا تزال تحتفظ بكثير من بيوتها القديمة، وهي تشبه روما في أنها تحاط بسبعة تلال زادت منظر مرفئها الجميل بهاء وروعة، ويقطنها اليوم ٩٧ ألفًا.

جُبت أرجاء المدينة، وأوغلت خاصة في أحيائها القديمة البحتة، فإذا بها طرقات مختنقة، وأزقة متلوية منحدرة، منازلها من خشب، وأرضها قد رصفت بالحجر الصغير، وتقوم كثير من البيوت فوق الماء الذي قد يوغل فيها بألسن عدة. والمدينة يعوزها كثير من النظافة، أهلها فقراء كما يبدو من ملابسهم الرثة وكثرة أبناء السبيل والعاطلين من أولادهم.

زرت المتحف الهنسي، واسمه أكبر منه، فهو كوخ خشبي من طابقين تعرض به أدوات عتيقة من خشب وكراسات وأقلام لبعض رؤساء التحالف الهنسي، وأمكنة نومهم تحكي صناديق الخشب، يدخلها الواحد ويحكم قفلها، وهي في شكلها الحقير تمثل مساكن التجار في ذاك العصر.

ومن أجمل ما يسترعي نظر السائح سوق السمك الذي يعقد يوميًّا في الصباح، في ميدان فسيح على الميناء، يعرض به مختلف السمك على ألواح بمنظر قذر منفر، والروائح الكريهة تتصاعد، وتسيل الدماء والأوساخ على الأرض بشكل تعافه الأعين، والقوم من حوله يتزاحمون، ولا تخبو ضوضاؤهم، وغالبهم في ثياب خلقة رثة.



مساكن برجن من خشب وأحياؤها قذرة تحكي بلاد القرون الوسطى.

هذه برجن نفسها، أما ما حولها فتلال يكسوها العشب وقصار الشجر، بعضه يعلو البعض، فإذا ما ارتقيت أحدها تجلت لك روعة الميناء، نظمت من حولها المنازل، وبخاصة إذا أشرفت عليها من ربوة Floien، التي نصعدها بترام معلق إلى ٣٥٠ مترًا، وفي قمتها مقهى جميل يضاء ليلًا فيبدو من أسفل وكأنه تاج تلبسه المدينة، وثريات الخط الكهربائي على المنحدر كأنها عقد أدلي من جيدها. لبثت أعتلي من تلك الربى الواحدة تلو الأخرى حتى أعياني السير فعدتُ، والمناظر من حولي ساحرة جذابة

ولعل برجن أسوأ بلاد إسكندناوة جوًّا، فسماؤها أبدًا غاضبة تسح جفونها مدرارًا، وهواؤها بارد عنيف، أما أهل المدينة فمقشورو الوجوه، زرق العيون، ضخام الأجسام، يكثر العمالقة بينهم، وتلك المميزات فيهم أظهر منها في زملائهم من أهل السويد، وهم ميالون للمسكرات، يؤيد ذلك كثرة السكارى الذين يجوبون الطرق ليلًا.

ولقد كانت عادة الإدمان منتشرة في إسكندناوة عمومًا بدرجة خطيرة؛ ولذلك لجأت الحكومة إلى تحديد بيع الخمر بواسطة شركات خاصة قليلة العدد، حددت لها نسبة



الباخرة ليرا تبرح برجن عبر الأطلانطيق.

ضئيلة من الأرباح، وما زاد يدخل خزانة الدولة، ومن ثم قلت تجارتها جدًّا، وزهد القوم في بيعها، ونقص عدد المدمنين كثيرًا. ويسترعي النظر هناك كثرة الصبية الذين يتسكعون في الطرق ويجمعون أعقاب السجاير ويدخنونها، وذلك أثر من آثار فقر بيئتهم، وضعف رقابة الآباء عليهم لغيابهم وراء الصيد طويلًا.

أعددت عدتي للسفر إلى أيسلنده، ثم عدت إلى برجن ثانية، ومنها إلى أزلو، وقمت مبكرًا إلى جوتنبرج، وكانت تبدو النجاد تجللها الغابات، والوهاد تكسوها الخضرة وتزينها الجداول والنقائع، وما كدنا نبلغ نصف الطريق حتى انفسحت السهول المنزرعة، وغابت



على رصيف ميناء «جوتنبرج» الصاخبة.

عنا الجبال، فكان المنظر شبيهًا بمناظر حقول مصر المحبوبة، وأخيرًا دخلنا جوتنبرج بعد سبع ساعات ونصف.

(١٥) جوتنبرج

أسسها جستاف أدلف، أسد الشمال وحامي البروتستانتية، وما فتئت تمتد وتتضخم حتى أصبحت اليوم ثانية مدن السويد، سكانها يناهزون ربع المليون، وهي تعدل أحسن مدن أوروبا وأرقاها نظامًا وتنسيقًا. يسترعي النظر بها نظافتها التامة، وكثرة متنزهاتها، وضخامة أبنيتها، وامتداد مرفئها الذي يغص بالسفن الضخمة، ويموج بالحركة التجارية، والمرفأ لسان من البحر في غير استقامة تنسلخ عنه شعاب ضيقة في شكل قنوات يشق أنحاء المدينة، وأظهرها اثنتان دائريتان إحداهما داخل الأخرى تعبرها القناطر العديدة، وتشقها زوارق الرياضة في غير حصر.

وبالمدينة عدة ميادين تتوسطها التماثيل التي أظهرها تمثال جستاف أدلف منشئها، ومن مبانيها الفخمة دار البريد والمتحف الملكي، وبه أحسن مجموعة من الفن النوردي بفرعيه الحفر والتصوير. وفي الجزء الشمالي من المدينة تبدأ قناة جوتا المشهورة التي تصل بين أكبر مدينتين في السويد: ستكهلم وجوتنبرج، طولها ٣٤٧ ميلًا، ثلثاها يتألف من بحيرات وأنهار طبيعية، والثلث من عمل الإنسان. ومجموع الأهوسة التي أقيمت بها



أمام تمثال جستاف أدلف بجوتنبرج.

٩٥، بفضلها ترفع السفن إلى علو ٩١,٥ مترًا فوق سطح البحر. أما المناظر على ضفافها فسحرية تأخذ بالألباب؛ إذ تراها تحيطها الربى، تكسوها الغابات، ومجرى القناة بين ذلك ينقبض تارة وينفرج أخرى، وهو يتمايل بحيث تكاد الأشجار تلمس السفن في بعض البقاع.

ولقد زرت أجمل أجزائها في قرية Throllhattan تبعد عن جوتنبرج بساعة في القطار. هناك ترى المجرى كثير الشعاب تتوسطه الصخور الجرانيتية في عدة مدرجات وخوانق يندفع الماء خلالها في شلالات رائعة، وسرعة مخيفة دونها عظمة خزان أسوان. وقد أقيمت هناك أكبر محطة لتوليد الكهرباء؛ حيث تستغل من مجموع قوة المياه البالغة ٢٧٠ ألف حصان كهربائي ١٧٠ ألفًا.

وحول المحطة أقيمت مجموعة مصانع كبيرة غالبها لصنع الآلات وصهر الحديد الغفل، وعندها أكبر مصانع العالم لاستخراج السلولوز «خشبين للنسيج» من الخشب، وتتعدد هناك القناطر التي تشرف على المساقط المائية الجميلة. والفرع الخاص بالملاحة

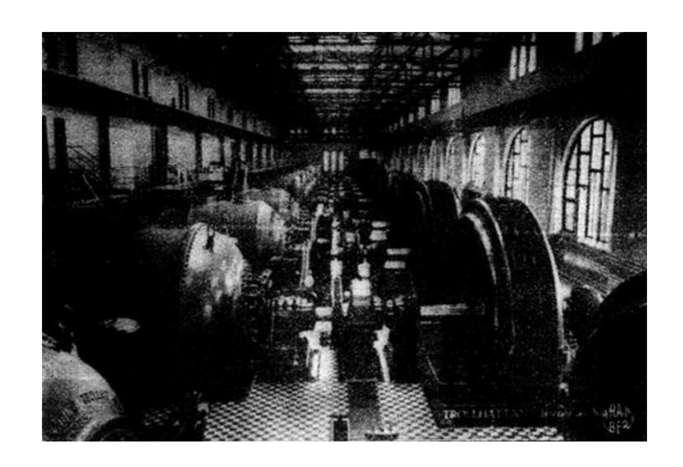


وسط النبت الوفير والمناظر الخلابة على ضفاف قناة «جوتا» بالسويد.



في جانب من قناة «جوتا» بالسويد حيث تكثر المنحدرات وتسخر لتوليد الكهرباء.

قد أخلي من منحدراته وزُوِّد بأربعة أهوسة كبيرة جعلته صالحًا لمرور السفن التي يبلغ عددها في السنة خمسة آلاف. هذا ومجموع المياه التي تتسرب من تلك الأهوسة نحو



أكبر محطة لتوليد الكهرباء من قوة الماء: قناة جوتا بالسويد.



على ضفاف قناة جوتا بالسويد.

١١٠ ألف لتر في الثانية. وقد نسق القوم متنزهات بديعة حول هذا المكان، وأقاموا أنزالًا عدة تجعل المقام هنا أمنية كل سائح يود الاستمتاع الكامل والهدوء العميم.

(١٦) أيسلنده: بلاد الجليد والنار

أقلعت الباخرة ليرا Lyra النرويجية من ثغر برجن الساعة العاشرة من مساء الخميس، وكانت كلما تنحت عن الميناء تبدو المنازل المقامة على شعاب الفيورد وفوق مدرجات التلال بثرياتها في منظر خلاب، والجزائر الصخرية الصغيرة تنتثر في مدخل الفيورد بكثرة عجيبة، وقد لبثنا نسير بين طيات هذا الجون ذي الجوانب الصخرية المشرفة من حولنا أكثر من ثلاث ساعات، بدا بعدها المحيط الأطلنطي، ذاك الخضم المائج الرهيب.

وسرعان ما أخذت السفينة تترنح، وظلت شدة الموج في اطراد إلى صباح السبت حين بدت جزائر فارو البركانية في صخور شاهقة جرداء تكسو بقعًا منها خضرة لا يكاد يستقيم لها عود، وهي في مجموعها سبع عشرة جزيرة يقطنها عشرون ألفًا، ومعنى كلمة فارو «الأغنام» في لغة القوم؛ ذلك لأنها أغنى جزائر المنطقة بالمرعى.

وأكبر مدنها Thorshaven، ومبانيها أكواخ من خشب تتناثر على حافة الماء، وكان الأهلون يفدون على السفينة في لهف وشوق كأنهم وجدوا في ركابها مؤنسًا لهم في عزلتهم الموحشة، والبلاد يحكمها والٍ من قبل دانماركة يسمونه Amptman، ويعاونه مجلس من أهلها، وموارد الجزائر قاصرة على السمك وتمليحه وإصداره إلى الدول اللاتينية، وبخاصة إسبانيا.

وفي الساعة الثامنة من مساء الأحد ألقت الباخرة مراسيها في جزائر «فستمانوي»، على مقربة من ساحل أيسلنده الجنوبي، ويقطنها نحو ٣٥٠٠ من الناس، وهي أكثر صخرية وجدبًا من سالفتها. يعشش في أجحارها طير الماء بكثرة غريبة، وتسبح أسرابه فوق الماء زرافات، وفي مواسم معينة يصطاده القوم لينتزعوا عنه ريشه الثمين، ثم يجمعون البيض من أوكاره. وتلك تجارة رابحة لديهم.

جدت الباخرة في السير إزاء الشاطئ الجنوبي لأيسلنده، وكان يبدو في سلسلة صخرية وطيئة تشرف من ورائها أكبر ثلاجات أوروبا «فتناجكول» في بريق وضاء، وبعد عشر ساعات دخلنا فيورد ركيافك بين رُبًى شاهقة، تقام المدينة الهادئة على جوانبها الداخلية، وكان الجو دافئًا مشمسًا جميلًا أذكرني بأيام الشتاء الدافئة بمصر على غير ما كنت أتوقع أن ألاقي في مثل تلك البلاد القاصية.



صيد الطيور بالشباك لنزع ريشها: أيسلنده.

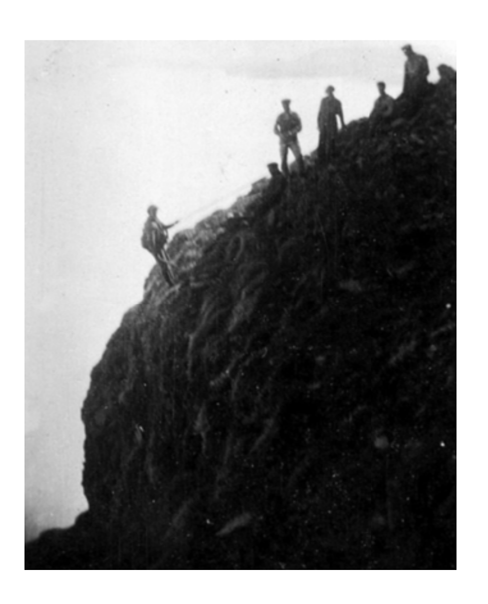
(١٦-١) ركيافك

عاصمة أيسلنده، واسمها مشتق من كلمتين معناهما الجون ذو الأبخرة؛ ذلك لكثرة الفوارات التي تصعد البخار من حولها، والتي استرعت أنظار أول نزلائها فأطلق عليها هذا الاسم. والمدينة صغيرة هادئة تُئوي من السكان عشرين ألفًا، وهم خُمس سكان الجزيرة كلها. بها طريقان رئيسيان في امتداد المدينة وبمحاذاة الشاطئ، وتقام بها أكبر بيوت السكنى ودور الحكومة والمحال التجارية. أما الطرق الباقية فضيقة غير مرصوفة تعلو وتهبط بين مكان وآخر.

والمدينة على وجه العموم نظيفة خفيفة الروح يمكن للإنسان أن يجوب كل أرجائها في أقل من نصف يوم، وذلك ما فعلته أول يوم حللتها، وليس بها من الميادين والمتنزهات إلا شيء لا يستحق الذكر، وغالب أبنيتها من الحديد المُجزَّع يكسوه الخشب من الداخل. ومن الغريب أن مواد البناء تستورد كلها من الخارج، ولا يستخدم الصخر إلا قليلًا رغم

كثرته في البلاد، ولعل سبب ذلك شدة صلابة صخورها البركانية ورداءة طرق المواصلات وغلوها.

راقني من دورها العامة: متحف الفن الجميل، وبه مجموعة قيمة للمثال والمصور الأيسلندي المبدع «أينار جونسون»، الذي صمم بناء المتحف بنفسه، وأقامته له الحكومة، وبه يعرض منتجاته الفنية. وخير ما تتجلى عبقريته في مبتكراته الطريفة الفكرة، فكل قطعة تمثل عدة معانٍ رغم صغرها، وهي في أسلوب لم يسبقه إليه غيره، وهو لا يفسر معنى القطع إلا بكلمة واحدة فقط؛ كأن يكتب تحتها: «البعث أو العدل أو التطور»، ويدع للناس حرية تفسير ما ترمي إليه. والإنسان لمجرد النظر يستبين مغزاها في جلاء تام. والمثال لا يزال يقطن جانبًا من المتحف، وتمهره الحكومة راتبًا شهريًّا. هذا وقد سرَّ القوم أن أدون اسمي في سجل الزائرين كأول مصري حل تلك البلاد.



طريقتهم الخطرة في جمع بيض الطيور من الأوكار.

بعد ذلك قصدت دار المتحف الأهلي، وبه مجموعة قليلة من آثار قديمة لمختلف البلاد ومن بينها مصر، واسترعى نظري هناك لوحة كتب عليها بالعربية: الجاهل عدوكم ولو

كان صديقًا، وتحتها حديثان شريفان؛ وهما: اطلب العلم من المهد إلى اللحد، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، وتحتها إمضاء السعيد المصري تلميذ البكري. وكان تزاحم القوم حول تلك القطعة كبيرًا، فكانت هذه فرصة لي أن أشرحها لمن كان يفهم الإنجليزية منهم، وأحدثهم قليلًا عن مصر. ولعل أكثر المعروضات قيمة في نظري القسم الخاص بالأدوات المنزلية الخشبية من صنع النورديين الأقدمين.

قصدت دار البرلمان، ويسمونه Althing، وهو من مجلسين؛ الأعلى: وأعضاؤه أربعة عشر، والأدنى: وأعضاؤه ثمانية وعشرون، يتقاضى كل واحد راتبًا عن كل يوم من أيام دور الانعقاد، والدار لا بأس بتنسيقها من الداخل، وغرفها صغيرة، وتُحلَّى بالصور الزيتية، وزيارة الدار وحضور الجلسات مباح لجميع الناس طول اليوم. وهنا تتجلى الديمقراطية الحقة بين أفراد شعب كلهم متساوون نشئوا على حب الحياة النيابية واحترامها منذ القدم، فبرلمانهم أقدم برلمانات العالم طرًّا — بدأت أولى جلساته سنة ٩٣٠، وظلت تعقد ألف سنة لم تتوقف خلالها سنة واحدة — ولذلك احتُفل في يونيه هذا العام بالعيد الألفي في مهرجان فخم كان يرأسه ملك دانماركة، كما احتفل سنة ١٨٧٤ بمرور ألف عام على أول من نزل الجزيرة من الجنس الأبيض.

وقد كان استعمارها على يد بعض النرويجيين الذين خرجوا على حكم «هارالد» بعد أن نصب نفسه ملكًا على النرويج، رغم إرادة الكثيرين سنة ٨٧٤، وكثير من أولئك المهاجرين فر إلى الجزائر البريطانية، ومنها إلى أيسلنده؛ ولذلك حملوا في عروقهم بعض دم الكلتيين، ولا تزال لغتهم تبدو خليطًا من النرويجية والإنجليزية، وهي عين اللغة التي كانوا يتكلمونها منذ ألف سنة، وكانت إذ ذاك لغة إسكندناوة.

ومنذ سنة ١٩١٨ أصبحت البلاد ملكية دستورية ذات سيادة يرأس حكومتها ملك دانماركة، ودستورها الحالي سُطِّر سنة ١٩٢٠، والوزراء يعينهم ملك دانماركة، لكنهم مسئولون أمام البرلمان، وهم ثلاثة: الرئيس، وهو وزير الحقانية والكنيسة — وهي على مذهب لوثر — ووزير الصناعة والتجارة، ووزير المالية. وأيسلنده دولة محايدة لا جيش لها ولا أسطول، والتعليم فيها إجباري بين العاشرة والرابعة عشرة، وبها جامعة ينتسب إليها مائة وعشرون طالبًا.

أما السكان فهادِئوا الطباع لا يحملون لبعضهم ضغنًا، ينظر الفرد إلى غيره نظرة الزميل المساوي له، رغم ما قد يبدو من ملابسه الرثة وهندامه الوضيع، فترى الرث إلى جانب المتأنق جالسين إلى منضدة واحدة في المقهى، وسحنهم وإن شابهت سكان



ركيافك عاصمة أيسلنده في الصيف.

إسكندناوة إلا أن بها مميزات خاصة؛ كالحمرة الشديدة، والانتفاخ الواضح في العيون مع أهداب يشوبها البياض، مما يقربهم لسكان شمال إسكندناوة وجرينلندة.

أما قاماتهم فكجيرانهم طويلة، وقد كنت أظن أني سأجد بينهم كثيرًا من الأقزام، فإذا بي أنا أبدو قزمًا بينهم، يؤيد ذلك أنني أثناء جولتي في أطراف المدينة الساعة العاشرة مساء التف بي جمع من الصبية وهم يحدقون في وجهي، ثم أخذوا يصيحون جميعًا وهم يشيرون إليَّ «أسكيمو أسكيمو» حتى غبت عن أنظارهم.

وملابس النساء غريبة تسترعي النظر؛ فهن يرسلن شعورهن في خصائل تجدل وراءهن، ويلبسن على الرأس شبه «قلنسوة» سوداء تغطي ناصية الرأس فقط، ولها ذؤابات مدلاة كالشعر المستعار إلى جانب جدائل الشعر الذي لا يقصصنه بل يرسلنه، وعلى أكتافهن تحمل الشيلان الثقيلة السوداء، ويتزرن بملاءات مزركشة زاهية اللون من الخصر إلى القدم. أما رداء الصدر فمن القطيفة الثقيلة الموشاة بالنسيج الذهبي في شيء من الإسراف.



ركيافك في الشتاء وقد اكتست حلة بيضاء من الثلوج الوضاءة.

والحكومة تحرم الخمر عدا الجعة المخففة، ويظهر أن القوم كانوا مدمنين من قبل؛ ولذلك لا تزال ترى الناس يُخبِّئون زجاجات الخمر في جيوبهم، ويدخلون المقاهي ويطلبون زجاجة الجعة، ثم يختلسون فترات يملؤون أكوابهم فيها من جيوبهم، متظاهرين أنهم يشربون الجعة فحسب، وأنت تلاحظ هذا في كل مقهى تختلف إليه.

بعد أن أحطت علمًا بالمدينة وما فيها أخذت أقوم برحلات خارجها، وفي هذه تجلت المميزات الطبيعية التي خصت بها أيسلنده. وأجلُّ تلك الرحلات رحلة جلفس وبركان هكلا على بعد مائتي كيلو متر من ركيافك، قطعناها بالسيارة، وما كدنا نخرج من المدينة حتى انفسحت أمامنا متسعات من الأراضي البركانية يكسوها البازلت والصخر البركاني المثقب وهي تعلو وتهبط، ويكسوها في المنخفضات فتات البازلت الذي ينمو به قصير العشب ومن بينه طحلب أيسلنده المشهور في تغذية الأغنام، وفي تركيب بعض الأدوية، وبخاصة الحبوب لشفاء السعال.



أمام الدار الحديثة للبرلمان المتواضع في ركيافك.

وكنا طوال الطريق نرى الأبخرة تتصاعد من الجهات المجانبة لنا في فوارات لا حصر لها، بحيث لا يمكن أن تنظر في دائرة الأفق ولا ترى بعضًا منها، ومن أعظمها شهرة: جريلا Gryla الذي يثور مرة كل ساعتين. وقد وقفنا بجانبه قليلًا فهالنا منظر انفجاره حين نفر وعلا بخاره إلى عنان الجو، وكان ماؤه الحار المتفجر إلى علو يناهز عشرة الأمتار يتدفق إلى جوانبه، ثم يعود بعضه فيهوي إلى أعماق الشقوق إذا ما هدأت الفوارة.

استأنفنا السير في تلك الفيافي شبه الصحراوية التي تبدو لا نهائية حتى استوقفنا مخروط بركان «ثراسترلاند» الخامد، فصعدناه ونزلنا كأسه التي أضحت الآن بحيرة آسنة، وكان مخروط هكلا يبدو عند الأفق قبالتنا. وهو ليس من العظمة كما كنا نتصور؛ إذ إن فيزوف يفوقه روعة وجلالًا، غير أن مكان هكلا أكثر وحشة، وأشد صلابة وجدبًا؛ إذ تجانبه الوهاد، والنجاد تكسوها اللافا الجامدة في غير نظام، وهو الآن خامد الأنفاس، ولا يمكن الوصول إليه بالسيارة، بل لا بد من ركوب الخيول الصغيرة Ponies المنتشرة في جميع أرجاء أيسلنده بكثرة مدهشة، والتي تسير فوق الصخر بثبات عجيب، وسرعة



فوارة «جريلا» تثور مرة كل ساعتين.

مخيفة حتى في الظلام. وهي مطيتهم الرئيسية حتى في طرق العاصمة ووسط سياراتها القليلة، ولا يزال ينقل البريد على متونها بين القرى، وهي تسير في قافلة عديدة الأمهار.

وصلنا شلال «جلفس» بعد أن عبرنا عدة مسايل مائية. وهذا الشلال يعد من أكبر شلالات أوروبا وأجملها، غور مسقطه خمسة عشر مترًا، وذروته تبدو في شكل منحدرات سريعة غير منتظمة يرغي عندها الماء في منظر جميل، ثم يهوي إلى أسفله في شكل قوس تتوسطه صخرة تبرز فوق الماء كأنها الجزيرة.

وفي قرار تلك الهوة يضطرب ماؤه ويعلو رذاذه، فيخيم في سحابة يصيب المرء بللها على بُعد عشرات الأمتار، وترى بها أقواس السماء بألوانها الجذابة ما دامت الشمس مشرقة. وهذا اللون أكسبه اسم Golden falls أو الشلال الذهبي، وأخيرًا يدخل الماء في خانق وسط الصخر الأسود يتلوى ويمتد عدة كيلو مترات. منظر بديع رائع مكثنا في جنباته ثلاث ساعات كاملات ولم نشف منه غلة، ولولا أن اكفهرت السماء وسحَّ المطر لما برحناه، وهو في شكله العام شبيه نياجرا؛ ولذلك يطلق عليه أحيانًا اسم «نياجرا أيسلنده».



في قرار كأس بركان خامد «ثرسترلند» أضحى بحيرة آسنة: أيسلنده.

بدأت العودة إلى ركيافك في طرق متلوية وعرة كانت سببًا في انفجار إحدى عجلات السيارة التي لبثنا نصلحها ساعة كاملة وسط المطر الهاطل والبرد الزمهرير، وما كدنا نسير قليلًا حتى وقفت إحدى البطاريات عن العمل ولم تستطع السيارة ارتقاء بعض الطرق الصاعدة ذات الليات والمطاوي العجيبة، فلجأنا إلى نزل صغير في الطريق — وأمثال هذه كثيرة هناك — وطلبنا سيارة أخرى بالتليفون وصلتنا بعد ساعتين، وفي الساعة الحادية عشر مساء كنا على أبواب ركيافك، وكان ضوء النهار واضحًا بحيث تسهل القراءة فيه؛ لأن الظلام هنا نادر بين يونيه وأغسطس حين يظل الضوء بعد الغروب إلى أن يتصل بضوء الفجر صباحًا. وقد كنت أكتب مذكراتي هذه الساعة العاشرة مساء ولما تغرب الشمس، بل كان شعاعها الذهبي يكسو أعالي المنازل.



الأمهار الصغيرة مطية أيسلنده الرئيسية.

وكثيرًا ما يضايق هذا الضوء المتواصل السائحين ويقلق راحتهم في النوم. أما الأهلون فقد اعتادوه، على أنك لا تنسى أنهم إبان الشتاء، وبخاصة في ديسمبر ويناير يدفعون ثمن هذا غاليًا حين لا يرون ضوء الشمس إلا ساعة أو ساعتين، وضوء الشفق إلا ثلاث ساعات أو أربع، فكأنهم يلبثون أيامهم هذه في ظلام دامس يزيده ضغثًا ما يصحبه من برد زمهرير.

(١٦-٢) رحلة ثنجفلر

وهو المكان الأثري التالد الذي كان يعقد فيه برلمان أيسلنده، أقدم برلمانات العالم. أما الطريق إليه فغاصٌّ بالفوارات ذات الأبخرة المتصاعدة، وبمسايل المياه ذات الجنادل والشلالات والخوانق، وبسهول اللافا البركانية التي تنبسط إلى مد البصر، والمكان نفسه



قاطرة للبريد من الأمهار في أيسلنده، والرجل ينبه القرية بناعورته وكأنه قطار السكة الحديدية.

شعري في تكوينه، ترى به كتل اللافا ومدرجاتها تتشعب في نواحٍ عدة تشقها الخوانق بعيدة الغور، دافقة الماء، ذات الجنادل والشلالات الرهيبة، والوهاد والنجاد تتعدد من حوله فتكسبه تنويعًا يذهب بالملل.

وتحت إحدى الشرفات البركانية هناك ترى ربوة نحت القدماء مقاعد الأعضاء فيها، ولا يزال يرى بعضها متهدمًا، ويتوجونها باسم Logberg؛ أي صخرة القانون التي لبثت أكثر من ثمانمائة سنة مقرًّا تعقد فيه الجمعية الوطنية، ثم نقلت بعد إلى دارها الجديدة في ركيافك. وكان سكان أيسلنده يَفِدون من كل فج لسماع ما شرعته الجمعية من قوانين تقرأ عليهم من فوق الربوة، فتردد الشرفة الشاهقة من خلفها صدى الصوت مكبرًا فيسمعه الجمهور المحتشد في السهل من دونها.

وبعد أن تصادق الأغلبية على ما سمعت ينصرف الناس. ويثابر الأعضاء على اجتماعاتهم هناك، وتحضير مشروعات القوانين للسنة المقبلة. وهنا أقيم مهرجان العيد



شلال جلفس «نياجرا أيسلنده».

البرلماني بمناسبة مرور ألف عام على هذا النظام التشريعي الديمقراطي، وحضره خلق كثير من جميع بلاد العالم — بلغ عددهم يوم افتتاح الحفل ستة وثلاثين ألفًا — من بينهم كثير من الأمراء والوزراء. وكان غالب السائحين يأوون إلى مجموعة الأنزال والبيوت الخشبية الصغيرة التي أقيمت هناك، بحيث كان يخيل للإنسان أنها مدينة ثابتة تموج بجماهير السكان.

أتممت تطوافي في نواحي المدينة بشيء من التنقيب، فراقتني بها بحيرة ضحلة ترصف جوانبها، ويتخذها القوم مسبحًا في الصيف، وإذا ما حل الشتاء جمد ماؤها فأضحت ملعبهم المحبوب يمرحون فوقها بمزالقهم. والانزلاق فوق الجليد خير ألعابهم الشتوية



على حافة «جلفس» بأيسلنده ويظلنا رذاذه.

التي تنشط جسومهم وتدفئها، وقد أقاموا حولها مخازن للثلوج التي تنفعهم في إعداد السمك، والتي يكسرونها من البحيرة. وعجيب أن يستوردوا الثلج أحيانًا من إنجلترا.

ولما أن قاربت شاطئ البحر رأيت القوم نساء ورجالًا وصبية يعدون محصولهم من الأسماك، فبعضهم ينشره للتجفيف، والبعض ينظفه ويعده للتمليح، والبعض يجمعه في كومات كأنها التلال تغطى بالأقمشة الثقيلة ثم تعبأ بعدُ في الصناديق. ومهنة الصيد وإعداد السمك على اختلاف أنواعه هي المورد الرئيسي للبلاد؛ ولذلك تجد أغنياءهم ومتوسطي الحال منهم يمتلكون زوارق ويستأجرون الفقراء ليخرجوا بها للصيد لحسابهم في مواسم معينة، بعضهم إلى فيوردات شمال أيسلنده وغربها، والبعض إلى بحار جرينلندة التي تبعد عن بلادهم بمائتي ميل فقط.



على صخرة القانون حيث عُقد أول برلمان في الدنيا.

ويقال: إن سمك أيسلنده المعروف بالتروت Trout وبعض حوت «الكود» فيها هو أجود أنواعه في الدنيا؛ ولذلك ليس بعجيب أن تكون صادراتها من الأسماك بنحو مليوني جنيه، من جملة الصادرات التي تبلغ مليونين ونصفًا من الجنيهات كل سنة، وأنت ترى الأطفال إلى شاطئ البحر يصيدون السمك ويشقون جوفه، ويستخدمون أحشاءه طُعمًا لغيره، ويحفظون السمك في صفائح نظيفة.

وقد رأيت طفلًا وفي جعبته نحو العشرين سمكة يزيد طول الواحدة على قدم، وهو ما زال يثابر على صيده ولم يعدُ العاشرة من عمره. وطبيعي أن يصبح السمك أشهى طعام لديهم يُطهَى على أشكال منوعة، وأينما حللت قدِّم إليك، ويغلب أن يكون مسلوقًا، وإلى جانبه إناء من الزبد السائل، وآخر من البطاطس المسلوقة، وقد كان هذا من سوء حظي؛ لأنني أعاف السمك على وجه العموم.



شواطئ ركيافك وقد فرشت بالسمك يعده القوم في نشاط عجيب.



أكاد أختنق وسط بخار الفوارات التي يستخدمها أهل ركيافك في الغسيل والتدفئة.



خبز العجين بالجرادل تدفن في الأرض الساخنة في أيسلنده.

أدى بي السير في الأطراف القاصية من المدينة إلى الفوارات التي يستخدم القوم ماءها الحار في غسل ملابسهم، وقد أقيمت حول العيون التي لا تحصى شباك الحديد كي تقي الغاسلات أن يهوين إليها. والبخار يتصاعد من جميع جوانبها إلى عنان السماء، وتسمى تلك الجهة في عرفهم «لوجارنار»، ولكثرة ما يصعد من بخارها بدأ القوم يعدون الأنابيب الضخمة لنقل البخار إلى المدينة، واستخدامه في تدفئة المساكن. وقد بلغ من استفادة بعض السكان من تلك الحرارة أنهم يطهون لحمهم وينضجون خبزهم بواسطتها؛ كأن يوضع اللحم أو العجين في إناء، ثم يدفن أسفله في الأرض، فلا تلبث الحرارة أن تؤتي أثرها فيه وتنال منه كثيرًا.

وعجيب أن يطلق على تلك الجزيرة اسم أيسلنده أو أرض الجليد، ولقد كان من نكد الطالع — كما خبرني أحد أبنائها — أن حملت هذا الاسم الذي يناقض الواقع،



الشفق القطبي وكأنه ستار من نور في أيسلنده وشمال إسكندناوة.

وينفر السائحين أن يختلفوا إليها. وتلك التسمية ترجع إلى سنة ٨٦٥ حين حلها أول أبناء الجنس الأبيض المسمى «فلوكي فلجردارسون» من النرويجيين، نزل فيورد «برايدا» في الشمال الغربي من الجزيرة، ثم تخطاه شمالًا فانكشفت أمامه أجوان تغص بالجليد ذهبت قطعانه ضحية بردها القارس؛ لذلك وصم الجزيرة كلها بهذا الاسم المنفر، رغم أنها أصبحت فيما بعد مقره ووطنه.

والجزيرة تبعد عن النرويج بنحو ٩٥٠كم، وعن جرينلندة بنحو ٣٣٠كم، ومن مساحتها البالغة ١٠٥ ألف كم^{٢}، ١٣ ألفًا تكسوها الثلاجات والجليد الدائم، و١١ ألفًا من ميادين اللافا البركانية، وسبعة آلاف من المنخفضات، والباقي نجاد وجبال.



بركان «كتلوجوسيد» الرائع: أيسلنده.

وأيسلنده غنية بالمناظر الطبيعية المنوعة والظواهر الفلكية الرائعة، في مقدمتها أضواء الشفق القطبي Aurora التي يعجز البيان عن وصفها؛ فهي إذا ما ظهرت — ويغلب أن يكون ذلك في أخريات الصيف عندما يطول الليل ويسوَد ظلامه — أسدلت على قبة السماء ستارًا من ضوء متوهج تتدلى أهدابه، وهي تتحرك في ألوان قوس السماء الخاطف، ويعزو بعض العلماء سببها إلى الاضطراب المغناطيسي الذي يعرو الأرض عندما تواجهنا بعض البقع الشمسية، وتصعد ذرات دقيقة مكهربة تصل الأرض وينشأ عنها هذا التوهج، وأكثر ما يكون عند القطبين المغناطيسيين.

إلى ذلك يضاف جمال الألوان السماوية عند مغرب الشمس ومشرقها، فما تكاد تتعاقب الألوان البديعة عند الغروب خلال ساعة أو ساعتين حتى يرى الأفق الشرقي وقد بزغ نوره في ألوان جديدة وضاءة تغاير سابقتها، بحيث لا يستطيع المرء أن يميز الفارق بين الصباح والمساء. أما المناظر الطبيعية الشائقة الرهيبة، ففي مقدمتها ميادين اللافا والسدود البركانية، التي تدل على مبلغ أثر برودة الجو ومفاجأتها للحمم المتوهجة عندما كانت تلفظها شقوقها وبراكينها التي تبلغ المائة عدًّا.



الفوارة الكبرى «ستركور» بجوار ركيافك.

ويزيد تلك جمالًا وروعة ما يتخللها من شقوق وخوانق أضحت اليوم نهيرات ضيقة متلوية بها كثير من الجنادل والشلالات والبحيرات الراكدة التي تملأ كئوس تلك البراكين الخامدة، نذكر على سبيل المثال من الشلالات Dettifoss، من أكبر شلالات أوروبا، ومدى غوره ٣٣٠ قدمًا، ويتوسط نهير Jokulsa الذي يصب في شمال الجزيرة، ويستمد ماءه من ثلاجة Vatna في جنوب شرق الجزيرة.

ومن البراكين نذكر «أيجا فجالا» أول ما يراه السائح وهو مقبل على الجزيرة من الجنوب تجلله الثلوج الوضاءة، وبركان «كتلوجوسيد»، ثم بركان Askja الذي روع الجزيرة كلها بثورته سنة ١٨٧٥، وغطى نصفها الشرقي بسحابات كثيفة مظلمة من دخانه وشظاياه. وفوهته من الكبر بحيث تتسع لإقامة مدينة تئوي نصف مليون من الأنفس، وتحف بها الفوهات الصغيرة الفرعية.

ومن ثلاجات أيسلنده ما يذوب جليده فيملأ الأودية، ويطرد ماؤه ألسنة الجليد إلى أعلى بقوة قد تكسر كتلًا منه تهوي إلى الوهاد المجاورة، وتلحق بها أضرارًا جسامًا.



أيسلنده أرض الجليد والنار حقًّا: مذ نرى بخار الفوارات قد شق له منفذًا وسط الجليد.



وسط جزائر فستمانوي بين دكتور ألماني وطالب أيسلندي.

وبالجزيرة كثير من العيون الكبريتية أشهرها يقع إلى جنوب ركيافك، وفي شمال الجزيرة وفي بعضها يصعد الكبريت ثم يتدفق في الشقوق المجاورة فيعلوها البخار الكثيف، ويكسو المنطقة بصبغة منوعة الألوان، وإلى جانبها ترى عيونًا تقذف بالأوحال الحارة، وكل أولئك له علاقة بالبراكين القريبة؛ إذ لوحظ أنها تزيد نشاطًا عندما تهدأ الحركات البركانية، وتهدأ إذا نشطت تلك البراكين. وهذا يشبه تمامًا ما رأيته في عيون سلفتارا الكبريتية شمال نابلي بإيطاليا؛ فهي تنشط إذا هدأ فيزوف والعكس بالعكس.

أما فوارات الماء الحار فتفوق السبعمائة عدًّا، وأيسلنده أغنى بلاد العالم بها، على أن أكبرها Strokkur إلى شرق ركيافك قد أضحى خامدًا لا حراك به منذ أن وقع زلزال سنة ١٨٩٦، لكنه يحاط بما لا يقل عن خمسين من الفوارات الصغيرة، وبعض فوارات أيسلنده يصعد بخاره من وسط الثلوج فيجمع بذلك بين النقيضين.

تلك بعض المميزات التي خصتها بها الطبيعة رغم صغرها، وكأنها قد أشفقت على أهلها في موطنهم النائي الذي يمس الدائرة القطبية، فسخرت لهم جانبًا من تيار الخليج الدافئ الذي يضرب في سواحلها الجنوبية والغربية؛ فيقيها شر طغيان الثلوج عليها من البحار القطبية؛ ولذلك أمنت مياه ثغورها الجنوبية والغربية من التجمد حتى في أقسى أيام الشتاء.

ويرى الكثيرون أن أيسلنده مصحة صيفية — وبخاصة في يوليه وأغسطس — لأن هواءها رائق قليل الأوساخ؛ بفضل ندرة سكانها، وإقفارها من الشجر، وانتظام هبوب الرياح العكسية التي تجدد لها هواءها، ولطول أمد ضوء الشمس صيفًا، ذاك الضوء الذي يظل في المتوسط عشرين ساعة كل يوم ويطهرها من الأدران والأوبئة. إلى ذلك تضاف بعض المركبات المعدنية المفيدة التي تصعدها فواراتها العديدة وأوزون البحر الذي تأتي به أنسمتها البليلة.

أقلعت بنا الباخرة ليرا عائدة إلى برجن، وما كادت تخرج إلى عرض المحيط حتى أخذت تتمايل، واشتد من حولها الموج، وعاودني وكثير من المسافرين مرض البحر، فلزمت مرقدي حتى رست على جزائر فستمانوي في صباح اليوم التالي، وظلت راسية ست ساعات تحمل وسقها من الأسماك.

وقد جبت أرجاء الجزيرة ذات الصخور المشرفة والبراكين الخامدة التي تسلقنا أحدها بعد جهد كبير، ثم عدنا إلى الباخرة واستأنفت سيرها، وألقت مراسيها في جزائر فارو ساعة واحدة، ثم برحتها، وكان البحر هائجًا يكاد موجه يخلع الأفئدة، ويهد قلب

الشجاع، بلغ من شدته أن كان بعض رفاقي على سطح الباخرة فعَلَتْ موجة سطح السفينة وغسلتها، ودفعت بصاحبي ومن معه إلى الجانب الآخر منها، وصدمته صدمة ألقت بنظارته إلى اليم، وكادت تودي بحياته.

والحق أن عظمة البحر المائج وروعته لتثير في الإنسان مشاعر سامية، حين تتجلى القدرة الإلهية، ويتضاءل جبروت الإنسان أمامها، وتعوزه الحيلة رغم ما أوتي من ذكاء وفطنة. ينظر من حوله فلا يرى إلا الماء الغاضب يمتد إلى الآفاق، وقبة السماء تنطبق عليه، والسفينة بينهما لا حول لها ولا قوة تحت رحمة المقادير تأتي بها ما تشاء. موقف يزيد إيمان المرء، ويوثق اعتقاده في الله جل وعز.

لبثت طوال أيام العودة ملازمًا الفراش لم أتذوق خلالها طعامًا ولا شرابًا، فكانت أيامًا مريرة عليَّ، وما كادت شواطئ النرويج تبدو على بُعد حتى عاودتني الحياة. وهنا ذكرت موقف كولمبس ورجاله، وأحسست بما شعروا به حين أن كاد يُيْئِسهم غياب البر عنهم أمدًا طويلًا.

أخيرًا دخلنا فيورد برجن ولبثنا نسير فيه ثلاث ساعات. وقد غيرنا زمن ساعاتنا في تلك الرحلة مرتين؛ الأولى: عند الوصول إلى جزائر فارو، حين كان زمنهم يتقدمنا بساعة كاملة زدناها نحن في ساعاتنا، والثانية: عندما وصلنا برجن. هذا في الإياب، وقد فعلنا عكس ذلك في الذهاب.

إلى هنا أختتم كلمتي راجيًا أن أكون قد وُفِّقْتُ فيما قصدت إليه من إعطاء حضرات القراء فكرة صادقة عن أوروبا: فضائلها ومثالبها؛ لعل لنا فيها أسوة وعبرة. والله ولي التوفيق.